رواية

ناجونَ من الحُب

رواية

ناجونَ من الحُب

جميع الحقوق محفوظة للناشر©. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله ، كليا أو جزئيا ، في أي شكل وبأي وسيلة ، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها،دون الحصول على إذن خطي مسبق بالموافقة من الناشر.

Copyright © All rights reserved to the publisher. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

الطبعة الأولى

2020

دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمّـــــان، العبدلي تلفاكس: 7559 464 6 00962

daralkhalij@gmail.com daralkhalij1998 daralkhalij

تتوفر أصداراتنا على: جملون

ناجون من الحب

(الجزء الثاني والأخير من رواية الوهم)

رواية

أشرف الضباعين

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٤٨٣٨/ ٩/ ٢٠١٩)
٨١٣.٠٣
الضباعين، أشرف عبدالله
ناجون من الحب/ أشرف عبدالله الضباعين
الواصفات: / الأدب العربي / / الروايات العربية/ / العصر الحديث
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
ISBN: 978-9923-23-038-1

قد ينجو الغريق بقشة

وقد يغرق الراكب لقارب

الحياةُ حظُّ المتفائل

الأستاذ حنا قنصل

الصديق صهيب طوالبة

السيد سمير علاونة

* كلمة للقارئ *

يقول تميم: "أنا الكائنُ المهزوم الذي أقسمتُ أن لا أكونه...تَنسابُ مـنْ بين أصـابعي وتَعبرُ مـنْ خِـلالِ فِنجـاني المكسـور وأراهـا ترحـل ولا استطيعُ أنْ أفعلَ شيئـًا... إنها الحياة".

هـذه الروايـة هـي تسـونامي الجـزء الأول مـن روايتـي الـوهـم وحتـى تستطيع أن تفهم الأحداث والشخصيات لا بد لك مـن أن تتعـرف عليـهم وتصاحبهم جيداً في "الوهم"! دون أن تصادق شخصيات الـوهـم وتعـيش أحداثها سيكون من الصعب عليك أن تفهم مـن هـم النـاجون مـن الحـب وكيف غرقت سفينتهم في عرض البحر وكيف نجا البعض منهم بصـعوبة وكيف مات الآخرون.

نحن في الحياة ناجون في كل شيء ومن كل شيء...

ناجون من الموت، ناجون من الحياة، ناجون مـن الألـم، نـاجون مـن السعادة، والأهم أننا نجونا من الحب...مهما تعثرنا وسقطنا فيه... نجونا أو سننجو.

"صدقني حين أقول لك: إنّك سوف تنجو مما تمر بـه الآن وسـتنجو من القادم أيضـًا"[1].

لقد تلقيتُ الكثيـر مـن الملاحظـات حـول روايـة "الـوهـم"، وسـألني بعض القراء عن حقيقة الكنز، هل هو موجود فعليـًا أم أنه وهم، وهـل مـا

(١) نيكيتا جيل كاتبة بريطانية من أصل هندي (كتاب روحك نهر).

حـدث في تلـك المنطقـة مـن محافظـة عجلـون الأردنيـة والمسـماة " هيريقليا" قديمـًا أو " أرحابا" و "أوصرة"[1] شعبيـًا في النصـف الأول مـن شهر أيلول عام ٢٠١٤ كوني موظفـًا في دائرة الآثار العامة حقيقةأم محض خيال، وبهذا الصدد أكرر أن بعض مما ذكرته في الروايـة يحمـل في جزئيـة منـه حقيقـة وأحـداثـًا تمـت قـديمـًا وحـديثـًا وأجـزاء كانـت مـن خيـالي وضعتها بما يُفيد الرواية، لكن لم أعتمد فيمَ ذهبت على أي معلومـات أو حقائق مـن عملي بـل هـي نتـاج قراءاتي ومعرفتي بالأحـداث التاريخيـة ومـاجرى في أيلـول ٢٠١٤ وربطهـا مـع الروايـة، كمـا تلقيـت عـدداً مـن الملاحظات حول شخصية تميم ومن هو؟بل ذهب البعض بوصفهاوكأن هذه الشخصية تمثل سيرة ذاتية والبعض فسرها على أنـه شخصـية مقربـة مني.إن قراءة الرواية قراءة نقدية وتحليلية وما تحتويـه مـن قضـايا فلسـفية وأخلاقية وتاريخية وسياسية، يُجيب على الكثيـر مـن الأسـئلة، ولا أنكـر أنني استفدت من تجربتي في دائرة الآثار العامة الأردنية لأربط بين القصـة التاريخية التي وردت في " الوهم" معشخصيات الروايـة الوهميـة،وبعض جوانب الرواية من حبكة وأمكنة وأزمنة وأحداثٍ وهمية.

أشرف

(١) تعني كلمة أوصرة في اللغات السامية مكان جمع وخزن الحبوب أو مكان الكنز، فكلمة أوصر بالعبرية خزينة أو خزانة أو ثروة أو كنز وتقابل بالعربية: أيصر وتعني الكساء الذي يملأ من الكلأ ويُشد... وتعني بالسريانية/ مخزن القمح وجذر الكلمة باللغة العبرية/ أصر، جمع وادخر وبالآرامية أصر أيضـًا: حبس وحجز.

* رواية الوهم *

صدرت رواية الوهم في حزيران ٢٠١٧ عن دار الخليج للصحافة وهي الرواية الأولى للكاتب أشرف الضباعين وتعتبر " الوهم" و"ناجون من الحب" روايتان متكاملتان.

عندما صدرت رواية الوهم حققت مبيعات كبيرة واستطاعت أن تأخذ مكانها كرواية قوية في المكتبة العربية، وإذ تتشرف دار الخليج للصحافة بنشر جديد الكاتب أشرف الضباعين رواية "ناجون من الحب" فإننا على يقين بأنها ستأسر القارئ وستحضى على إهتمام النقاد، ولذلك فإننا ندعو القراء والنقاد للكتابة إلينا بملاحظاتهم على الروايتين على هذا البريد الإلكتروني: a3zazi@hotmail.com أو للكاتب على صفحته:

https://www.facebook.com/ThewriterAshrafDabain

ولكم جزيل الشكر،،

* كنز هرقل *

مساء يوم الثلاثاء ٣٠/ ٩/ ٢٠١٤ خرج رئيس هيئة الأركان المشتركة الأردني (قائد الجيش) الفريق أول مشعل محمد الزبن بحضور رئيس الوزراء عبدالله النسور ووزير الداخلية حسين المجالي ووزير الدولة لشؤون الاعلام والاتصال محمد المومني بإفادة مثيرة في مقر رئاسة الحكومة حول عملية الحفريات التي أثيرت في محافظة عجلون شمالي البلاد في شهر آب من نفس العام، وعُلم أن كشف رئيس هيئة الأركان المشتركة للمعلومات التي يفترض أنها في صُلب الأمور العسكرية السرية، جاء تنفيذاً لتوجيهات عليا لوضع حد لأقاويل عن كنز هرقل الذي آثار بلبلة كبرى في الشارع الأردني وما رافقه من إشاعات وتحليلات، وحسب الفريق أول الزبن فإن السلطات الأردنية اضطرت للإستعانة بخبراء وأجهزة من إسرائيل لإزالة مخلفات عدائية لها علاقة بحرب عام ١٩٦٧، موضحًا أن تقنيات إسرائيلية استعملت بإشراف القوات المسلحة الأردنية لإزالة هذه المخلفات حرصًا على الأمن، ثم تم إخراج هذه الأجهزة من الأردن إلى إسرائيل.

لا تتوهموا أن روايتي "الوهم" و "ناجون من الحب" ستقدمان لكم قصة كنز هرقل المزعوم على طبق من ذهب، بل تضع بين أيديكم

الأسرار والألغاز، وبعض الأحداث، والتسريبات، بعض الآراء وهي متناقضة بالمناسبة، بعض الإشاعات، لتحاولوا أن تدخلوا معنا تلك الحفرة التي دخلها بعض الناس، وخرجوا منها بشيء ما، ثم صبوا فوقها طبقات من الاسمنت المسلح! قد يملأ الفضول والحيرة قلوبكم لأنها أحداث وتفاصيل مخفية ومتناقضة تجعل من يحاول تحليل الأمر يقع في الفخ الذي نصبوه لكي لا نفهم ما الذي حدث.

* الوهم الذي كان *

أنجل ملاكي الأسود... الحبُ المُميت! لا يمكنني أن أُخرجكِ من رأسي، فكيف بالله أدعي أنكِ لستِ عشقي...والجمالُ يأخذنا أسرى... يسجننا في الذكريات، ويضع من نُحب في رأسنا للأبد!

ليس غيابكِ المؤلم، ولا انتظار موعدٍ لن يأتي... لأنكِ وهم. بل المؤلم هو أن أكون بعيداً حينما تتنفسين، فزفيركِ هو شهيقي، وشهيقكِ هو المعزوفة التي تُطربني وتمنحني الحياة، وكلاهما حينما كنتُ معكِ صلاتي وخشوعي وتأملي.

آهٍ لو أن حُبكِ حقيقي... لو أنكِ فتاةُ أحلامي...لكنكِ ملاكي الأسود... لكنكِ الوهم.

جميع الذين مروا في حياتنا مروا بالقرب منا، ولم يمروا بدواخلنا... مروا مرور الكرام بخفة ورشاقة ورحلوا... أيًا منهم لم يقم في قلوبنا بحق.

نعم شتمتُكِ وكرهتُ حقيقتكِ وكرهتُ استغلالكِ لي... لكن لا أُنكر أنني لأول مرة عشتُ عِشقًا ظننتهُ عشقًا حقيقيًا...

انجل... كيف تحولتِ من عصفورٍ في بستاني إلى أفعى في لحظة؟ كيف تحولتِ من ناصحة إلى مغوية؟ لا يمكنني أن أتخيل كيف كُنتِ وكيف أصبحتِ.

الآن هي ماضٍ وأنا سجينٌ بسببها.

عندما تعرفتُ على انجل انقسمت الشمس إلى نصفين، نصفٌ لي ونصفٌ لها، نصفي يُنير لها ونصفها يحرقني... وما زال الحريق في قلبي...

استسلمتُ لعشقٍ كان منذ البدايةِ يُشبهُ حُبًا بين انسانٍ وأفعى... وأنتِ كنتِ الأفعى... حُبًا بين لوحةٍ زيتيةٍ جميلة وجرذ.

أنا يوليوس وأنتِ بروتوس... وطعنتكِ كانت القاتلة بالنسبة لي.

لقد نزحتُ إلى سجنٍ بسببكِ وأنت الآن تبحثين عن جسدٍ آخر تعتاشين عليه... أنتِ كنبات النرجس البري، بالرغم من جمالك الخارجي لكنكِ سمٌ قاتل.

قلبي الفارغ ما عاد يتسع لحبٍ اسمه حُب انجل...

رحتُ اسرح في السجن... وقمتُ أرقص على ألحان أغنية Joe Dassin.

" لو لم تكوني موجودة...

قولي لي لماذا أنا سأكون موجودًا؟

كي أجري في عالمٍ من دونكِ!

دون أملٍ ودون أسف.

لو لم تكوني موجودة

لكنت حاولت أن اخترع الحب
مثل الرسام الذي يرى دون أصابعه
ولادة الوان النهار
دون أي عودة.
لو لم تكوني موجودة
قولي لي لماذا أنا سأكون موجودًا؟
لو لم تكوني موجودة
لن أكون سوى نقطة من الشئ
في هذا العالم الذي يأتي ويذهب
وأشعر بالضياع.
أنا بحاجة لكِ
لو لم تكوني موجودة
قولي لي كيف سأكون موجودًا؟
أنا لم أتغير
ما زلت ذلك الشاب الغريب
الذي أطربك يومـًا بالشاعرية
والذي اخترع لكِ أيام الأحد
وجعلكِ تسافرين ...

أنا ما تبدلت

ما زلت ذلك الفتى الذي يغزوه قليلٌ من الجنون...

والذي حدّثتك يومـًا عن أميركا...

لكنه لم يكن غنيـًا كفاية...

ليصحبك إلى "كورفو"

وأنت كذلك ... ما تغيرتِ ...

ما زلت تضعين العطر الخفيف نفسه...

وما زلت تشرقين بتلك الابتسامة الرقيقة

التي تتكلم بالكثير دون أن تقول أي كلمة بالفعل ...

ما تغيرتُ...

فأنا دائمـًا أمشي في الطريق الذى أحبهُ

طريق وحيد فقط أعجبنى على الأرض ...

هو ذلك الطريق الذى سلكناة يومـًا معـًا.[1]

(١) أغنية لخوليو أجلسياس " أنا لم أتغير".

* الزنزانة *

هل يمكنك أن تصبح صديقًا لجدران زنزانتك؟ أو تحتضن قضبان السجن حبًا كأنهما يدا حبيبتك التي تعشق! أواه... كم يديكِ يا حبيبتي باردتين... لكن لا أملكُ إلا أن ألمسهما في هذا المكان المقيت... " لو أنني أعرف كلمة أعمق من كلمة – انطفأت– لقلتها! أنا لم أشعر من قبل بانطفاء روحي مثلما أشعر بها الآن"[1].

كان رفاقي في الزنزانة قلمًا ومجموعة أوراق، كنتُ أكتب وأكتب وأكتب ثم تنتهي الأوراق فيأتوني بغيرها! كانوا مستعدين لأن يمنحوني مئات الأوراق دون مقابل... دون منع أو رفض... وكلما مرت الأيام القاسية أكتبُ أكثر... وكنتُ أجمع ما أكتبه وأقول هذه المجموعة سأحرقها وتلك سأمزقها وتلك سأنثرها على الطرقات وهكذا أتخلص من كل البلاء الذي أحاط بي وخنقني... لكن ما أن اكتفيت من الورق حتى جاء أحد الحراس وصادرها وقال لي: الضابط قرر أنه سيصادر هذه الأرواق جميعها، سألته: لماذا؟ قال: لأنه ممنوع! مسموح لك أن تقرأ من مكتبة السجن لكن ممنوع عليك الكتابة. لا يعلمون أن الملهاة والمأساة في الكتابة، الفرح والحزن، الضحكات والدموع، الأمل والكآبة جميعها

(١) دوستويفسكي.

أمور حصل الكاتب على ختم تأشيرة سفر مجانية لها على جواز سفره المنتهي الصلاحية، فلا تلموني على مزاجي العكر تارة وعلى مزاجي الأقل عكورة تارة أخرى.

حاولت أن استسيغ كتب مكتبة السجن! لكن الطعام الذي يقدم في السجن أهون علي من هذه التفاهات! كيف يقرؤنها؟ أنها مخدرات... سم قاتل... أفيون... بلاء... إهانة للكتب... إهانة للجمل والكلمات والحروف!

سألني أمين مكتبة السجن وقد علم أنني سأخرج من أول لقاء مع مكتبته دون كتابٍ: ماذا تريد أن تقرأ؟

- لا شيء!
- سمعت أنك رجلٌ مثقف! كيف لا تريد أن تقرأ؟ ألم تسمع بقرار الضابط بأن كل كتابٍ يقرأه السجين سيأخذ عليه ساعة خارج زنزانته.
- لا شكراً... أفضل البقاء داخل الزنزانة الفعلية بدل " مكافأة مسمومة" لأكسب ساعة داخل زنزانة فكرية.
- أيعقل؟
- لا شيء عندك يصلحُ للقراءة.
- لماذا؟ ماذا تحب أن تقرأ وسنوفره لك.

وعندما أخبرته بما أُحب...تغيرت ملامح وجهه وعض شفتيه وغض البصر...

- وهل تظن أننا نستطيع إدخال هذه الكُتب إلى هنا أيها السجين، أشكر ربك أنني سأنسى طلبك... لو علم الضابط بطلبك لمنعك من الخروج من زنزانتك لعشرات السنين.
- وهل تظنني أطلب؟ أنا مجرد أخبرك بما أُحبُّ أن أقرأ. أنت سألت وأنا أُجيب!
- لا تقرأ أفضل!

هززت رأسي مغادراً المكتبة طلبًا للسلامة وفي عقلي أقول: لا... لا يمكن أن ينصلح شيء... لا يمكن أن تستقيم الأشياء هنا! "هذا المجتمعُ عفن... شممت رائحة العفن في السجن وعرفت أن هذا البلد لن يستيقظ أبداً"، وهذا المجتمع لن يصحو قط... سيظل مقموعًا وغائبًا عن الوعي... لا شيء يدعوك للنجاة، كل شيء يدعوك للهروب، كل شيء يدعوك للجوء إلى "جهنم" خارجًا ولا تبقى في هذه البقعة التي يسمونها "جنة"!

الوطن قطة تموء وقد تركت صغارها يموتون جوعًا... الوطن قطة تأكل صغارها فلماذا أنت هكذا أيها الوطن القاسي.

لا شيء هنا...لاشيء..لا وطن يصلح للعيش ولا قلوب تصلح للحب... لا نساء يصلحن لرسمهن على جداريات القلب ولا موسيقى تاخذك الى ما وراء الخيال..

لا شيء هنا يصلح للصيانة... الأمور كلها الى خراب... لا شيء تنشر عليه نوتات قلبك وتعزفه على قيثارة من روحك...الاشياء هنا ميته خالية فارغة، فلا شيء يدعوك للبقاء... كل شيء هنا يدعوك للموت.

يا ترى هل زوجتي وأولادي ما زالوا في الوطن أو غادروه إلى بلدٍ آخر؟ أشتاق لهم لكني مقتنع أن اللجوء إلى غربة بحرية أفضل من وطنٍ يعلمك الجوع والخنوع... وقبول الأمر وكأنه مكرمة!

اتمنى لو كان بإمكاني السفر أو لو لم اتزوج...

لو لم اتزوج لكنتُ رحمتها من حياة الفقر التي وضعتها فيها، لما أنجبنا أطفالاً للبؤس ونمنع عنهم الهواء والحرية والحق، وهناك في الغربة يتعلمون حب الحياة واحترامها!

كنت احمل زوجتي كامل المسؤولية لفشلي... لكن! أنه فشلي أنا... أنا وأنا وحدي فقط!

لا أصدق أن هذه البلاد تنجب أطفالاً للحياة، بل تُنجبهم عبيداً، ونربيهم ونعلمهم وننشأهم كعبيد... نموت عبيداً ويدفنوننا عبيداً... وهم بدورهم يعملون كعبيد ويأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون

وينجبون بدورهم عبيداً آخرين ثم يموتون كالعبيد... نحن أمام أجيالٍ من العبيد تُسلم الراية لعبيدٍ آخرين.

كنا شعبًا، فأصبحنا رقمًا، كنا نُدعى مواطنين وأغلى ما يَملك، فأصبحنا من يُحّصل منهم ضرائب وكل فترة ندفع أكثر... وأكثر، ولا شيء يشبع نهمهم!

- ألم تنجُ بعد؟

- جاحظ العينين! أهلا يا رفيقي...

- لقد سمعت ما كنت تفكر فيه

- لا أحد يسمعني ويفهمني كما أنت ولا أحد يجهلني ويكرهني كما أنت.

- أنا وأنت واحد كل شيء تكنه لي أكنه لك والعكس صحيح... اسمعني يا تميم " عندما تتخطى مرحلة صعبة من حياتك أكمل الحياة كناجٍ وليس كضحية"[1] عليك أن تختار الآن أن تكون ناجيًا من الحب أو ضحية! حياتك المستقبلية تعتمد على هذا الدور الذي سترسمه لشخصيتك في مسرحية الحياة.

(١) جلال الدين الرومي.

* القضية *

جَلستُ في قاعة الزوار، بإنتظار زائرٍ كما قالوا لي. من يا ترى يرغب بزيارتي؟ لم يأتِ أحد لزيارتي طيلة الثلاثين يوماً التي قضيتها في السجن. كان قلبي يتمنى أن تكون عائلتي من تزورني، لكن عقلي كان يقول أنه أحد الصحفيين الذين يحاولون تلفيق تهمٍ جديدة لي غير تلك التي ساقها مدعي عام محكمة أمن الدولة حيثُ أُحاكم، أولها العبث بأمن الدولة وأبسطها الإهمال الوظيفي.

كالعادة سأطلب من هذا الصحفي المغمور أن يغادر دون أن أمنحه أجوبة لأسئلةٍ غبية، وبينما أُصارع أفكاري دخلت المحامية أمجاد من باب الزوار وعلى وجهها إبتسامة كبيرة جداً وبيدها الحقيبة السوداء التي لا تحتوي إلا على أوراق قضيتي وجلستْ مقابلي:

- مرحباً.
- أهلاً أستاذة أمجاد.

كانت إبتسامة كبيرة ترتسم على مُحياها وأما أنا فتمتزجُ الدهشة وخيبة الأمل معاً على سحنة وجهي.

- غريب أستاذة أمجاد لماذا لم تأتِ للغرفة المخصصة للمحامين كالعادة؟ لماذا أتيتِ إلى صالة الزوار؟

- لأن معي لكَ أخباراً جيدة، ولأنني أزورك الآن كصديقة وليس كمحامية.
- أنتِ صديقة منذ لقائنا في الفندق... ما هي الأخبارُ الجيدة؟

أخرجتْ من حقيبتها ورقة وناولتني إياها وهي تقول:

- ستكون أنت أول شخص يخرج من محكمة أمن الدولة بكفالة.

أمسكتُ بالورقة ونظرتُ لها مطولاً... نعم ورقة مروسة باسم محكمة أمن الدولة،وكانت تحمل توقيع رئيس محكمة أمن الدولة وقراراً يقضي بتكفيلي بقيمة مليون دينار والخروج من السجن شريطة عدم مغادرة مكان اقامتي المحدد بالإتفاق مع المحامية أمجاد وأن أراجع المحكمة مرتين أسبوعيًا للتوقيع بإثبات مكان الإقامة.

نظرتُ لها... مباشرة نحو عينيها... وشكرتها... أغرورقت عيناي وبدأت دموعي بالإنهمار.

- هل هذه دموع الفرح؟ ... قالت أمجاد.
- لا أعلم!

كانت أول مرة تتساقط تلك الأشياء الناعمة من عينيّ منذ شهر... منذ آخر مرة انهمرت في الفندق وأنا أتلو إعترافي في مكتب مدير الفندق بحضور الشرطة قبيل إلقاء القبض علي.

- لا يهم يا تميم البكاء يريح نفوسنا.

- أي راحة يا أمجاد... وأنا لا أعلم شيئًا عن زوجتي وأولادي... لا أهتم بقرار تكفيلي رغم أنه جميل جداً لكن أكاد أُجن لأعرف شيئًا عن زوجتي وأولادي،ابتعدت عنهم من شهرين تقريبًا ولا أعرف عنهم شيئًا... كل تفكيري مُنصب الآن حولهم وإلى أين أخذهم بهاء وما إذا كانوا بخير! أخاف أنهم وقعوا بيد العصابة أو أنهم تعرضوا لمكروه ما.
- صدقني يا تميم لقد فعلنا المستحيل لمعرفة أين ذهبوا... الأمن العام والبحث الجنائي والمخابرات كلها تبحث معنا... السيارة التي رصدتها كاميرات المراقبة الأمنية والتي كان يقودها بهاء شوهدت آخر مرة في المفرق وبعدها اختفت كليًا، والمحققين يحاولون معرفة ما السبب الذي جعل بهاء يأخذ عائلتك نحو المفرق، لقد حاولوا أن يعرفوا إن كان لديه أصدقاء أو أقارب في المفرق لكن لم نتوصل لأي شيء ومع ذلك فما زال التعميم قائمًا على السيارة وعلى بهاء شخصيًا، الجهات الأمنية لا ترى في بهاء خطر فهو غير مطلوب بأية قضايا سابقًا.
- نعم أعتقد أنه انسان طيب عرض نفسه للخطر في سبيل حماية عائلتي... لقد فعل ما كان واجبي أن أفعله أنا، لكن هل تعتقدين أنهم في المفرق أو في قرية ما من قراها؟

صَمتتْ ونظرتْ للأرض...

نَظرتُ لها مطولاً لكن وجهها كان يمنحني جوابًا مرعبًا

- هل هناك خطبٌ ما؟
- حسنًا سأقول لك الحقيقة... بعض تحليلات المحققين في الأمن يظنون أن بهاء أخذ عائلتك إلى العراق سراً مع أن لا إثبات رسمي حول خروجهم نحو العراق براً، وهناك تحليل آخر لكن من وجهة نظري كل التحليلات التي سمعتها غير دقيقة.
- لماذا التحليلات اتجهت نحو العراق؟
- هكذا خرجت الإحتمالات... أنه قام بتهريبهم نحو العراق.
- أيعقل هذا؟
- على الأقل هم ليسوا ملحًا وذابوا فجأة... لكن الإتصالات مع الجانب العراقي لم تأتِ بنتيجة إيجابية خصوصًا أن الحكومة العراقية تكاد لا تسيطر على حدودها مع العراق، ثم هناك احتمالاً ضعيفًا جداً أنهم في سورية لكن الناس تهرب للأردن من سورية فكيف يمكن أن يهربوا من الأردن نحو سورية والحدود أصلاً مراقبة بشكل كبير.
- نعم داعش تسيطر على المنطقة... هذا وحده يثير رعبي.

صمت كلينا... بعد بعض الوقت من الصمت كاد يكون كأنه ساعات... بادرت هي بالحديث:

- حسنـًا لنتأمل خيراً.
- هل يمكنني البحث عنهم عندما أخرجُ من هنا؟
- لا... لا تستطيع، يجب أن لا تخرج من عمان إلا بموافقة المحكمة، ثم ما الذي يمكنك فعله والمحققون في البحث الجنائي والأمن العام ودائرة المخابرات لم يفعلوه؟ لكن لا تهتم أنا وصديق لي سنساعدك بهذا الأمر لاحقـًا.
- حسنـًا سأصبر... سأنتظر فرج الله.
- غداً سآتي وسأقلك إلى شقة صغيرة استأجرتها لك... لكن قبل ذلك سأخذك إلى الحلاق ثم إلى المول ستشتري ما تحتاجه لتكون إقامتك في الشقة مريحة قدر المستطاع.
- شقة! لماذا لا أذهب إلى بيتي؟
- لا تستطيع حاليـًا... بيتك تحت المراقبة والشقة التي ستُقيم فيها كذلك والقاضي قرر وضعك في الإقامة الجبرية وبكفالتي وممنوع عليك الخروج من الحي الذي أنت فيه، لذلك استأجرت لك شقة صغيرة قريبة من بيتي ستسكن فيها إلى أن يصدر قرار المحكمة.
- لماذا تفعلين هذا الأمر لي؟ لستُ قريبـًا لكِ ولم أعطكِ قرشـًا واحداً لتمنحيني جهدكِ ووقتكِ ولم...

- هس! اصمت... أفرح بهذه اللحظات... لا تفكر كثيراً... سأقول لك السبب غداً، الأن علي الذهاب لأتمام عملية تكفيلك مع إدارة السجن لكن أريد منك شيئًا واحداً.
- ما هو؟
- أرجوك أنا لا أملك مليون دينار... وقعت على كفالتك فأرجو أن لا تخيب ظني بك.

قالت جملتها وخرجت... أما الحارس فأتى وأخذني إلى زلزالتي المنفردة.

* الخروج من السجن*

في الصباح الباكر تمت الإجراءات بسلاسة ووقعنا على تعهدات متعددة ونبهني القاضي إلى ضرورة عدم الهروب وعدم الإبتعاد عن بيتي وأنه قد يتم استدعائي في أي لحظة!

ذهبنا واشترينا ملابس وحلقت شعري ولحيتي وتناولنا طعام الغداء معًا ثم أخذتني لشقة قريبة من بيتها وسلمتني مفاتيحها ... كانت الشقة قريبة جداً من بيتها وفيها كل ما احتاجه تقريبًا... حتى السجائر والقهوة.

قامت وحضّرت لنا القهوة

- كيف تحب القهوة؟
- (ضاحكًا) أُحبها كما يُحبها العُشاق.
- أسفة... لا استطيع أن أُحضرها لك، لستُ عاشقة ولا أعرف كيف يُحضرها العُشاق.
- لا يهم... القهوة من يديك الطيبتين سيدتي ستكون بنفس المرتبة.

وجلسنا أمام التلفاز لنحتسيها معًا

ناولتني فنجاني وأخذت فنجانها وبدأنا نرتشفها ببطء وهدوء ثم بعد فترة من الصمت قالت لي:

- بيتي قريب جداً من هذه الشقة، لذا إن احتجت شيء فيمكنك أن تأتي لزيارتي... القانون يسمح لك بالتنقل داخل حدود المنطقة هذه فقط ولكن ليس في كل عمان، عليك الإنتباه.
- حسنًا... أستاذة أمجاد هل لي بطرح سؤال عليكِ؟
- نعم
- في الماخور... كُنتِ إنسانة مختلفة.
- نعم
- وفي فندق البحر الميت كُنتِ إنسانة أخرى.
- صحيح
- والآن أنتِ شخص ثالث... هل أنا المختل أم...

ما أغباني! لقد تعديتُ حدودي...صمتنا سوية... تمنيتُ لو شُقت الأرض وابتلعتني ولم أقل هذه الجملة.

- لا... لَستَ مُختلاً يا تميم... ولا أنا كذلك! لكن كل ما في الأمر أنكَ قابلتني في ظروف مختلفة... ونحن يا تميم بشر لنا مشاعر ومشاعرنا تؤثر في الظروف والظروف تؤثر على نفسيتنا، لذلك أنت تعاملت مع ظروفي أكثر مما تعاملت مع شخصي.

كيف لها أن تعرفني؟ أنها تجهل جاحظ العينين الذي يسكنني! أنه شخص قبيح جداً، معاق، عيونه جاحظة، وجهه مستطيل، لحيته جرداء... كل صفات القبح فيه..

- حسنًا هل يمكنني الآن أن أعرف من هذه الإنسانة التي شتمتها في أول لقاء وهي الآن صديقتي الطيبة ومحاميتي المجانية والإنسانة الوحيدة التي تشعر معي؟
- قدرك يا تميم أنكَ تفهم جنس حواء بالخطأ... بسطحية مفرطة... أنت لا تعرف عن حواء إلا جسدها وهذا ما يجعلك فاشلاً في كل تحليلاتك عنها...أنت ومعظم الرجال لا يفهمون أن حواء إنسانة ناعمة لكنها قوية، تستطيع أن تخدشها بسهولة ولكنك لن تستطيع أن تملكها، عاطفية لكنها ليست غبية، لا تتحكم بلسانها أو دموعها لكنها ليست سطحية.
- لم أرسم عنكِ هذه الأشياء السيئة قط!
- اذا لِمَ شتمتني في اللقاء الأول؟
- لأنني ظننتكِ تكرهين الرجال.
- أنت جزء من الفكر الرجولي الرجعي... الفكر الذي يتفوق فيه الرجل على المرأة ويتحكم فيها ويراها ضلعًا قاصراً ضعيفًا بدونه ويجب أن تبقى المرأة ضعيفة تحت ابط الرجل...

نفضت يديها وكأنها تريد أن تضع الأمر خلف ظهرها...

- لا يهم... لا يهم...المهم الآن أنت... أما أنا فبمثابة حبل النجاة الوحيد لكَ... دعنا لا نركز الأمر على من أن أكون!

- أنت مهمة بالنسبة لي... المرأة بالنسبة للرجل حبل مشنقة أو حبل نجاة... أنتِ حبل نجاتي بينما كانت انجل حبل مشنقة! أنت منقذتي فكيف لا أعرف من انقذني من حبل المشنقة؟

ضحكت

- حسنًا لن اجادلك فأنت ما زلت تفكر بالطريقة ذاتها.
- تحمليني أمجاد، لكن فعليًا من أنتِ؟
- هل تتذكر عندما أتيتُ للماخور؟ كُنت لحظتها سيدة متزوجة من رجل يكبرني سنًا، رجل اعتاد أن يضربني بسبب وبدون سبب ويتعمد أن يهينني أمام الناس وحتى أمام المرآة، وعندما رأيتني في فندق البحر الميت كُنت قد أصبحت أرملة منذُ مدةٍ قصيرةٍ، ولذلك كنت ألبس ملابس سوداء... ليست حِداداً عليه بل كانت ملابس احتفالية تصلح لأن ألبسها حداداً على الأيام السوداء التي قضيتها معه، وبعد أن عُدت من فندق البحر الميت كنت إنسانة مختلفة وهي التي تراها أمامك الآن... فأنتَ أيضًا كنتَ لي حبلُ نجاة... أنت قضيتي الأولى والوحيدة ولقد أبليتُ حسنًا في قضيتك حتى الآن.

قالت جملتها الأخيرة وهي تنفذ الدخان بنشوة لأعلى رافعة رأسها وكأنها تعلن انتصارها وعلى وجهها ابتسامة كبيرة جداً.

- من دلكِ على الماخور؟ أنتِ سيدة لا تتبع أهواء المواخير... حتى أنكِ بمجرد انتهاء الحديث شربتِ كأسًا ورحلتِ دون أن يلمسكِ أحد... أنتِ من القليلات اللواتي أذكرهن.
- أتصدق أنني كنتُ أركن سيارتي مقابل بيت الحياة لمراجعة طبيبٍ أزور عيادته لأول مرة والتي تقع في مبنى مقابل الفيلا، وعندما ترجلتُ من سيارتي لفت نظري تلك اللوحة التي عُلقت بجانب باب الفيلا...وكانت تطل على الشارع... تلك اللوحة الفسيفسائية الكبيرة لفتاةٍ عاريةٍ تسقي شجرة وكُتب تحتها جملة "بيت الحياة".
- نعم صحيح... اللوحة التي جذبت الكثيرات... اذا هي من جذبتكِ للبيت!
- نعم جذبتني اللوحة بشكل لا يوصف... شيء ما في اللوحة دعاني للدخول... أتعرف ما هو؟
- ماذا؟
- الفتاة العارية! كانت الفتاة في اللوحة تقول لي: تعالي للحياة... شعرتُ وقتها أنني سأجدُ ضالتي في الداخل وأن هناك من سَيُعريني مما أنا فيه... من قشوري ومن البلاء الذي كُنتُ أعيش فيه.
- ووجدتِ ماخوراً.

- أتعلم... عندما وجدت الحارس سألته إن كان هذا ناديًا خاصًا أو عيادة تحت اسم بيت الحياة فقال لي أنه نادي وأنه بالأمكان الدخول إن أراد صاحب البيت ذلك، فأخذني إلى شخص يُدعى وضاح... هذا الحقير الذي أوقعك.
- نعم وضاح... يا ترى ماذا حدث له؟
- كان في السجن وسأخبرك لاحقًا كل التفاصيل... لكن ظننتُ للوهلة الأولى وأنا أدخل أنه نادٍ ما للأثرياء فالمظهر العام كان يدل على أنه نادٍ خاص وجريء... جلستُ مع وضاح وسألني ماذا أُريد فأخبرته أنني أهتم بكأس وسكي وشخص ما للحديث، في البداية أخبرني أنه نادٍ خاص لا يفتح ابوابه للعامة لكن عندما اطمئن لي أخبرني أن البيت يقدم أكثر من وسكي وشخص للحديث، فعرفت حينها أن المظهر الخارجي للبيت يخفي حقيقة قذرةوبأنه بيت دعارة للأغنياء.
- بل ماخور يقدم خدمات للسيدات في معظم الوقت.
- صحيح ولكن مع التحقيق الذي اجرته دائرة الإدعاء العام تبين أنه تابع للعصابة وأنه ليس سوى غطاء لتوريط عددٍ من الأشخاص المحددين وتصويرهم لإستخدام الصور والتسجيلات لتهديدهم في الوقت المناسب ومنهم أنت.

- نعم صحيح... لقد أخذني أحد الزملاء في العمل للماخور وهناك تورطت.
- المهم بقي طوال الوقت يحاول إقناعيبأن اندمج مع أحد الشباب الصغار ولكنني أضجرته بطلبي شخصاً يُجيد الحديث لا أكثر، فدعاك للجلوس معي وهكذا تَعَرّفنا على بعضنا بعضاً لأول مرة.
- لقد صدمتيني تلك الليلة... لا أتذكر جيداً ماذا قُلتِ لكنكِ في تلك الأمسية... لكنه كان شيء نسوي جداً، وسأبقى أُكرر إعتذاراتي لكِ ألف مرة...لقد كُنتِ سيدة واثقة من نفسها... جميلةٍ... نَضِرَةٍ... ثم بعد أن بدأتِ بالحديث والبكاء أرعبتني واختلفتِ ١٨٠ درجة.
- لقد كُنتُ أَشكو لك حالي... لقد كُنت وقتها أُفكرُ جدياً في الإنتحار... أو في قتل زوجي... لقد كنتُ بائسة يائسة... غصناً يابساً لا إخضرار فيه، فكان أمامي خياراتٍ قليلة جداً.
- هلاَّ ذكرتني بما قُلتهِ؟

اطفأت السيجارة في المنفضة ثم وضعت كفيها على وجهها وأخذت تحاول أن تخفي حزناً ما على وجهها...

- أوه... حباً بالله... لماذا تريدني أن أعود للوراء؟ تلك الأيام رحلت دون عودة شكراً لله...

رفعت رأسها... وكانت تحبس دموعها بصعوبة... أمسكت فنجان القهوة بأصابع يديها وتحاول جاهدة أن لا تنظر في عيني وشاحت بنظرها إلى الأعلى تحاول أن تمتص للداخل حزنـًا يفيض ألمـًا ودمعـًا تحبسه خلف سدٍ قد ينهار في أية لحظة.

- أرجوكِ... أُريد أن أعرف أين أخطئتْ... أُريد أن أُعيدَ ترتيب أخطائي لعلي أُحسن هذه المرة ترتيب أولويات بناء حياتي مجدداً.
- حسنـًا حسنـًا... سأخبرك من أنا في تلك الفترة...

أخذتْ نفسـًا كبيراً جداً ثم طأطأت رأسها وانكمشت... كأن تلك المرأة في الماخور عادت من جديد! الله كم تغيرنا الأمور... بعض الماضي يُغيرنا بشدة، يخنقنا، يذبحنا من الوريد للوريد... يقتلنا ببطء...

- لقد كُنتُ متزوجة من رجل يكبرني بالسن وهو أحد أقاربي، كان يعمل مع والدي في تجارة ما ثم اختلافا، فانسحب وترك أبي وحده في هذه التجارة وكان أبي حديث العهد بها فأفلس سريعـًا، وكان ذلك حينما كُنتُ أدرس القانون في الجامعة، لم يتحمل والدي هذا الأمر فانفجر قلبه بجلطة قوية أردتهُ ميتـًا، وشاء القدر أن تموت والدتي بعده بأسبوع فقط، وفي ليلة وضحاها أصبحتُ أنا المسؤولة عن بيتٍ مفلس وعائلة مكونة من خمسة أفراد جميعهم أولاد في المدرسة، ولم نكن نحن الخمسة نملك شيئـًا، فأصبح عمي الكبير

مسؤولٌ عنا وكان عمي هذا ميسور الحال نوعـًا ما ومـريض وزوجتـه مريضة لا تستطيع أن تعتني بأخوتي الصـغار فكـان الحـل أن يضـحي أحدهم، وكنت أنا الوحيدة التي تستطيع أن تضحي، فتقـدم لخطبتي شريك والدي إياه فرفضه عمي بشدة لأنه يعرف أطباعـه السـيئة لكنـه تقدم بحل لمشكلة أخوتي الاطفال والذين لا يستطيع عمي المريض أو زوجته أن يعتنوا بهم أو يجدوا حلولاً للمشاكل التي بـدأت تظهـر بوفاة والدي ووالدتي... فكان الحل أن يتزوجني مقابل أن يعتني بنـا وأن يسدد ديون والدي ويعيد ما تبقـى مـن تجـارة أبـي، فمـا كـان مـن عمي إلا القبول طالما أنه سيتعهد العائلة.

ثم صمتت

- وماذا حدث بعدها؟

- تزوجنا وسمح لي بإكمال دراستي حسبما تعهد لعمـي، كمـا وتعهـد أخوتي لمدة ثـلاث سـنوات... خـلال هـذه السـنوات الـثلاث كانـت الأحوال نوعـًا ما ليست سيئة... كـان خـلال هـذه السـنوات الـثلاث مزاجيـًا تارة وهادئـًا تـارة... نـزق الطبـاع غالبـًا وقليلاً مـن المـرات يجن جنونه لأتفه الأسباب... لكن كنتُ اتحمله، ومع تقدم عمـي في السـن والمـرض أصـبح أكثـر شـدة معـي ومـع أخـوتي... وبعـد أن تخرجـت منعنـي مـن ممارسـة المحامـاة أو اكمـال دراسـتي العليـا،

وسجنني في البيت أما أخوتي فمنعهم من اكمال دراستهم الجامعية وأمرهم بالتوجه للعمل بوظائف متدنية... ثم توفى عمي... عندها اختلفت الأمور.

- هنا المشكلة... أن الأمور تختلف بعد الزواج... معظم الزيجات فاشلة. أُتعلمين لماذا؟ يقول نتشه عن الزواج: مَا يَتسبب في الزيجات التَعيسة لَيس غياب الحُب، بَل غياب الصداقة.

بدأت بعض الدموع تنزل على وجنتيها فسارعتُ لأنهي الحديث

- أنا أسف يمكنكِ التوقف...
- لا... لا يهم... طالما بدأت بالحديث فيريحني أن أخبرك بكل شيء.
- حسنًا... اذا كان عاديًا في بادئ الأمر ثم أصبح الرجل نزقًا.
- نعم بدأت علاقتنا كأي زوجين نوعًا ما، ثم بعد أن تخرجت من الجامعة طلب مني البقاء في البيت والتنازل عن أملاكي القليلة التي ورثتها عن عمي بعد وفاته كاملة له، رفضت فأخذت معاملته معي ومع أخوتي تسوء يومًا بعد يوم... وبعد أيام من موت عمي أخذ يضربني ويشتمني إلى أن قررت أن أخضع له فاتفقت معه على أن يسمح لأخوتي بالمبيت في بيت عمي في المقابل نتنازل له عن كل أملاكنا التي ورثناها عنه وأن لا أعمل بل أكمل دراستي.

- وثم؟
- هكذا حدث...سجلنا كل ما كنا نملكه باسمه وعاش أخوتي في بيت عمي بمصروف قليل وأنا سمح لي باكمال دراستي الجامعية حتى يضمن عدم عملي، حتى حصلت على شهادة الدكتوراة وأخواني تدبروا أمورهم ثم هاجروا الواحد تلو الآخر خارج الأردن.
- ومن أين لكِ بالسيارة عندما أتيت أول مرة لبيت الحياة طالما أخذ كل ما تملكين؟
- هي سيارته وكنت أخذها منه لشراء أغراض البيت أو الذهاب بها للجامعة أو لزيارة أخوتي قبل سفرهم.
- وكيف مات؟
- مات قبل فترة قصيرة من لقاءنا في البحر الميت... أوه عندما اتذكر ذلك اليوم أشعر بالسعادة، لم أبكِ عليه للحظة... سقط أمامي كلعبة قماشية ولم أحرك ساكنًا لساعات... عندما أتى الاسعاف والبحث الجنائي سألوني متى مات، كذبت عليهم قلتُ لهم أنني كنتُ خارجًا وعندما عُدت وجدته هكذا.
- هل مات نتيجة جلطة أم مرض ما؟

كان سيلاً من الدموع يتحرك في عينيها أما هي فغرست يديها في شعرها وأعادته للخلف محاولة أن تعيد ترتيبه من شدة انفعالها...

- تقرير طبيب التشريح يقول أنه مات نتيجة الإختناق بالطعام.
- الإختناق؟ لماذا لم تساعديه؟
- أتعلم شيئًا؟ لعلك ستقول أنني قتلته... لقد أُصيب بالإختناق أمامي... جلستُ أنظر له يختنق ولم أساعده... نعم جلستُ هناك أنظر للوحش يفارق الحياة... جلستُ هناك أراه ينتهي وينتهي معه ألمي وتعبي وخوفي ورعبي ووجعي واضطهادي... أتعرف لماذا لم اساعده؟ قبلها بساعة كان قد ضربني بشدة وقوة وشتمني وأهانني وقرر أنه لن يسمح لي أبداً بالخروج من البيت وأنه سيسجنني في غرفة إلى أن اتعفن وأموت... وعندما بدأ يأكل كان يتحدث عني كأنني حشرة وأنه سيقتلني يومًا ما اذا لم أمت قريبًا وحدي.

انفجرت بالبكاء... كانت الدموع تنهمر بشدة من عينيها... لقد انهار السد أخيراً...

- مات أمامي... اختنق وهو يشتمني... لفظ الروح مثل كلبٍ اختنق بعظمة..."فطس"[1] وهو يشتمني وأنا أنظر إليه... لا أعلم هل كنت وقتها سعيدة لأنني سأتحرر من وغدٍ مثله نهب أموالنا وعاملنا بقسوة وشتت عائلتي، أم أنني كنتُ خائفة أن يبلع اللقمة ويعود للتنفس مجدداً ويضربني ويخنقني... كنتُ أرتجف كطفلةٍ صغيرةٍ... كنتُ

(١) فطَس الرجلُ : مات من غير علّة ظاهرة أو مات مغمومًا

أنظرُ إليه وهو مُمَدد على الارض لا روح في جسده... حتى عندما أتى الإسعاف والبحث الجنائي ووضعوا على جثته قطعة قماشية كنتُ أظن أنه في أي لحظة قد يرمي عن جسده القطعة القماشية وأن يهجم عليَّ ويخنقني.

كانت تتحدث وهي ترتجف خوفًا وتتصبب عرقًا والكحل الأسود قد سال مع الدموع عن جفنيها... وكأن الحدث يتكرر أمامها الآن للمرة الثانية.

لمستُ كتفها وربّتُ عليه بكل هدوء لعلها ترتاح قليلاً...

- إهدئي... هس هسسسسس... أهدئي لقد تحررتِ منه... لقد مات وانتهى.
- نعم... مات... مات الوغد... بعد أن تأكد البحث الجنائي أنه مات بسبب الإختناق وحاولوا اتهامي بأنني لم أساعده... ألقوا القبض علي ووقفت في وجههم كمحامية ودافعت عن نفسي ونجحت فأخلوا سبيلي بعدها بيوم واحد فقط.
- كيف فعلتها؟
- أخبرتهم أنه كان يخونني وأن صحن الطعام الآخر في البيت كان لسيدةٍ أُخرى وأنها غادرت البيت فوراً بعد موته وقبل أن أعود أنا.
- من أين لكِ هذه الفكرة الجهنمية؟

- لأنها حقيقة... زوجي كان يتعاطى الفياجرا وكان يمارس الفجور مع سيدات أخريات... وكانت عنده سيدة في البيت قبلها بيوم...كان هذا روتينًا عندما أكون في زيارة لقبر أبي وأمي وعمي وزوجته... زيارةً روتينيةً أقوم بها كل شهر... وكنتُ آخذ السيارة وأذهب خارج البيت لساعات أما هو فكان يجلب سيدة للبيت وأحيانًا كانا يتناولان الطعام... في ذلك اليوم استطعت أن أعرف أيُّ صحنٍ لها فعندما سكبتُ الطعام له في اليوم التالي وضعته في صحنٍ نظيف أما صحني فكان غير نظيف وبصمات أصابع السيدة عليه ولم ألمس شوكة ولا شيء وضعتهم جميعا على الطاولة مع الطعام وجلس يأكل... كان لديه حساسية ضد الفلفل والحار... عندما وضع أول لقمة من الطعام تفاجئ بالفلفل والحرارة فاختنق كالكلب... ولم يستطع التنفس... أصابته الحساسية من كثرة الفلفل فمات كالكلب وأنا أنظر إليه.

كُنتُ أنظر لها بصدمة... لقد قَتَلتهُ بخطةٍ محكمةٍ... وبدون سُم... بجرعةٍ عاليةٍ من الفلفل الحار... ومن قد يموت من الفلفل؟

- لقد قتلتيه...!!!

كانت ما تزال ترجف وعيناها نحو الأرض وتبكي بكاءً شديداً.

- لقد تخلصتُ منه... عندما فحصوا الصحن وجدوا بصماتها عليه وعندما واجهوها خافت وأخبرتهم أنها كانت على علاقة معه لكنها أنكرت أنها كانت معه ذلك اليوم لكن كل القرائن عملت ضدها فاتهموها بعدم مساعدته وأغلقوا القضية لأنهم إعتبروا الوفاة حادثًا عرضيًا وليس جريمة وأطلقوا سراحها حتى لا يتسبب الأمر بفضيحة عشائرية أكبر.
- ولم يكتشفوا أنه مات بسبب الفلفل؟
- بلا... لكن أعتبروه إختناقًا.
- لقد قتلتيه...!!!
- هو قتل فيَّ كل شيء...
- لن ألومكِ... لا يحق لي أن ألومكِ بشيء.
- لذلك ما أن خرجت من هذا الأمر حتى قررت الإحتفال على طريقتي في البحر الميت... وهناك رأيتُكَ للمرة الثانية.
- لقد كان الأمر من حظي... لولا وجودك هناك لكنتُ الآن في السجن اتعفن!
- أنتَ أول قضية أعمل عليها... الآن لدي مكتب وأزاول مهنة أُحبها وأشعر بحريتي وأمارس حياتي وفوق هذا كله أنا أملك كل شيء تركه الوغد... أنا ثريةٌ جداً... أتعرف ماذا؟ لقد قررت أن أكون محامية الفقراء... سأدافع عن الفقراء وبالمجان.

- أنتِ مجنونة... لكنكِ إنسانة...

قفزت من مكانها تدور مثل سكيرة مخمورة تضحك والخطوط السوداء تغطي وجنتيها... تدور وتدور هذه الأرملة السوداء التي قتلت زوجها... تدور وهي تقول: لقد قتلتُ الوغد... لقد قتلتُ الوحش وأنا الآن حرة... حرة... أنا محامية الفقراء... أنا محامية الفقراء.

رقصت بجنون إلى أن تخدرت قدميها وجلست منهكة متعبة من رقصة الموت...

- وأنتَ... لقد أبلغوني أنك كنت تكتب شعراً وكلاماً جميلاً في السجن.
- محاولات... فقط لتفريغ همي.
- أنا أحسد النساء اللواتي يقعن في حب الشعراء... أنهن يعشن أجمل لحظات حياتهن برفقة الأكثر رومانسية بين الرجال.
- بل يعشن مع الأكثر فقراً بين الرجال. أتظنين أن حب شاعر سيجعلكِ ملكة؟ صدقيني أنما أنتِ تضمين إلى صدركِ كومة أشواكٍ وتُقبلينها بحرارة! أتظنين أنكِ حين تُحبين كاتباً فإنه سيخرج من حالاته ويكون فقط رومانسياً؟ إن الأدباء والكُتّاب فقراء فبدل أن يُطعمكِ الشاعر أو الأديب طعاماً ويُمنحكِ ماءً ويدفع فواتير البيت ويشتري ما تريدين سيطعمكِ وعوداً كاذبة وكلاماً مسلوقاً وتشربين

القافية وتعيشين في دَينٍ دائم. تظنين أنه سيُصبح رومانسيـًا ويصنعُ لكِ قلائد فضية من النجوم وعقوداً ذهبية من أشعة الشمس... أنتِ تتوهمين... صدقيني ستنامين على فراشٍ ممزق وتُعيشين مع رجلٍ ممزق قلبه محطم وجسده العابث مهترئ... وسترحلين عن هذه الدنيا مكسورة الخاطر... جائعة... بائسة! إن النساء اللواتي تزوجن شعراء متن جائعات... لا تحبي شاعراً ولا كاتبـًا ولا روائيـًا ولا فنانـًا... لا تحبي رجلاً يهوى الكتابة ويهوى القراءة... لأنه سيخذلكِ بعد حين... سيخذلك بكل تأكيد!

- ألا يكفي الحب؟!
- الحب؟... الحبُ وهم... ونحن الكُتّاب والشعراء أفسدناه...
- أنت مخطئ... أنا اذا أحببت سأحب مُبدعـًا.
- أتعلمين ماذا يقول محمود درويش عن هذا الأمر؟
- ماذا قال؟
- " أتمنى لكِ اليأس يا حبيبتي، لكي تصيرين مبدعة. اليائسون هم المبدعون، لا تنتظريني وتنتظري أحداً، انتظري الفكرة، لا تنتظري المفكر. انتظري القصيدة، ولا تنتظري الشاعر. انتظري الثورة، ولا تنتظري الثائر. المفكر يُخطئ، والشاعر يكذب، والثائر يتعب".

*زفرات جاحظ العينين *

جاء المساء وكنتُ وحيداً! لم تاتِ أمجاد لزيارتي فبقيت في المنزل أتأمل عبر النافذة أمواج الناس التي تتحرك باستمرار دون توقف...

إن الناس هنا كئيبة، إن الناس هنا تعاني من صدأ في القلب! هزمنا الحزن وسيطر علينا، هرمنا ونحن شباب... جعلنا الحزن هنا مُقلدين... دمى تمشي ولا تتحرك، تتكلم ولا تتحدث، تقول ولا تفصح عن نفسها... إن الناس هنا أغراب عن أنفسهم... والمدينة غريبة عن نفسها... وأجساد البشر هنا لا تتحد مع أرواحها... نهيم في الشوارع نصفنا يمشي كالأبله والنصف الآخر يمشي بلا قدمين...

كل يومٍ نصحو في نفس الوقت لنشرب نفس القهوة (٣ معالق كبيرة من القهوة مع معلقة من السكر نُقلبها بخفة) ونلبس ذات الملابس ثم نسير في نفس الشوارع لنذهب لنفس الوظيفة ونختم بنفس الأصبع حضوراً غيابيًا في نفس الدقيقة كل يوم لنحتسي نفس القهوة المقرفة من عند ذات الكافيتريا ولنشاهد نفس الوجوه الكئيبة الشاحبة الناعسة الكريهة ونسلم على نفس الأشخاص لنمارس نفس العمل ونتحدث في ذات النميمة وحول سيرة فلان وأخطاء علان وضعف ذلك ووقاحة تلك وبشاعة ذاك وهبل أولئك وننتظر نهاية ساعات العمل بلهفة ونخرج

بنفس الطريقة لكن بوتيرة أسرع حتى نهرب من سجنٍ أُحتجزنا فيه كالعبيد... لنهرب يومياً في ذات الموعد لنعد إلى نفس الشوارع إلى نفس البيت الذي تركناه قبل ساعات لنمارس افتراس الطعام ذاته ثم نشرب ذات القهوة ونسأل زوجاتنا وأبناءنا نفس الأسئلة ونجيبهم نحن بدورنا عن ذات الأسئلة التي طرحوها علينا، ثم نضع المنبه على نفس التوقيت ثم ننام في نفس موعد النوم... وننام... لنحلم نفس الأحلام... لنصحو ليلاً بلا سبب في نفس الموعد... القلق ذاته... التفكير ذاته... الروتين ذاته... ثم تعاود النوم إلى أن نصحو على ذات صوت المنبه! يقول لك حان موعد الروتين.

قد يُغير هذا الروتين جنازة صادف موعدها منتصف اليوم فتترك عملك مبكراً وتذهب إلى ذات المقبرة لتشاهد وجوهاً غريبة تُشيع جزءاً منها مات مع الروتين إلى مثواه الأخير.

ظهر جاحظ العينين من حيث لا أدري

فأحضر النرجيلة ودعاني للبكائية.

لم أستطع البكاء، لم أستطع أن أحزن كما يفعل الناس عادة... ولهذا يبكي جاحظ العينين عني أحياناً وأحياناً أخرى يمل مني... لكن هذه المرة لم يبكِ!

تنفس الأرجيلة وأنا تنفستُ الحزن...

الحزن على ما آل إليه الحال...على وضع عائلتي.

أين أولادي وزوجتي؟ يا ترى هل هم أمواتٌ أم أحياء؟ جوعى أم يشعرون بالإكتفاء؟ أحرار أم أسرى؟ يشعرون بالأمان أو بالخوف؟ بالراحة أو بالضياع؟ تحت سقف بيتٍ أم في العراء؟ يضحكون أم يمارسون البكاء؟

- أتشعر بالوحدة؟
- لا يا جاحظ العينين... أنا لا أشعر بشيء... مخدرٌ... لا أشعر بأي شيء.
- بل أنتَ تشعر بكل شيء لكن الإنسان متى أصبح يمتلئ بالحزن فإنه يفقد التوازن ويفقد الإحساس بالوقت والمكان ويلتصق بذاته... بشيء ما...
- لا أفهمك يا جاحظ العينين.
- ومنذ متى وأنتَ تفهمني؟ ومنذ متى وأنا أفهمك؟ نحن ملتصقان... متشابهان... نحن واحد لا اثنان... لكنكَ الجزء الطيب من السيء مني وأنا الجزء السيء من الطيب فيك... لذلك لن أفهمك ولن تستوعبني.
- ألا تمل من الحديث معي؟

- أنا مرآتك الخاوية وأنتَ صديقٌ جيد لإمتصاص النرجيلة... أنا روحك المتزنة وأنتَ رفيقٌ جيد للإستهزاء به... أنا الوحيدُ الذي يعرفكَ على حقيقتكَ والقادرُ على استيعابكَ... وأنا... أنا قائد القافلة وأنا قبطان السفينة... وأنتَ بدوني لا شيء... لا شيء... أنا أدمانكَ... كلُ منا يدمن شيئًا، ندمن قهوة، ندمن شايًا، ندمن خمراً، ندمن حشيشًا أو مخدراً، ندمن حبًا أو كرهًا، ندمن بشراً أو حجراً، ندمن خيالاً أو مستحيلاً... كلٌ منا يدمن شيئًا ما حتى أننا قد ندمن موتًا إلى درجة الإنتحار.
- أنتَ يا جاحظ العينين صحراء خاوية... مقعدٌ مجاور خاوي لا نهاية لصمتك ولا بداية لحديثك. أنت كالتمثال حين احتاجك وكالزئبق حين أبحث عنك، كم مرة بحثتُ عنكَ وقلت في نفسي من أين ينبعث الصوت؟ من أين؟ وأدرك بقناعة تامة أن الصوت ينبعث من رأسي... مني أنا... واتمنى لو امزق نفسي ولا اسمعك... لكنني أظل اسمعك...
- أنا صوتك الداخلي... أما قلتُ لك أنني أدمانكَ... لكن أخبرني كيف تسمع صوتي؟
- اسمعُ ريحًا تُصّفر ولا أرى شيئًا سوى زوابع الغبار تتحرك في داخلي... ريحٌ مُفتته تكسر دواخلي الهشة، وهذه الريح تثيرها في

داخلي الرغبة في الإنتقام من نفسي... وأنفجر بعد كل لقاءٍ بيننا باكيًا بحرقة في الأعماق لأنني أعرف أنني مجنون أبله يتكلم مع ذاته... وانتحب... وأنتَ... ذلك الصوت الذي يخرج من عظامي ومن أعماقي... لا يهدأ... وأنا ما عدتُ احتمل، ما عاد عندي قدرة لتلقي رصاصة رحمة جديدة.

- أنت مجنون

- " لكني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنتَ إلى عالم غريب بعيد، وإنني أستر عنك جنوني، لأنني أود أن أكون مجنونًا وحدي. أنت لست صاحبي، يا صاح! ولكن كيف السبيل لإقناعك فتفقه وتفهم؟ إن طريقي غير طريقك ولكننا نمشي معًا جنبًا إلى جنب"[1].

وأرتعدُ وكأنني أتحول ذاتي إلى ذبذبات ذلك الصوت الرهيب وكأن ذلك الجبار الجاحظ العينين أصبح أنا... وغفا في سبات عميق... وأنا لا أنام!...

"إلى أين تمضي الحياة بي؟ ما الذي يصنعه العقل بنا؟ إنه يفقد الأشياء بهجتها ويقودنا نحو الكآبة..."[2]

---

(١) جبران خليل جبران.

(٢) فان كوخ (رسالة انتحاره) .

* الرفيقة شمعة *

ضوء الشمعة يرتعش من برودة الظلمة، وأنا ألتهبُ واترنحُ كسكيرٍ على السرير... تذوبُ الشمعة وأذوب معها وتلهث شعلتها جيئةً وذهاباً وكأنها أنثى أغمضت عينيها من ظلام الغرفة... وأنفاسها تكاد تختنق تحت ثقل انفاسي، تهتزُ أحياناً عندما تتسارع خطوات أنفاسي وتهدأ أحياناً... وأنا أصرخ... وأصرخ... وأصرخ قائلاً: " لا تطفئها... لا تطفئها..."

فتنطق الشمعة: " أنني متعبة واحترق ببطء لكن أنفاسك تمنحني الدفء فلا تخف لن تنطفئ شعلتي... تنفس بحرية".

- شكرا يا شمعتي.

- العفو يا رفيق العتمة! أخبرني لماذا تستأنس بضوئي ولا تستأنس بضوء الكهرباء؟

- أنتِ طبيعية وأحبكِ هكذا أما الكهرباء فالضوء صناعي وما عدتُ أطيق التصنع في حياتي... يكفي أنني المتصنع الوحيد في هذه الغرفة!

أخذتْ تحدقُ في وجهي بشيءٍ من الاستغرابِ والكثير من الدهشة، سألتني: ما بكَ؟

- آهٍ... آهٍ... لا شيء

- أخبرني...
- لا شيء
- اخبرني أو دعني أنام الآن في هذه الليلة القاتمة جداً
- لا... لا تذهبي... استريحي هنا وآنسي وحدتي
- اذا اخبرني
- حسنًا... سأخبركِ طالما تُنيرين الغرفة وقلبي... فلا تنطفيء رجاءً...

تتمدد من جديد ببلاهة وتثير جلبة بنورها... نورها الخافت اللطيف يثير زوبعة... لكنني استأنسه أكثر من نورٍ ساطع يخترق وحدتي... الشمعة معي وهذا يكفي فلن أكون وحيداً على الأقل، سأظل أتأملها وأنا أحكي لها أسرار أنطقها همسًا لئلا تسمعني الجدران... أو يسمعني جاحظ العينين فيأتي هذا القبيح على غفلةٍ ويجن جنونه وينزع سهرتي أنا وشمعتي...

أُخبرها كم أخافُ الليل وهذه الجدران...هذه الجدران الباردة التي أظن أنها تخفي في طياتها أشباح أظلُ اسمعُ أصواتها المخيفة، وأخبرها انني أخافُ هذه المدينة وكل شوارعها وأزقتها وجبالها ووسطها! ولذلك فأنا أُخفي في أماكن معينةٍ همساتٍ استطعتُ الهروب منها... ويتبعني جاحظ العينين يريدها مني ... وأهرب منه... ويلحقني...

وبقيتُ أهمسُ في أذن الشمعة... وأكادُ أستسلم للنوم وتكاد الشمعة تستسلم للموت فأصحو على حشرجتها وانتفضُ مذعوراً... أدعوها لأن

تبقى... وأن تستمر... وأقول لها: لا، أنا لم أنم يا شمعتي ولا نام قلبي... أنهضُ أبحث عن شمعةٍ أُخرى أُحي بنور الشمعة التي تلفظ أنفاسها وعودها الطري قد اختفى... أبحثُ وأبحثُ وأتذكر أن شمعتي رفيقة الليلة الفائته كانت آخر شمعة حية في تلك الأمسية وآخر شمعة تسمع أنين صوتي في العالم وأنها آخر ضوء طبيعي في المدينة... أنظر لها إلى أن بكت آخر قطراتها مع بزوغ الفجر الرمادي الذي أخذ يصبغ الغرفة ببريقه.

وانطفأت الشمعة... جلستُ منهكًا في بحثٍ لا جدوى منه... وحيداً بلا شمعة! حتى انتصف النهار.

طرق أحدهم الباب... لا أحد يطرقُ بابي... لا أحد يعلم بوجودي هنا أو في أي أماكن أخرى. لا أحد يعرفني لا أحد يذكرني لا أحد يتذكرني لا أحد يهتم... لعلها قطة تطرق بحثًا عن بقايا الطعام أو لعله مُحصل الفواتير... لعلهم الأمن العام جاؤوا يلقون القبض على عتمتي بعد أن أنطفأت الشمعة.

من عساه يطرق بابي؟

مشيت بتثاقل سكير نحو الباب وكانت المحامية أمجاد...

- أهلا صديقتي
- كيف الحال؟
- لا شيء جديد... فقط البقاء في البيت.

- ما رأيك لو ذهبنا لنأكل سوياً ونحتسي القهوة في مقهى جميل قريب؟
- لا أُريد الخروج من البيت... أشعر بالرغبة في البقاء والهدوء.
- لا لن تبقى هنا... ستحلق لحيتك الآن وتلبس ملابس أنيقة وتخرج معي... هيا... هيا

قادتني إلى الحمام وأمرتني بالإستحمام والحلاقة وأغلقت علي الباب، وأخذتْ تجهز ملابسي كما الأم تجهز ملابس طفلها لأول يومٍ دراسي في المدرسة، وعندما خرجتُ من الحمام، أمرتني بأن أرتدي الملابس التي اختارتها لي.

- لنذهب!

ذهبنا إلى المقهى وتناولنا الطعام وطلبنا أرجلتين وفنجاني قهوة...

- أمجاد... ماذا حدث بموضوع الكنز؟
- الكنز! أما زلت تفكر فيه؟
- لا بالتأكيد ليس كما تظنين... أنما عندما أفكر في أنني ساعدتُ الأوغاد في سرقة بلادي وتراثها وتاريخها يصيبني الغثيان من نفسي... كم كنتُ مجنوناً وأعمى لأتصرف مثل هذا التصرف الغبي.
- لست وحدك من يبحث عن الكنز... الكثير من مواقعنا تنهب كل يوم .
- اذا سرقوه؟

- لا... حسنًا سأخبرك ماذا حدث وأنتَ في السجن... لقد تم في أحد الأيام إغلاق الموقع الذي أخبرت الأمن عنه، وظهرت أخباره فجأة في الصحف والمواقع الإخبارية وعلى مواقع التواصل الإجتماعي وكثر الحديث عنه لدرجة أنه أصبح الخبر الأول أردنيًا ومن أهم الأخبار العالمية، لقد انتشر خبر أنه تم اكتشاف الكنز وسرقته كالنار في الهشيم ثم فجأة... ظهر قائد الجيش وقال أن الموقع عسكري وأن لا كنز هناك إنما جهاز تجسس اسرائيلي زُرع في أثناء الحرب وتم نزعه بمساعدة الاستخبارات الإسرائيلية التي زرعته في عام ١٩٦٧، ثم بعد نزعه تم شحنه إلى إسرائيل وطلب قائد الجيش ورئيس الحكومة أن يتوقف الناس عن الحديث عن هذا الموضوع، وتوقف الحديث بهذا الأمر بأمر القانون في العلن على الأقل ثم بعده بفترة نسي معظم الناس أمره.
- كل هذا وأنا في السجن!
- نعم.
- والعصابة؟ والبروفسور دانيال؟ وانجل؟
- لا شيء... لم يلق القبض إلا على جيمس والتحقيقات معه أثبتت أنه يحمل الجنسيتان الأمريكية والإسرائيلية ولم نستطع أن نأخذ منه شيء ولم يستطع الإدعاء العام أن يثبت عليه أي شيء.

- كيف هذا؟ ألم تكتشفوا أننا كنا نعيش معـًا؟ ألم يراجعوا الكاميرات في الفنادق؟ ألم يحاولوا أن يربطوه بجريمة قتل علاء؟
- لم نجد شيئـًا مما قلته في التحقيقات لا أشرطة لا دلائل ولم تُكتشف جثة علاء...هو مفقود بنظر الدولة حتى الآن! ولا... لم يجدوا أي دليل يثبت إدانة العصابة أو حتى جيمس، العصابة أو فريق الآثار كما حاولوا أن يوهمونا كانوا عصابة غير واضحة الأهداف، لم يتورطوا بقتل ولا يوجد ما يثبت أنك كنت مجبراً على العمل معهم!... كل الدلائل والتسجيلات التي ذكرتها في التحقيقات لم تثبت أنك كنت مجبراً، حتى تسجيلات الفنادق التي أقمتم فيها تثبت أنك كنت حراً وأنك متورط مثلهم وتسجيلات أخرى عادية سجلت عملك مع الفريق دون أي ضغط أو إجبار... وفي التحقيق مع جيمس أنكر أنه قام بتهديدك أو بتهديد بهاء بالسلاح كما ادعيت أنت ولأنه لا توجد شكوى من طرف ثالث أي بهاء تم إعتبار الأمر مغلقـًا لكن تم التحرز على سلاح جيمس... مسدس واحد فقط.
- أنهم مافيا... أذكياء... لم يتركوا خلفهم أي أثر يذكر.
- وهذا ما قد يخدمنا نوعـًا ما في القضية... فالخيوط التي لا تتشابك لن توصل أي اتهام نحوك.
- وجيمس ماذا حدث له؟

- تم إطلاق سراحه... عاد إلى اسرائيل فوراً بحماية دبلوماسية وأمنية.

جن جنوني... رميت بربيش الأرجيله من يدي ووقفت... وأخذت أصرخ وسط نظرت من في المقهى.

- أُطلق سراحه؟ كيف؟ المجانين المعاتيه! كيف يطلقون سراحه؟ أين هو الأن؟

كانت الدموع تملأ عيني... وأنا أصرخ أما أمجاد فقامت تهدأني وتطلب من الناس عدم الإكتراث لأمري، وتطلب مني الجلوس...

جلستُ وهي تحثني على الهدوء...كدتُ أُجن وأقول:

- لماذا نحاكم موجه تكسرت على اطراف ضفة وننسى أن نحاكم قلبًا كسّر حبًا على طرف البحر؟ لماذا نستوجب قارب صيد صغير لأنه صنع موجة وصلت بنعومة إلى شاطئ الراحة ونودع بالحزن يختًا وقد هز كيان البحر؟

- أجلس تميم... أجلس... لقد غادر الأردن منذ مدة.

- ماذا؟ كيف يطلقون سراحه وهو أحد أفراد العصابة؟ وأنا... أنا سجنوني شهراً كاملاً وحققوا معي يوميًا... لا لشيء إلا أنني كنتُ معهم!

- أخفض صوتك... لا نريد إثارة الجلبة...

جلستُ مرتبكًا... ضائعًا... أشعر بشيء ما ينخز قلبي... يحطمني... يقتلني.

براكين تثور في داخلي.

- كان الأمل أن يضغطوا عليه فتنكشف الحقيقة الكاملة... الحقيقة التي تسمح لي أن أجد زوجتي وأولادي... والأمل أن يكشفوا العصابة... والأمل أن يكشفوا الكنز قبلهم... الآن... لا أعرف أين زوجتي وأولادي... والعصابة (فص ملح وذاب)[1] و الكنز ما عاد كنزاً... وأنا مُقيد الحركة... متهم... فاقد وظيفة...أي حياةٍ هذه التي أحياها؟

- لا تيأس... التحقيق مع وضاح في السجن كشف عن أنه كان يساعد العصابة ويعمل تحت إِمرة البرفيسور ولا بد أننا سنعرف تفاصيل كثيرة غير التي قلتها لنا ولكن جزء كبير من التحقيق عسكري وأنا لا أملك معلومات كثيرة... أنا محامية عنكَ فقط ولا أملك السؤال عن موضوع الكنز والعصابة.

- أنت تتعبين معي كثيراً لكن...

- بدون لكن... سنحل الأمور... سنكشف كل الأسرار... سنجد الحلول... ما رأيك لو نراجع بعض الأمور معـًا... سأفتح تحقيقـًا جانبيـًا وسأستخدم محققين لنبحث معـًا عن عائلتك وعن العصابة... قد نستطيع أن نكشف أموراً ونقدمها للعدالة.

---

(١) مثل عن الإختفاء فجأة.

- لكني مُقيد الحركة ولا أملك مالاً لمحققين.
- من قال أنك ستدفع؟ هؤلاء يعملون لدي وأنا من أدفع لهم... ألم أقل لك أنني محامية الفقراء... لا بل أنت القضية الوحيدة التي بين يدي الآن وأنا أُريد أن نكشف معًا خيوط هذه الجريمة الكبرى ونكشف مكان عائلتك ونعيدهم لك.
- أشكرك صديقتي... أنت الإنسانة الوحيدة التي تساعدني الأن.

ابتسمت ابتسامتها العريضة وقالت:

- أنا ملاك.

وأخذت تضحك وتمتص من أرجيلتها...

- نعم أنتِ كذلك... ملاكي الحارس والشمعة المضيئة في حياتي.

* أسقطُ وأنهضُ *

بعد التفاوض لأيامٍ مع الموت في السجن قرر منحي مهلة إضافية بشروط تعجيزية ولكن أمجاد جعلت للحياة طعمًا آخر... ألا يحق للناجين من الحب علاجًا نفسيًا؟ أمجاد علاجي وأنا علاجها... أتفقنا بدون عقد أن نعمل معًا... هي لتهرب من جريمتها وأنا لأنسل من جرائمي... هي تبحث لي عن براءةٍ لا استحقها وعائلة أضعتها، وأنا أبحث لها عن وجدانٍ فقدته بزواجها من وحشٍ كاد يقتلها... لكنها أفطرت عليه قبل أن يتغذى على بقاياها...

أما أنا فقد مررتُ منذ فترة ببعض الظروف جعلتني بعيداً عن معظم الأشياء، فاقداً للإحساس، مصدومًا، لا استطيع التفكير، وأحاول تحليل ما حدث معي بصعوبة... أحاول أن أبلع ريقي لكن هناك شيء عالق في حلقي، أحاول أن أفكر مليًا لكن إشارات المرور وزحمة التفكير تعيق حركة المنطق في عقلي... أحاول أن أضع حدوداً للأبعاد الأربعة لكنني أصغر من بقعة حبرٍ على ورقة تم رميها في القمامة... أحاول أن أستعيد الوعي وأن أكون جزءاً من الواقع لكن الحياة ملت من صفعي على وجهي وركل مؤخرتي لأصحو ولم أصحُ!... وماذا أفعل؟

- لا جدوى من المقاومة فقط استسلم واترك للحياة أن تفعل بك ما تشاء.

- جاحظ العينين!
- إلى متى تحاول؟ لا شيء قابل للحل!
- أصمت.
- انتهى كل شيء.
- أخرس.
- أولاً لم تحصل على انجل ثانيًا خسرت عائلتك ثالثًا أنت موقوف من عملك رابعًا تعيش عالة على إمرأة أرملة قاتلة... وقد تقتلك هذه السيدة في أي لحظة أنها الأرملة السوداء[1]!
- أنتَ لست سوى صوتٍ سلبي في داخلي... سأخرسك وبشدة.
- أنت لستَ سوى أداة لهذه السيدة المتشحة بالسواد... تستغلك لتقضي عليك بعد أن تنتهي منك!
- لماذا تتحدث هكذا عنها؟ إنها ملاكي... " أنا لا أبرر للمجرم فعلته ولكن بعض الناس يتهمون السكين بالجريمة وهي مجرد أداة" أمجاد أداة الجريمة وليست مجرمة.

يغيضني أن يتحدث صوتي الداخلي عن أمجاد هكذا! تغيضني هذه الوقاحة التي يتحدث فيها جاحظ العينين! أنها ليست أنثى كاللواتي

(١) نوع من العناكب السامة للغاية من جنس الزوع تقوم الأنثى المسماه بالأرملة السوداء بقتل الذكر وأكله بعد انتهاء المجامعة.

عرفتهن... أنها لا تشبه زوجتي... أنها لا تشبه انجل... لا تشبه أمي... ولا تشبه كل النساء اللواتي عرفتهن... أنها أنثى من نوعٍ جديد... أمْ أنني أنا الجديدُ في عالمٍ من النساء لم أعرفه سابقًا!

- ليست أداة وليست سكينًا بل هي قاتلة... لقد قتلت زوجها وحينما انتهت منه شربت زجاجة خمر كاملة ودخنت سيجارة وهي تدوس جثته... وأنتَ ماذا ستفعل بك حينما تنتهي منك!
- من أين خلقت هذا الإدعاء أنها شربت الخمر ودخنت وهي تدوس جثته؟
- لقد تخيلتها هكذا... إنها خاطئة مجرمة قاتلة زانية عابثة غير مؤمنة... هل سمعتها يومًا تتحدث عن الله؟
- إن أشد ما يثير اشمئزازي أولئك الذين يسترون عيوبهم بالدين، فيكثرون ذكر الله وفي ظنهم أن هذا ينجيهم من النار، ويستر ما يفعلونه في الخفاء، وهم بذلك إنما يورطون السماء بخطاياهم ويحّملون الرب مسؤولية اخفاقهم في الحياة... فليتك تستر فضيحتك بدون أن تلبس قناعًا دينيًا.
- حسنًا... حسنًا أنا أخبرتك... دققت لك جرس الإنذار وأنت حر... حر.
- إن كنت متجمداً يا جاحظ العينين ومحنطًا ولا مشاعر لك أيها المتناقض، وقد ألبست روحك جبائر من الجبصين ووضعت

لوجهك قناعـًا، لن أُحبك! لن اسمع لك مجدداً! أنا أحـب مـن امـتلأ بالأخطاء واعترف أنه انسان طبيعي يمارس إنسانيته... أنا أحـب مـن اقترف ملايين الخطايا... من تصرف على طبيعته... من قال للنـاس: هذا أنا... أنا لا غيري... اقبلني أو ارحـل. هـي اعترفـت لـي بفعلتهـا وأنا اعترفت لها بفعلتي... نحـن متسـاويان، والآن ارحـل... اغـرب عن وجهي.

- سارحل ولكنك يومـًا ستسقط وستأتي إلي متوسلاً حلاً... تستجدي حلاً... ولن أُعطيك شيئـًا.
- أنا أسقط وأنهض وأسقط وأنهض وأسقط وأنهض وأسقط وأنهـض مـن جديـد... وأعلـم أن السـقوط شـيء أكيـد لا مفـر منـه... لكنـي سأنهض مجدداً إلى أن يسقط الجسد في الرمق الأخير.

* الرفيقة قهوة *

يجرفني الموج نحو العاصفة وأجدف... أجدفُ محاولاً أن أبتعد لكن ما التجديف بقلمٍ أمام ريحٍ عاصفة تسحبني نحو العمق؟ ما التجديف والعمق المميتُ يمتصني نحو المجهول؟ وأي الخيوط التي نسجتها في صناعة كنزة الحب مع انجل؟ لقد تشابكت كلها حول عنقي وتكاد تخنقني اذا ما تحركت... لا مجال لأن انزعها ولا أعرف كيف أفكها فكيف صَنعتُ هذه الكنزة بخيوطٍ تشابكت حول رقبتي بقوة!

أحاول العودة إلى الماضي لتحليل ما جرى لعلي استطيع أن أفك الخيط المعقد! وكلما اِقتفيتُ أثركِ ضاعت معالم الطريق، وأتوه لا أعرف للرجوع سبيلاً... لذا لا فائدة من العودة للوراء.

يحدث أن أتعب من تفكيري ومن عقلي ومن قلبي ومن نفسي ومن جاحظ العينين ومن ظلي ومن محاولاتي المتكررة البائسة للحل ومن كل ما يدور من حولي... يحدث كل هذا وأُتعب كل من هم حولي وأتذكر أنني أتعب من كوني أنا، فليتني لستُ أنا...

كان شرح ما حدث معي قد أصبح مملاً... شرحتها لبهاء ثم لمدير الفندق ثم للشرطة ثم للمدعي العام ثم للمحامية ثم لبعض الصحفيين ثم لرفاق السجن... وفوق هذا كله شرحتها لنفسي مئات المرات أو أكثر...

مللت لأن أعيد اسطوانتي المشروخة! فإلى متى؟

والآن تطلب مني أمجاد أن أكررها أمام محقق خاص جَلبتهُ لمحاولة البحث عن عائلتي ومعرفة مصير العصابة وأين يمكن إيجاد ثغرات في القضية تُعيد لي البراءة.

جلسنا في الشقة حول مائدة وأمامنا فناجين القهوة... وبدأت أسرد عليه ما حدث! وهو يكتب ملاحظاته كل مرة يجد في كلامي شيئًا يثير اهتمامه.

القهوة... رفيقة أسرارنا... رفيقة أحزاننا... رفيقة سعادتنا... رفيقة الصداقة.

القهوة في كل جلساتنا تعرفنا أكثر منا... تعرف صراحتنا وكذبتنا... تعرف عنا أكثر منا! تمل منا لكنها لا تفارقنا إلا وقد احتسيناها حتى آخر قطرة...

القهوة لا تعترض كثرة الكلام منا... وبوحنا الذي لا ينتهي... وعبثنا بها عند انتهاء الفنجان محاولين قراءة خطوطها المبعثرة في جوف الفنجان!

القهوة لا تعترض على البصاق الذي يسقط عليها من مجاملاتنا وكذبنا وشتمنا وضحكاتنا الغبية ونكاتنا السمجة وبكائنا الممل ودموعنا التي تسقط عليها ولا تقرف منها بل تختلط معها بكل حب.

القهوة لا تمل لمسنا الفنجان ومداعبته بأصابعنا وهي ساكنة في جوف الفنجان! بينما شفاهنا تُقبّل الفنجان وهي مجرد عابر سبيل للشفاه. هي المتعة والفنجان قشرة خارجية... هي اللذة والفنجان قناعها... هي الحُب والفنجان أداة...

القهوة تُعشق أو تُكره... أما الفنجان فلا يهم... قد نحبه ولكن يمكننا استبداله. لكننا نغضب إن انسكبت القهوة ونحزن اذا كُسر الفنجان! لماذا هذا البلاء؟ يجب أن نحزن على فقدان القهوة وأن لا نهتم بالفنجان! القهوة يمكن أن نشربها في أي فنجان...! القهوة هي الحُب أم الفنجان فقشرة أو قناع... كذلك المرأة هي الحب أما هيأتها ولباسها ومظهرها الخارجي فما هو إلا قشرة! داخل المرأة هو ما يجب أن نعشقه أما خارجها فقناع!

هذه القهوة شاهدة كم مرة شرحتُ قصتي للبشر، وتعاطف معي الكلُ إلا انجل... ملاكي الشيطان! أواه... أما زلتُ أذكُرها؟ نعم! وكيف أنساها؟ أينسى الماء علاقته بالزيتِ عندما يجتمعان على سطحٍ تشتعل تحته النيران؟ هكذا علاقتنا كانت... علاقة فاشلة! علاقة خطرة! علاقة تحرقُ الأخضر واليابس... علاقة مؤذية... ظننتها حبي وكم كنتُ أخدع نفسي، وظنتني غبيًا ونعم كانت محقة جداً!

عادةً ما يخدعُ بعض المراهقين بعض الساذجات المراهقات وكم كنتُ مراهقًا غبيًا... مراهق في الثلاثين! سلمتُ أمري لشيطانة جميلة

حقنت قلبي بمخدرٍ شهي، فغبتُ عن الوعي والمنطق والعقل واستسلمتُ لمشرط ومقص خداعها، فأجرت لي استئصالاً من واقعي ومن حياتي، جرحٌ صغير جداً لكنه عميق...عميقٌ بما يكفي ليحدث ثقباً في قلبي... وتشوهاً في صميم وجداني... وأنا الغبي الذي صدقت! أنا الذي كان علي أن أهتم بأولادي وهم رسالتي وهم حياتي... تركتهم دونما اهتمامٍ... ولأجل ماذا؟ لأجل فتاةٍ وهمية وكنز وهمي وحياةٍ جديدة وهمية...

أسامة: لا تهتم سيد تميم سأجد لك عائلتك في فترة قصيرة جداً.

فُقتُ من الغرق الفكري في ذكريات تلك الأحداث على صوت المحقق أسامة.

أنا: أشكر جهودك وأرجو لمهمتك النجاح.

أمجاد: لا شيء يقف في وجهنا... لا مستحيل في مهمتنا، نحن لن نبحث فقط عن عائلتك يا تميم، بل سنبحث عن الحقيقة كاملة، لتعود حياتك طبيعية! سنثبت برأتك وسنعيدك للعمل وسنعيد أطفالك للبيت وللمدرسة... لن نتوقف إلى أن ننجح.

انهمرت الدموع من عينيّ... شخصان غريبان عني يساعداني وبجد ونشاط وبكل عزم وقوة... أمجاد بدون مقابل لا بل بدون أي وعد مني... وأسامة دون أن يعلم إن كنتُ صادقاً أو كاذباً...

أسامة: صديق صديقي هو بالتأكيد صديقي، لذلك لن اتقاضى أجراً بل كل ما سأخذه هو تكاليف عملية البحث والتقصي فقط... أنا وأمجاد متفقان ونعمل معًا.

ابتسامة هذا العسكري المتقاعد بتجاعيد وجهه الكثيرة وسحنته السمراء وعنفوانه الجميل جعلني أثق به ثقة المتعلق بقشة في البحر... لا أعلم إن كان يملك القدرة والأدوات على البحث والتقصي لكن... ما المانع! لا خيار آخر أمامي... لا شيء .

أنا: كيف يمكنني المساعدة؟

أمجاد: لا يمكنك... لا يمكنك أن تغادر الشقة لأكثر من مسافة قصيرة حتى المقهى أو السوق! لا يمكنك أن تبتعد كثيراً ولوقت طويل.

أسامة: فعليًا لا احتاج منك إلا المعلومات وأنت قدمت لي المعلومات التي احتاجها لهذا الوقت، وسأطلب من الشرطة أن أدخل لمنزلك للحصول على صور لزوجتك وأبناءك...فقط أريد منك توقيع أوراق لتخويل شركتي الأمنية في عملية التقصي والبحث والتحقيق لأنني قد احتاجها أمام الشرطة والمحكمة.

أنا: أشكرك.

أسامة: شيء واحد أيضًا.

أنا: ما هو.

أسامة: أرجوك ابتسم... سنحل المشاكل معًا... أعدك بشرفي أنني وموظفي شركتي لن نتوقف إلا عندما نجد عائلتك ونكشف حقيقة العصابة... يعمل معي في الشركة رجال ذوو خبرات طويلة.

* ليت النسيان حبة دواء *

تعالِ نجلس على حافة القمر، ننظر بشماتةٍ لكوكبِ الأرضِ، نحتسي حبًا بفنجانٍ واحد، ونقول للهم أن أرحل عنا، وننسى الحياة... وننسى البشر... وننسى البرد والهواء... ننسى الحر والكدر... ننسى الجوع والعطش... فكيف نجوع ونحن نُطعم أنفسنا أشهى القُبل! وكيف نعطش وريقي لكِ وريقكِ لي أشهى من العسل! وكيف نبردُ وجسدينا غطاءٌ وكيف نشعر بالحر ونحن شعلتان من حُبٍ أقوى من الشمس والنجومِ... فتعالِ ننسى كل الأشياء ونبقى معًا.

لكن هذا الحب كُتِبَ له أن يكون شيئًا من الغبار...

كنت قد سرحت مع انجل... تلك الشيطانة التي أوقعتني بحبالها عن سابق إصرار وترصد لتأخذ ما تريده ثم ترحل! وكادت أن تحصل على شيء ما... لكن هل حصلوا على الكنز؟ متأكد أنا أنهم في الليلة الأخيرة واليوم الذي سبقه كانوا قد كشفوا معظم الأشياء لذلك اختفوا جميعا ما عدا جيمس... جميس الذي أراد أن يمسح كل الأدلة والمعلومات والحقائق عن هذه العصابة!

طُرق الباب... فتحته وكانت أمجاد

- صباح الخير...

- أهلا صباح النور.
- شربت قهوتك؟
- لا... كنتُ بإنتظاركِ
- حسنًا سأعمل لنا فنجانين... يبدو أنك كنت مشغولاً بشيء ما...
- لا كنتُ منهمكًا كالعادة في التفكير بانجل... (متلعثمًا) أقصد بالعصابة.

ضاحكة

- لا يهمك... أتفهم أنك أحببتها ونحن عندما نحب نقع أسرى، ولا سبيل لأن نتحرر إلا بالموت أو بالتحرير على يد قوات النخبة... وما قوات النخبة إلا حبّ قوي يسيطر علينا بجبروته وقوته وعنفوانه... لذلك أنا أتفهم بأنك ما زلت أسير هذه الفتاة!

بقيت صامتًا

- حسنًا بماذا كنت تفكر؟ أتريد مشاركتي الأفكار أم أنه مجرد تفكير في حبٍ من طرف واحد واستغلال من الطرف الآخر؟
- لا...كنتُ أفكر مؤخراً في المرحلة التي توصلوا لها في الكنز أعتقد أنها كانت مرحلة متأخرة من اكتشاف الكنز.

نظرتُ لها وكانت علامات الاستغراب بادية على وجهها...

- هل تعتقدين أنه جهاز تجسس اسرائيلي؟ هل تصدقين هذا الأمر؟

- وما الذي يدفعك للإعتقاد أنني أصدقهم؟ معظم الناس تعتقد أنه كنز وأنه تم شيء ما هناك لكن معظم الناس تجهل حقيقة ما حدث... والحكومة تنكر ما تم تداوله... لا بل تم نشر فيديو يظهر أنهم استخرجوا صندوقًا لجهاز رصد وتجسس زرعه الاسرائيليين في خربة هرقلا عام ١٩٦٧ كان مربوط على أحد خطوط إتصالات الفرقة الثانية سابقًا أي المنطقة العسكرية الشمالية وأن القوات المسلحة الأردنية ألزمت الجانب الاسرائيلي بإزالة هذا الجهاز بمعدات فنية إلكترونية وطاقم خبراء اسرائيليين مختصين، وأن الأمر استغرق ساعات لصعوبة الأمر!
- ساعات لإزالة جهاز تنصت! لكن كم من ساعات احتاج الاسرائيلي لوضعه؟ أتعتقدين أن الأمر منطقي؟
- ليس منطقيًا ولكنك تعيش الوهم... ستقنعني أن المجموعة استطاعت اخراج الكنز بوقت قليل؟ دعني اخبرك بشيء أنا لست مقتنعة بإدعائك ولكنني أيضًا لستُ مقتنعًا بالقصة الحكومية... هناك نقص ما في القصة، لكن قائد الجيش أعلن أن الجيش تعامل مع أجهزة أخرى مماثلة زرعها الاسرائيلي بعد عام ١٩٦٧ في عدة مواقع.
- حسنًا لا أملك أي معلومة عما تقولين لكن يبدو أن الموضوع أصبح كبيراً جداً بعد أن تم إلقاء القبض علي!

- نعم تفاعلت الدولة كلها في الموضوع لكن لم يكن موضوعك هو الذي تم تداوله بل موضوع الحفر واكتشافه بعد يوم وادعاء شهود عيان بأن شاحنات تحمل لوحات اسرائيلية كانت تحمل على ظهرها صناديق ضخمة من المنطقة اتجهت لاسرائيل وقال بعض شهود العيان أنهم رأوا الذهب بأم أعينهم.
- شهود عيان؟
- نعم... أحدهم قال إنه صندوق ضخم من الذهب الكامل وإنَّ الرافعة قد حملته عبر قضبان حديدية أدخلت عبر حلقات وإنه بعد إخراجه من المغارة لم يمسه أحد وأنه رأى رافعة أخرى تفتح الصندوق وكان على الغطاء الذهبي ملاكان من الذهب وعندما فتحتهُ الرافعة تقدم شخص بملابس تشبه الملابس الكهنوتية وأخرج من الصندوق عصا ووعاءً ذهبيًا ولوحين حجريين يبدو أنهم جميعا من الآثار، ثم أعادها هذا الشخص إلى الصندوق، وأُعيد اغلاقه، ثم وضع وحده في صندوق سيارة مصفحة ونقل على عجل، كما ذكر أنه رأى شمعدانين ذهبيين بسبعة رؤوس وتماثيل فاهتم الاسرائيليين بها أكثر من باقي الصناديق.
- إحدى المخطوطات الخاصة بالكنز التي رأيتها مع العصابة ألمحت لسرير من الذهب أوصافه تطابق أوصاف تابوت العهد اليهودي

كأحد الصناديق التي استقدمها هرقل من بلاد فارس وأن ملك فارس قال لهرقل أنه لن يعيد له فقط الصليب المقدس بل سيعيد له شيئًا ثمينًا آخر جلب اللعنات لسنين طويلة لبلاد فارس ومع ذلك رفض والده إعادته، لكنه سيعيده للروم وعندما سأله هرقل ما هو أخبره عن صندوق أو سرير من الذهب وكل من يلمسه يموت... أنه صندوق العهد والمجموعة كانوا يعتقدون أنه أحد الأشياء المدفونة مع صناديق الكنز.

- لذلك قال بعض شهود العيان أن الاسرائيلين أخذوا أولاً وعلى عجل سريراً مغلقًا من الذهب ثم نقلوا الباقي.

وضعت فنجاني القهوة أمامنا وجلست... ثم قالت:

- أتصدق شهود العيان هؤلاء؟ أظن أنهم بالغوا في الأمر كثيراً وأنهم مجموعة كذبة، المنطقة كانت مغلقة وبالكاد دخلها الذباب فكيف شاهدوا هذه الأمور؟
- هناك شيء ما حدث! سواء كانوا هؤلاء صادقين أو كذابين... هناك شيء ما حدث فعليًا.
- قصة الكنز وكميته ليست منطقية وقصة الجهاز الاسرائيلي لم تقنعني أيضًا.
- ما الذي دفع العصابة للقدوم للأردن والبحث عن هذا المكان ومحتوياته؟ ولو فرضنا أن الكنز وهم، فما الذي دعاهم لإهامي

بالكنز؟ وتزوير أوراق كثيرة بداية من أوراق وخرائط تدعي الكنز، ثم تزوير جوازات سفرهم، ثم تزوير أوراق تظهر أنهم علماء آثار من جامعة أمريكية؟ ثم لماذا انتقلوا لمنطقة البحر الميت واختفوا بلمح البصر؟ ثم لماذا اطلقت الحكومة سراح جيمس؟ وخروجه من الأردن هكذا بدون أن أي تهمة أو حُكم! ما حقيقة هذه المجموعة؟ وما حقيقة محتويات ذلك المكان؟

- هذه الاسئلة صعبة جداً لا يمكننا أن نفهمها لوحدنا فنحن لا نملك إلا روايتك حول المجموعة ورواية الحكومة عن ما حدث وهذا يجعلنا أمام روايتين متقاطعتين لا تتفقان إلا في أن خربة هرقلا في عجلون وأنها كانت تحتوي على شيء ما وحدث فيها شيء ما.
- وكيف سنعرف؟
- لن تعرف! الحكومة أغلقت الموضوع كليًا وأنت ستهتم الآن بموضوع برأتك وخروجك من هذا الأمر وعودة عائلتك وعودتك للعمل... ستنسى الكنز وستنسى انجل والعصابة... سنترك هذا الأمر للمحقق أسامة هو من سيتولى البحث والتقصي والاستنتاج وأنا سأتولى قضيتك في المحكمة.
- انسى؟ هل النسيان حبة دواء نأخذها فتفعل مفاعيلها وتقضي على فايروس الأخطاء التي ارتكبتها وتعالجني مم أنا فيه ومم فعلته وتعيد

لي حياتي السابقة؟ ألا تعتقدين أنكِ تبالغين عندما تقولين لي أنسى! كيف أنسى؟ هل النسيان أمر بسيط وسهل لدرجة أنك تضغط على زر ما فتمحو ذاكرتك القديمة وتعيد برمجة عقلك وقلبك مجدداً؟ كيف أنسى؟ هل النسيان ورقة كتبنا فيها أشياء معينة ثم نقوم بمسحها بممحاة أو تمزيق الورقة أو حرقها؟ كيف أنسى؟ لقد نقشت أخطائي على قلبي كما فعل الأقدمون وعندما نقشتها أخذت صفة الآثار... محمية من الإزالة ومحفوظة للأبد ولا يمكنك نزعها أو محوها أو ازالتها من عقلي ومن قلبي... النسيان نعمة خُلقت للأمور البسيطة أما الأخطاء الكبيرة فلا ينفع معها نسيان.

- اتفهم الأمر لكن ما باليد حيلة عليك التأقلم، ثم أتعلم شيئًا؟ الأحداث هذه ستخدمنا في القضية، أنكار وجود الذهب سيخدمنا وسيخرجك من تهم التعاون مع عصابة أجنبية للبحث عن الذهب، ما تبقى من تهم بسيطة مقارنة مع هذه التهمة... أنا سأعمل على اسقاط التهم المتعلقة بالذهب طالما أن الحكومة تقول لا يوجد ذهب، وسأعمل على اسقاط التهم المتعلقة بالتعاون مع العصابة طالما أن الحكومة أنكرت وجود عصابة وأنهم فقط مجموعة مزورين، وسأعمل على اسقاط التهم المتعلقة بخيانة الوظيفة لأنه ليس من دورك أن تعرف أن هذا الفريق كان مزوراً أو حقيقيًا بل هي

دور دائرتك التي اكتشفت الأمر بعد حين عندما اطلعتهم أنت على بعض حقيقتهم في بادئ الأمر فأنت كنت متعاونًا مع دائرتك عندما أخبرت مديرك أنك تشك في أمرهم... سأطلبه للشهادة وهذا الأمر يفيدنا جداً... جميع التهم ستسقط بكل تأكيد... ستعود للعمل وستعود لك عائلتك وعندها ستبدأ حياة جديدة.

طرق أحدهم الباب... ذهبت أمجاد فتحت الباب وكان المحقق أسامة.

أمجاد: لقد وصلت في الوقت المناسب... نحن نحتسي القهوة تفضل أشرب معنا.

أسامة: أشكركِ... اتمنى أن تكون قهوة خفيفة السكر.

أمجاد: هي كذلك.

سلمتُ عليه ووضعت له أمجاد فنجانه وسألنا عن أحوالنا وعَمَ كنا نتحدث، فأخبرناه عن حوارنا حول العصابة والكنز وادعاء الدولة بهذا الخصوص... وكيف ستسقط التهم عني بفضل أمجاد.

أسامة: من وجهة نظري ما قدمته الدولة جزئيًا صحيح!

أنا: هل لديك معلومات؟

أسامة: لا بل هو تحليل منطقي للأحداث فبعد أن سمعت قصتك وما قدمته الدولة عن معلومات حول الموضوع أعتقد أن رواية الدولة

صحيحة جداً... نعم لم تقدم الدولة كل المعلومات للإعلام لأنها قضية عسكرية سرية لكن رواية الدولة صحيحة في إعتقادي.

أمجاد: كيف؟

أسامة: تحليلي العسكري أنهم كانوا مجموعة من الأوغاد من الموساد الاسرائيلي، وأنهم دخلوا الأردن بالتعاون مع CIA وأنهم كانوا يريدون أن يستخرجوا جهاز التجسس الاسرائيلي من مكانه الصعب ليسحبوه قبل أن ينكشف أمره خصوصًا أنه لم يعد ينفعهم وأن صلاحيته على ما يبدو انتهت، ولكن الأمر لم يكن بالسهولة بسبب تضاريس الموقع وأنه على شارع رئيسي والمنطقة مأهولة بالسكان، رأوا أن أفضل طريقة هو العمل بإتجاهين الأول أن يقدموا أنفسهم كأنهم فريق علماء آثار ويدخلوا الأردن بترخيص من دائرتك للعمل تحت غطاء رسمي دون أن يتعرضوا لأي مشاكل، أما الإتجاه الآخر فهو السيطرة على المندوب الذي يمثل الدائرة لكي لا يفضحهم ويكشف أمرهم، ولذلك خططوا للأمر جيداً واتخذ الأمر منهم فترة ليست بقصيرة لكي يتوصلوا إلى فتح ماخور والتعاون مع زميل لك ليسرب لهم اسمك ونقاط ضعفك وثم تعاونوا مع وضاح وفتحوا له فيلا كماخور واسقطوك في أكثر من شبكة وبنفس الوقت زوروا بالتعاون مع الإستخبارات الأمريكية CIA رسالة من جامعة أمريكية على أن فريق آثار وطلابًا سيدخلون للبلد بصفة رسمية للتنقيب عن الآثار في منطقة ما ودراستها، كل هذه الأمور خططوا

لها بذكاء وفترة زمنية جيدة وعبر استخبارات دولتين تعتبران الأقوى عالمياً في مجال الإستخبارات ولكن كشفتهم الدولة فهرب العملاء إلى اسرائيل عبر معبر الملك حسين ما عدا جيمس، ولأن أمرهم انكشف وأصبح سرهم معلوماً وتحت الضغط على الأوغاد الصهاينة من قبل الحكومة الأردنية قررت الحكومة الاسرائيلية بعد انكشاف امر جواسيسها التعاون مع الحكومة الأردنية وأخرجوا جيمس والجهاز وأخذوه لإسرائيل! وأما شهود العيان فكانوا أوغاد أيضاً أرادوا التشويش وادعاء أنهم رأوا شيئاً سعياً وراء شهرة أو تشويش ما...

أمجاد: اذا جميس كان من الموساد وتم اطلاق سراحه بعد أن تعاون هو والاسرائيليين والامريكان بكشف الحقيقة.

أنا: والخرائط والمسامير والدلائل... وعلاء ووضاح وكاميرات المراقبة وكل هذا؟

أسامة: أخبرتك أنه تحليلي وتذكر أن الدولة لم تجد قط دليلاً على مقتل علاء... بالمناسبة سيكون علي في مرحلة ما اكتشاف دور علاء في هذه القصة كلها... واذا وجدته حياً سيكون تحليلي صحيحاً وسيصبح متهماً أو على الأقل شاهداً في القضية.

أمجاد: ممتاز... بدأنا نمسك الخيوط كلها واذا امسكنا الخيوط سيكون بإمكاننا أن نعمل على حل العقد فيها عقدةً عقدة... لكن لننسى موضوع جهاز التجسس أو الكنز حالياً، وسنأخذه على محمل الجد

لاحقـًا في اثبـات البـراءة، الآن سنقسـم أنفسـنا إلـى ثـلاث اتجاهـات أنـا سأحاول أن أحصل على معلومـات حـول هـذه المجموعـة ومـاذا حـدث معهم وسيكون اتجاهي دائرتك يا تميم والتحقيقات التي اجرتهـا الدولـة مع جيمس والجمارك الأردنية ومديرية إدارة الأجانب والحدود، وأسـامة ستحقق بموضوع عائلة تميم وأين أخذهم بهاء كما ستركز على موضوع وضاح والماخور وعلاء، وأنت يا تميم ستعمل على أن تعيد كتابة كل مـا حدث معك! ألست تحب الكتابة؟ ستعيد كتابة كل التفاصـيل وسـتتذكر كـل التفاصـيل الدقيقـة لأنهـا قـد تفيـدنا بالتحقيقـات الخاصـة بنـا... أي موضوع صغير أو تافه سيفيدنا جداً

أنا: لماذا؟

أسامة: أنا سأجيبك... في العـادة الكتابـة وأنـت وحـدك والتـذكر دون ضغوط أو طرح الاسئلة سيجعلك تتذكر تفاصيل غفلـت عـن ذكرهـا لنـا أثناء النقاش وهذا الأمر قد يجعلنا نصل لأمـور لا نعلمهـا الآن ونسـتطيع أن نربط الأحداث كلها معـًا.

أمجاد: ثم عملي أنا والمحقق أسامة قد يترابط في مرحلـة مـا ونخـرج بمحصلة.

أنـا: المهـم زوجتـي وأولادي... بـاقي الأمـور لا تهـم... لا أهـتم بالعصابة ولا بالكنز أو جهاز التجسس أريد فقط زوجتي وأولادي.

أمجاد: لا تهتم الأمور كلها ستحل...

أسامة: بالتأكيد.

أمجاد: اذا سنجتمع هنا كل ليلة حتى نخرج بنتائج محددة وواضحة لتحقيقاتنا.

* النساء في حياتي *

في اليوم التالي جاءت أمجاد مبكرة لتخبرني بأن اليوم زيارة اعتيادية للشرطي الذي يراقب عدم خرقي لشروط اطلاق سراحي وأهمها المحافظة على البقاء في هذه الشقة أو في الحي أقصى تقدير... نعم زيارات اعتيادية وزيارات فجائية!

ثم لماذا أغادر؟ وأين أذهب؟ أشكر الله صبح مساء لأن هذه السيدة المتوشحة بالسواد تقف معي! تساعدني! ولا أحد آخر يهتم...فكيف أُهينها وأخون عشرتها واحترامها لي وإيمانها ببرائتي ورغبتها بمساعدتي بالهرب!

ألستُ بريئًا؟ نعم أنا بريء... كل ما في الأمر أنني أحببتُ انجل!

هل أنا فعليًا بريء؟ اتمنى لو استطيع أن أقنع نفسي ببرائتي... لكنني متورط حتى أرنبة أنفي... نعم غصتُ في وحل أفكاري وطمعي وخياناتي حتى أرنبة أنفي...

نظرتي لزوجتي وللنساء في حياتي كانت نظرة دونية... نظرة حقيرة... نظرة ذكر قوي مع أنثى ضعيفة... نظرة مفترسٍ مع فريسة... نظرة جنسية... نظرة شهوانية حيوانية فلم أكن يومًا بمستوى النساء، بل أنا أَحطُ[1] من أكثرهن خسّة[1]. نعم الآن فهمتُ أن تصرفاتي لم تكن

(١) النزول والهبوط من المستوى المرموق.

بسبب فقري وبسبب مزاج زوجتي السيء، بل لأنني أنا مريضٌ بداء اسمه امتهان النساء، وإنكار الحقيقة بأنني لا أرى إلا ذاتي. لا أنظر للمرأة نظرة سوية ولا أهتم بها كإنسانة أو شريكة بل أنا استغلها وأحملها مشاكلي واضعها سببًا لهمومي وأمارس عليها رجولتي لأحتفل بإنتصار... أي انتصار...لكنني لم أجنِ إلا فشلاً وراء فشل... ما كنتُ إلا وضيعًا... وهُنَّ... هُنَّ ما كُنَّ إلا ضحايا بسببي أو بسبب رجلٍ آخر! حتى من جئن للماخور، معظمهن تعرضن للخداع والإهانة والضرب والسخرية والهجوم والإفتراء والضغط والشتم من رجل أو رجالٍ في حياتهن وبعضهن تعرضن للتحرش الجنسي أو الإغتصاب وصمتن أمام هذا الظلم الذكوري... هذا الجبروت الذكوري... هذا الفساد الذكوري! جئن لرجال في الماخور ليحل هؤلاء مكان من أهانوهم في حياتهن...لكن ذكور الماخور استغلوهن... وقعن في فخ ذكور تنقصهم الرجولة أيضًا... لم يكن الماخور غطاءً للعصابة بل جعله وضاح مكانًا لإستغلال النساء أيضًا.

حتى هذه المسكينة أمجاد... تعرضت لأقسى معاملة من زوجها، ومع ذلك لم تتوان عن مساعدة رجل وقع في مشكلة... يا عظمتك أيتها المرأة. ليست أمجاد وحدها... ليست زوجتي وحدها... بل كل النساء! أو معظمهن

---

(١) صَارَ رَذِيلاً خَسِيسًا ، رَذُلَ ، حَقُرَ.

على الأقل... فأمام رجلٍ واحد عظيم تقف عشرات النساء العظيمات اللواتي قدمن الرجال على أنفسهن ولولاهن لما كان للرجل مكانة عظيمة.

كعادتها صنعت لنا قهوة... وضعت لي فنجاني وأخذت تحتسي فنجانها

- ما بك؟ أشعرُ أن في عينيك أحاديثَ كثيرة.

ابتسمت وأنا أنظر لها

- حتى وأنا صامت تعرفين أنني أفكر بشيء ما.
- نعم... دعني أخبرك بماذا تفكر وأنت تخبرني إن كان حدسي صحيحًا أم لا. ما رأيك؟
- حسنًا موافق.
- أنت تقول في عقلك ما بالها هذه المجنونة تساعدني؟

ابتسمت مجدداً وقلت:

- بدون مجنونة... بل لماذا تساعدينني وبدون مقابل وبلا سبب وبدون أي وعود أو اتفاق ضمني أو صريح بأن أدفع لكِ ولو بعد حين.
- اذا تفكيري في مكانه!

أخذت تصفق بكلتا يديها سعيدةً بأنها عرفت ما يدور بخلدي

- لكني أخبرتكَ سابقًا عن السبب، أنا أُحب أن اساعد كل مظلوم ومهضوم الحقوق أو من تعرض للإبتزاز أو الإستغلال.

- نعم... نعم أعلم... لكن أجده غير منطقي... من غير المنطق أن نساعد غريب مشكوك في براءته وذو سمعة سيئة وفعل أشياء مخزية، لو كنت مكانك لما اقتربت من انسان يفعل هذه الامور، ثم أنا رجل غريب عنك... وأنتِ امرأة... ألا تخافين أقاويل الناس؟
- لا... تحليلك خاطئ. هناك من يحب المساعدة وهناك من يحاول أن يمد يده لضعيف أو مريض أو فقير أو مسكين أو مظلوم أو ما شاء دون مقابل أو وعد أو نية أو سبب... هناك من يشعرون بإنسانيتك ويقدمون مساعدتهم لأجل انسانيتك وليس لأجل جمالك أو مالك أو جاهك... حتى أنهم يتعاملون مع الحيوانات ومع الشجر والبيئة والطبيعة بنفس الأسلوب. ثم لماذا هذه النظرة الدونية والمخيفة للمرأة؟ لا يشترط أن تكون المرأة بهذا المقام لتخاف مساعدة الرجال أو مقابلتهم أو حتى صداقتهم، أنت لديك مفاهيم خاطئة عن المرأة!
- أنتِ تقولين الحقيقة... أعترف بهذا
- لا بد أن تُغير موقفك من المرأة... انسى الماخور وفكر جيداً بأن تبني علاقة صحية مع النساء في حياتك.
- أنتِ ملاكي الأبيض.
- أنا صديقتك التي لا تريد إلا براءتك وعودة عائلتك وعودة حياتك الطبيعية.

طُرق الباب... فتحتهُ... وكان الشرطي، كان مهذبًا جداً شرب معنا القهوة وتبادلنا الحديث ووقعت له على أوراق تثبت وجودي في الشقة ووقعت المحامية ثم غادر...

- ما بال عينيك يا تميم كأن فيهما أحاديث كثيرة.
- لم أنم جيداً ليلة أمس... حلمتُ حلمًا في بداية الليل وصحوت معذوراً ولم استطع النوم بعدها
- ماذا كان الحلم؟
- حلمتُ أمس بأنني قد هاجرتُ بعيداً، وأنا في الحلم قلقتُ على بقاياي التي في وطني، زوجتي وأولادي... هذا إن كانوا في الأردن أصلاً! فأقنعت نفسي بقطع موعد للعودة، لأعود برفقة أحدهم متوفي في الحقيقة ويظهر بصحة كاملة في حلمي أخبرني أنه يشعر بالملل من المهجر فعدنا كلانا ولكنه ما أن وصل أرض المطار حتى أخبرني أنه لا يريد الإطالة أكثر وأنه يريد العودة للمهجر، فلمته لأنه عاد من الأصل، وقلت له: هل في الغربة ملل؟ نحن العائدون الى وطن ولم نتركه... نحن اللاجئون في وطن اسمه من حروف اسمائنا... وطنًا بقاياه تلملم بقاياه، لم ينصت وغاب عني في الزحام، ثم قرأتُ لافته تقول أنني في سورية ولستُ في الأردن وأن الدواعش قد أمسكوا أولادي وزوجتي وأنا أبحث عنهم... لم أجد

أحد يساعدني، لم يكن معي حقائب ولا أمتعة ولم أجد أولادي وصحوت من الحلم مفزوعًا.

- هذا لأن تفكيرك منصب على عائلتك لذلك تحلم كثيراً بهم، وأيضًا لأنك تخاف من أنهم هربوا مع بهاء إلى سورية أو العراق.
- لا بد أن أجدهم قريبًا... صدقيني لولا خوفي من أن تتعرضي للملامة ودفع الكفالة لتركت مكاني هذا وذهبت الآن لسورية والعراق للبحث عنهم.
- احذر يا تميم، ستضعني وتضع نفسك في ورطة كبيرة ثم من قال لك أنهم في سورية أو في العراق؟ نحن قلنا أنه ممكن أنهم ذهبوا للعراق أو لسورية... آخر مرة شوهدت سيارة بهاء كانت في المفرق في طريق متجه للطريق الدولي لكن لا شيء يثبت أنه هو أو عائلتك هربوا من هناك للعراق أو لسورية.
- لا استطيع التفكير...أشعر أنني كعصفور لا شجرة أبني عليها عشًا... كعصفور حزين أصبحت السماء له قبراً والأرض تابوتًا... لا مكان أضع قدماي فيه إلا وكان خطراً... ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

لم تتحدث بقيت صامته والدمع يجول في عينيها وهي تنظر لي حزينة علي أما أنا فوضعت رأسي بين كفي وقلت:

- لولا السراب لما كنتُ أنا الآن، لولا الظل لما عرفتُ نفسي... لكنني اتمنى لو أنني السراب بذاته، لو أنني الأسود الذي في كحل الليل

ترسمه أنثى على جفن عينيها لكان لي سبب في الوجود. من أنا؟ من أنا أيتها الأرض لتحمليني ثم في الغد تحتضنين جسدي وأيتها الشمس لتعطيني ظلاً؟ من أنا؟

لم اتمكن من حبس دموعي... انهمرت كسيلٍ لمطر جاء سريعًا فلم تستطع الأرض ابتلاعه... وضعت يدي على الطاولة ورأسي على يدي وأنا أبكي وهي تبكي معي ويدها على شعري كأم تحنو على طفلها... تمسح على رأسه...

- لا يهم يا تميم سنجد عائلتك... سنجد عائلتك، دعنا نمنح أسامة الوقت الكافي وأنا متأكدة أنه سيجدهم قريبًا.
- أخاف أن حلمي حقيقي وأنهم خارج الأردن الآن وفي خطر.
- لا ... لا ... حدسي يقول أنهم سيعودون... وسيعودون قريبًا.
- لن ألومها إن لم تعد... لأي سببٍ تعود؟ أن الذين يكرهون المكان ويكرهون أصحاب المكان لا ينفكون يبحثون عن طريقة للهروب وما أن يجدوا سبيلاً للهروب لن يعودوا. إن الذين يذهبون لا يرغبون في العودة... كل من ذهب خارج هذا الوطن لم يعد قط!

* البحث عن قشة وسط كومة أبر *

في المفرق لم يدع أسامة بيتـًا إلا وطرق بابه... أخبرني أنه سأل الجميع عن بهاء وسيارته وعائلة مكونة من زوجة هائمة خائفة وأطفال بؤساء لا تملك إلا أن تنكسر أمام حزنهم وخوفهم وهروبهم بملابس قليلة وجوع كثير... لا بد أن الجوع يأكلهم الآن... لا بد أن ملابسهم رثة الآن! هل تركهم بهاء وحدهم؟ هل رماهم في الصحراء وهرب؟

ظهر جاحظ العينين من حيث لا أعلم وأصبح يردد: الشاذون أُناس مرضى نفسيون وغير اسوياء.

حاولت كتم هذا الشعور والخوف على عائلتي من شاذ غريب أخذهم إلى مكان مجهول.

أما أسامة فلم يدخر جهداً في المفرق وقراها، قال لي أنهم أخبروه أنهم لم يروا غرباء مؤخراً ولم يسمعوا شيئـًا ولم يمر من هناك الا جوعى المدينة وفقراؤها ونساء المدينة الثكالى وأراملها وأن الشوارع طافت بهم حتى غدوا من كثرتهم كرمال شاطيء في هذه الصحراء الممتدة التي لا تنتهي.

قالوا له: " أجئتنا تبحث عن جوعى جدد؟ سنمنحك الآن مئة اسم جديد... كل يومٍ هناك مئة! فأي اسم تريد ونُعطيك إياه؟ ما زلنا نمنح

جوعانا وفقراءنا أسماء... ما زلنا نعطيهم أرقامـًا وطنية وهويات! أي اسم تريد وسنمنحك إياه الآن، لكن الغرباء لا نعرفهم. لا توجد أحجارٌ جديدة ليضع طفل غريب رأسه عليه، فالحجارةُ نُهبت... لا يوجد في الشوارع متسع لمتسول يحلم فالأحلام سُلبت... لا تبحث في مدينتنا عن جوعى أو أيتام أو أرامل أو هاربين أو لاجئين فكلنا هنا هكذا... كلنا هكذا".

وعندما شاهدوا صور العائلة بدت الدهشة على وجوههم وهو يصف لهم حقيقة ما حصل وأن البعض تطوع للبحث معه وأن البعض تطوع بالشتم وصب اللعنات على الزوج الحقير الذي ترك لشاذٍ أمر العناية بعائلته!

لكن أسامة لم يترك اليأس يسيطر عليه...

أخبرني أن بهاء والعائلة جاؤا للمفرق للإيهام... لكي يوهم كل من يتبعه أنه هارب نحو العراق أو نحو الشمال نحو سورية... لكن تحليله أنه مر من هناك مرور الكرام ثم عاد أدراجه نحو مكان لم تستطع كاميرات المراقبة الأمنية أن تتبعه.

أصبح الأمر معقداً أكثر! أين هم الآن؟ لماذا اختفوا فجأة وما عاد لهم أي ذِكرٍ أو يُعرف لهم مكان؟ كيف تضيع هذه القطرات الصغيرات وسط أمواجٍ من محيط قد هاج؟

أين البداية وأين الختام؟ وأين الحضور وأين الغياب؟ والبحر قد ثار وثارت زوابع غباره في وجهي وارتطم الخوف بي ولطمني على وجهي...

أعتقد أنني أفقد كل شيء... كل شيء ولكن هذا الإدراك لأهمية هذه الأمور البسيطة في حياتي جاء متأخراً وعندما نفقد كل شيء ندرك أن أخطاءنا هي الأشياء الوحيدة الباقية معنا في حين فقدنا كل الأشياء.

كيف يستطيع أسامة وكيف تستطيع أمجاد أن يسمعا لكآبتي؟ فمآسي الآخرين فيها ما يثير في النفس الامتعاض، لكنهما لا يكفان عن مساعدتي والبحث والتحليل وجمع المعلومات وقطع مسافات طويلة فقط ليمنحوني أملاً... أمل اللقاء مع عائلتي وأمل البراءة من أفعالٍ قُمتُ بها.

ثم لماذا لا ينشغل الوطن كله بالبحث؟ نبحث معًا عن انسان فُقِدَ أو فَقَدَ الطريق.

البحث عن انسانٍ فُقِدَ... أو البحث عن انسان فَقَدَ بوصلته!

لكن الحقيقة هي أننا "مجموعات من البشر" نبحث وسط الركام عن وطن فُقِدَ... أو نبحثُ عن وطنٍ فَقَدَ بوصلته!

لا شيء يؤلمنا إلا كذبة اسمها وطن! لا وطن لنا ولا مكان... لا شيء نعبر إليه فيحتضن بقايانا التي نبحث لها عن ظل شجرة نستظل تحتها أو قطرة ماء سالت من عين لها على خدها لنشربها... لا وطن نسكنه فيسكننا ونبني فيه لنا سماءً جديدةً وشمسًا جديدةً وقمراً ونجومًا... لا شيء يؤلمنا إلا كذبة اسمها وطن.

أسامة قرر في هذه اللحظة أن يُسخر معارفه للبحث عن بهاء وليس البحث عن سيارته أو عن العائلة.

أسامة: نحن نبحث عن الطرف الضعيف التابع وليس عن الأساس.

أمجاد: كلام صحيح لكن كيف سنبحث عن بهاء؟ نحن لا نعرف عنه أكثر من الاشياء التي قدمها مدير الفندق في التحقيق... شاب في مقتبل العمر يعمل نادلاً ومعه سيارة حديثة وكان يسكن معظم الوقت في الفندق ويعمل لساعات طويلة... إضافة لما كشفه هو لتميم بأنه مثلي.

أسامة: حسنًا سأحاول أيضًا أن أحصل عن معلومات عنه من أصدقائي في الجهات الأمنية... هؤلاء جميعا قد يقدمون لنا خيطًا يصلنا إليه... قد نستطيع أن نتوصل لعائلته أو أقارب له هنا أو هناك! ممكن بيت أو شقة له في مكان ما... صديق يأتمنه... شيء من هذا القبيل.

هززنا رؤسنا بالموافقة أما أمجاد فقالت:

أمجاد: وأنا بدوري استطعت كتابة مرافعتي عن الموضوع وانتهيت منها سأقدمها في المرافعة القادمة.

أنا: هل أطلعتينا على ملخص عنها؟

أمجاد: سأركز على تناقض الروايتين الرسمية والشعبية، وعلى تناقض ما جاء في تصريح الحكومة مع التحقيق الذي جرى معك ومع آخرين وكيف تحول بعض المتهمين لشهود، سأطلب شهادة قائد الجيش واسماء ووظائف الأردنيين الذين عملوا مع الفريق الإسرائيلي الذي دخل الأردن لغايات نزع الجهاز الإسرائيلي ومعلومات عن هذا

الفريق ولماذا كشف عن جزئية من المعلومات السرية ولماذا لـم يكشـف عن معلومات أخرى. وسـأركز أيضـًا على أن مـوكلي عمـل مـع الفريـق بصفة قانونية بكتاب رسمي من دائرته وأنه تعرض لإبتزاز وتهديد وخداع وأنـه سـبق لـك أن أبلغـت إدارة مؤسسـتك بـأن الفريـق مشـكوك بنوايـاه وسأطلب مديرك أيضـًا للشهادة بهذا الخصوص. سأركز أيضـًا على دور الموساد في كل هذا الأمر وهل قام أحد بالتأكد من أن الفريـق الإسـرائيلي الذي كان هنا كان فعليـًا فريق يعمل لنزع جهـاز تجسـس أو تركيـب آخـر أو اخراج شيء ما من تحت الأرض... ما دور الموساد في هذا الأمر كله؟

أنا: لستُ متأكداً أن المحكمة ستقتنع بأي من الـروايتين ثـم أن الحكومـة لم تقل أن الموساد هو من قام بنزع الجهاز بل التصريح جـاء بصـيغة الجانـب الإسرائيلي ولعل الأمر تغطية لدور مهم يقوم به فرع في الموساد مهـتم بالآثـار ويدعم ماليـًا وعلميـًا علماء آثار توراتيين مـن اسـرائيل ودور غربيـة ويعملـون على تهريب آثار يهودية إلى اسرائيل منذ عقود.

أمجاد: الفريق الذي نزع الجهـاز فريـق عسـكري بينمـا الفريـق الـذي كان يبحث في تلك المنطقةفريق أثري وهذا لا يمكنـه أن يعمـل دور هـذا! هل كان هناك عدة جهات تعمل بهذا الأمر؟ هـذا السـؤال سـأطرحه علـى الشهود الذين سأطلبهم للمحكمة... كم فريق دخـل الأردن وكـان يعمـل على هذا الموضوع؟

أنا: الفريق المكون من البرفيسور وانجل والأربعة جيم مارسوا العمل الأثري بإحترافية.

أمجاد: للأسف الكثير من أوراق التحقيق وصفت بالسرية ولم أتمكن من الإطلاع عليها لكن واضح أننا أمام عصابة دولية تتقن عملها... ثم هم ليسوا كل العصابة... أنت تعرفت فقط على انجل والبرفسور دانيال والأربعة الآخرين صح ولم يتحدثوا أمامك باللغة العبرية.

أنا: نعم... فقط بالإنجليزية.

أمجاد: حسنًا... هناك أشياء أخرى أريد أن أعرفها هل اسمائهم حقيقية أم كانت جميع الاسماء وهمية؟ هل دخلوا بجوازات سفر مزورة أو حقيقية؟ وهل المعلومات وجميع الاوراق الثبوتية التي قدموها ودخلوا الاردن بها مزورة أم حقيقية؟ لأنه من الواضح أنها كانت أوراقًا صحيحة وصممت بمعرفة حكومات!

أنا:ما يثير فضولي هو وجود اسرائيليين وهربوا فوراً لاسرائيل... ألهذا أخذوني للبحر الميت؟ ما دور اسرائيل بهذه العملية كلها؟

أمجاد: نعم واختاروا البحر الميت في آخر مرحلة لسرعة خروجهم من الأردن... فبمجرد خروجهم من الأردن انتهى كل شيء وتقريبًا لم نكتشف أي شيء خلفهم كأنهم أشباح. المهم العصابة أرسلت طلب التنقيب بالبريد السريع لدائرتك وكان مستوفي الشروط ومنحوا رخصة

التنقيب وعندها جاؤوا للأردن لكن يبدو أن هناك مجموعة تمهيدية سبقهم قبل ذلك... عصابة أخرى قامت بدراسة مجموعة من الأماكن والفنادق والأشخاص ومنهم أنت وتعاونوا مع وضاح وفتحوا له الماخور وزرعوا فيه كاميرات وقدموا لوضاح كل التسهيلات اللازمة لجذب زبائن محددين وتم استدراجهم بكل سهولة وذلك تم كله قبل أن يتم استدراجك من قبل احد زملائك والذي عمل لصالح وضاح دون أن يعرف أنه يعمل لعصابة والهدف من استدراج هؤلاء كان توريطهم في حال تم كشف أمر العصابة قبل اتمام مهمتها وعندما تم الانتهاء من تنفيذ الخطة الاولى تم الاتفاق على تنفيذ الخطة الثانية معك وهي استدراجك للعمل معهم من خلال ايقاعك بطريقتين استطاعوا من خلال بريدك الإلكتروني وموقعك على الفيسبوك ومراقبة بيتك وهاتفك أن يعرفوا نقاط ضعفك... النساء والمال.

طأطأت رأسي أرضًا

أمجاد: وبهاتين الوسيلتين استطاعوا جذبك وايقاعك بسهولة، لكن رغم التكنولوجيا المتطورة التي استخدموها في محاولتهم للسيطرة على أجهزة دائرتك لكن أحد الموظفين استطاع أن يكتشف الخرق في النظام وأبلغ الإدارة التي ابلغت الجهات الأمنية التي باشرت فوراً وبسرية مطلقة مراقبتكم جميعا.

أنا: طالما كشفوهم مبكراً،لماذا لم يساعدوا عائلتي؟

أمجاد: أنت تظن أن بعض الجهات الأمنية استطاعت أن تحصل على كل هذه المعلومات بسرعة؟ لقد عرفوا أن هناك خرقًا أمنيًا حدث في دائرة حكومية وأن واجبهم معرفة من قام به ولماذا ولأي هدف ولأي جهة؟ ثم بدأت الخيوط تتكشف لديهم وكانوا يظنون أنك متورط معهم وأن عائلتك كانت خارج الموضوع كليًا...

أسامة: حسنًا وماذا حدث بعد ذلك؟

أمجاد: استطاعت هذه الجهات الأمنية لاحقًا اكتشاف أن هؤلاء دخلوا البلاد باسماء مزيفة وجوزات سفر حقيقية وتصريح مزيف من الجامعة الأمريكية وأنهم يبحثون عن شيء ما في المنطقة المستهدفة، وعملت الجهات الأمنية على مسح المنطقة فاكتشفوا وجود ترددات صادرة عن جهاز معين مزروع تحت الأرض وأن جهاز كشف المعادن وجهاز سكانر آخر أكد أن الجهاز مزروع قبل مدة طويلة ويحيط به أجهزة أخرى ومتفجرات بكميات ضخمة... فتم نقل التحقيق لجهات أمنية أعلى وسُحب من الجهة الأمنية الأولى... ليظهر بعد ذلك فريق يتحدث العبرية ويسحب الجهاز الإسرائيلي من تحت الأرض ويأخذوه لإسرائيل.

أنا: هل هذا الأمر ورد بالتقرير الأمني؟

أمجاد: نعم وصُنف ببالغ الحساسية والسرية المطلقة، وقد حصلت على أجزاء معينة منه ولكن ليس كل شيء... بعض الأوراق والتفاصيل سرية منعت عني.

أنا: اذا نحن أمام قصتين... كنز أو جهاز تجسس! أيهما القصة الصح؟ مع ذلك الأمر شديد التعقيد وأكاد أشك أن غريبًا يستطيع أن يفهم هذه التفاصيل.

أمجاد: لأن الكثير من التفاصيل لا يمكن معرفتها كما سبق وقلت لك.

أنا: اذا الشك يطال الروايتين... وكذلك تحتمل الروايتين الصحة.

أسامة: عليك أن لا تنكر القصة الرسمية ثم هل تريد من الدولة في بادئ الأمر أن تخبر الشعب أن فريقًا من الموساد كان هنا ودخل عمق الأراضي الأردنية وأن جهاز تجسس قديم منذ الستينات زُرع هناك؟ صدقني إن كانت هذه القصة أقرب للحقيقة فأنا أعتقد أن قائد الجيش أُجبر على مضض بكشف جزء من الحقيقة حفاظًا على الأمن القومي الأردني... ثم لا تنسى أن هناك اتفاقية سلام أردنية اسرائيلية وهي التي جعلت قائد الجيش يقول في تصريحه أن فريقًا متخصصًا من الجيش الإسرائيلي فكك الجهاز ونقله لداخل اسرائيل.

أمجاد: نعم هذه نتيجة تحقيقات الدولة والتي على أساسها قام قائد الجيش بنشر فيديو يظهر قيام الجيش الاسرائيلي بنزع جهاز التجسس وانكار وجود الذهب!

أنا: وشهود العيان؟

أمجاد: هذه القصة الثانية غير الرسمية ولا استطيع أن أجزم بكلامهم لكن أنا أخذ بالرواية الرسمية والتصريح الرسمي إلى أن يثبت العكس.

أنا:ما عاد يهمني من الصادق ومن الكاذب! من روايته صحيحة ومن روايته مزورة! من يلفق أمراً ومن يخفي سراً! المهم عندي عائلتي وعائلتي فقط.

أمجاد: لا تهتم كل الأمور ستتكشف قريبًا.

أنا: نعم لكن التصريح الرسمي لم يأتِ على ذكر الفرق السابقة التي عملت قبل فريق نزع الجهاز المفترض وكذلك لم يأتِ على ذكري... اذا هناك أمرٌ ما في التصريح الرسمي ناقص.

أسامة: من وجهة نظري هذا سيعمل على تبرئتك من تهمة التعاون والتخابر... بل من معظم التهم إن لم يكن كلها.

أمجاد: بالضبط فالمحكمة حتى الآن توصلت لإستنتاج بأنك لم تكن تتخابر لصالح الفريق الذي لم يتحدثوا عنه إعلاميًا والذي سبق فريق نزع الجهاز في هذا الأمر، لكنهم غير متأكدين من موضوع الإجبار

ومن أنك لم تقم بالتبليغ فوراً... لكن عملك معهم كان رسمي بموجب كتاب قانوني صادر عن دائرتك... السؤال هنا هل الدولة تربط بين الفريق الأثري والفريق الإسرائيلي الذي عمل على نزع الجهاز؟

أسامة: لماذا لم تخبر أحداً بموضوع الفريق بعد أن انكشفت نواياه لك؟

أنا: لم استطع... تعرضت للضرب والتنكيل والتهديد كما أنني كنت مقيداً معهم ولا استطيع الفرار.

أمجاد: المحكمة مقتنعة أنك كنت تملك بعض الحرية التي مكنتك من التواصل مع بهاء ومدير الفندق.

أسامة:بكل الأحوال ما حدث قد حدث... الخيوط بدأت تتوضح نوعًا ما، نحن نملك معلومات قيمة عن العصابة وممكن مع مزيد من البحث والتدقيق والتحليل نتوصل لشيء أفضل يعمل على تبرأتك، المهم أن ملف المرافعة ممتاز من وجهة نظري، وأنا أعمل على موضوع بهاء والأمور تسير على خير ما يرام.

* الصداقة ثمنها قاسٍ *

بدأ أسامة بزيارتي كلما وجد خيط للحل وأخذت علاقتنا تتطور وكل مرة كان يقوم بعمل ما على قضيتي كان يأتي لزيارتي ليطلعني على ما وجد من دلائل وقرائن وخيوط بحث.

تطورت علاقتنا إلى أن أصبحنا أصدقاء ونلتقي أحيانًا مع أمجاد وأحيانًا وحدنا، وحتى في الأيام التي كان لا يعمل على القضية كان يأتي لزيارتي ونتبادل الأحاديث كصديقين، وهذا ما دعاني يومًا لسؤاله سؤالاً محرجًا لي: هل تعتقد أنني مريضٌ نفسي؟

نظر لي نظرةً مطولة وكأنه يراني للمرة الأولى...

- ومن هو المريض النفسي؟ اذا اردت أن تخبرني عن نفسيتك أو نفسيتي أو نفسية هؤلاء الذين يسيرون في الشوارع فنحن جميعًا مرضى نفسيين... كل من قابلتهم في حياتي مرضى نفسيين حتى أنا.. كلنا مرضى نفسيون لأن كل من يمر بتجربة قاسية تتعرض نفسيته للمرض تمامًا كما يتعرض جسدنا لفيروس فيمرض، هكذا أيضًا نفسيتنا... تتعرض لتجربة قاسية فتمرض وجميعنا نحتاج لعلاجٍ نفسي.
- سيفرح أطباء النفس بكلامك هذا كثيراً.

- لا يا صديقي... ليس كلنا من يحتاج لمراجعة طبيب نفسي، جميعنا حتى الطبيب النفسي لدينا البلاء وجميعنا نملك الحلول ونملك الدواء، والدواء ليس مادة كيماوية نتناولها فتنتهي مأساتنا، بل الدواء هو أحيانًا موقف جميل من الآخرين أو كلمة طيبة تقال لك، أو يدٌ تُمد لك وترفعك، أو دمعة تسقط من عين غريبة برفقة دمعتك فتصبحان رفيقتين فتزيل همك.
- كلامك جميلٌ جداً... أعتقد أنك وأمجاد دواءان لي فلولاكما لا أعلم ماذا أفعل أو أين سأكون الآن.
- لا تلم نفسك كثيراً عمَ فعلت... "لا تعتذر عمَ فعلت"...

أشعلتُ لنفسي سيجارة وأخذتُ استنشقها بنهم... ثم قلت:

- ما هذا العالم الحقير يا صديقي؟ الكبير ينهش الصغير، الغني يأكل الفقير، القوي يدوس الضعيف، الأكثرية تقمع الأقلية... كل شيء أصبح حقيراً... كل شي أصبح مريضـًا! حتى هنا كنا بلداً بسيطًا بعضنا ريفي مزارع بسيط والبعض الآخر بدوي قاسي الملامح طيب القلب، وأما الآن فنحن أشبه بالحيوانات... طبقة من الذئاب اللاحمة الجائعة المفترسة تتحكم في طبقة من الخراف المهمشة المنهوبة الكرامة والمنهكي القوى.
- هذا حال كل العالم وليس حالنا فقط... سأسألك سؤالاً: أتظن أنك الوحيد المتورط في البحث عن الذهب؟ ألا تعلم أن الكثير من

الشباب العاطلين عن العمل لا بل والعاملين أيضـًا متورطين بقضـايا البحث عن الآثار والدفائن والذهب والإتجار به! لذلك أقول لـك لا تحاول أن تضغط على نفسك كثيراً... الكل متورط... لو أُخبرك عن اسماء من يبحثون عن الذهب هنا لصُدمت... اسماء لن تخطر على بالك متورطة في عمليات البحث عن الذهب واذا ما وجد الـذهب في مكانٍ ما بالصدفة يسرعون لإغلاق الموقع ومصادرة الـذهب وأخـذه لمكانٍ مجهول ويتم كتم القضية بسرعة.

- أعلم عن جزيئة بسيطة عـن هـذا الأمـر بحكـم وظيفتي، لكنني لـم أكـن أبحـث عـن الـذهب، كنـتُ فقـط مـأخوذاً بانجـل هـذا كـل مـا في الأمـر ووعدوني هم بحصة من الذهب ولا أنكر أنني طمعت لكنني في داخلي كنتُ أشـعر بالغصـة والخيانـة والـذنب الشـديد! قلـتُ في نفسـي سـأترك حصتي من الذهب لعائلتي وأسافر مع انجل... كم كنتُ غبيـًا.
- "عاجلاً أم آجلاً، الجميع يدفع ثمن ما يرتكب"[1] وجميعنـا نتصـرف بغباء أحيانـًا ونخطئ أحيانـًا ونتصرف بعاطفية وبدون فهـم أو تقـدير للمواقـف، لكـن الحكمـة هـي في محاولـة التقليـل مـن الخسـائر قـد الإمكان، فبعد وقوع المصيبة لا بد من أن نعيد أنفسنا للصواب وهنـا يأتي دور من يحبك أيضـًا فمن يُحبك سيسعى لحمايتك مـن نفسـك

(١) أوسكار وايلد.

ومن الآخرين وحمايتك من أخطائك ونتائجها قدر المستطاع وأنا وأمجاد سنسعى لذلك بكل ما أوتينا من جهد... لا بد أن تعيد قطارك إلى مساره الصحيح إن جنح عن طريق الصواب يومًا.

- لولاكما لما كنتُ قطاراً جانحًا بل قطاراً سقط عن السكة وانتهى امره... أشكرك صديقي.
- لا داعي للشكر ولكن هناك أمرٌ ما لا بد أن أُحيطك علمًا به.
- ما هو.
- أعتقد أن صديقك بهاء من الطيبين وهو معنا... من طرفنا، نحن الحالمون بعالمٍ أفضل فلا داعي للخوف منه كلما فتحنا موضوع أين عائلتك!
- هو ليس صديقي.

ضحك أسامة ضحكة كبيرة وهو يعيد رأسه للخلف... ثم نظر إلي وقال:

- لم أتهمك بالشذوذ... إن صدق حدسي فهو يحمي عائلتك وأبعدهم عن العصابة، وهذا عملٌ نبيل من شخصٍ يحميك ويحميهم من أخطائك... اذا موقفه يشبه موقفي وموقف أمجاد... أليس كذلك؟

نظرتُ للإرض محرجًا من تسرعي.

- لكنه ليس صديقي.
- دائما تتحدث عنه بكلمة هو وتحاول أن تتحاشى ذكر اسمه، ألهذه الدرجة تقرف منه!
- ليس قرف لكن... هو .... أنه... هم... لا أعلم لا أعلم... كل ما أريده هو أن يعيد عائلتي بسلام.
- إن شاء الله... لندعو الله أن نكتشف الأمر قريبًا.

غادر أسامة وأعددتُ لنفسي قدحًا من الشاي وضعته على الطاولة الموضوعة بجانب النافذة وجلستُ أنظر عبر النافذة للشارع والناس تتحرك دون توقف... لمحتُ انجل من بعيد تسيرُ مع السائرين! جفلت... أصابني الرعب والإشتياق... الخوف والتأمل... الرغبة والكراهية... الرغبة بضمها والرغبة بقتلها... أمعت النظر أكثر... كانت فتاة شقراء ممشوقة تسير عبر الشارع... ظننتها لوهلة انجل!

حاولت أن أنساكِ لكن شبحك كان يحيط بي... يلحقني... يتتبعني كظلي... يسد منافذ الهرب نحو النسيان.

كلُ أحياء المدينة تذكرني بكِ... كل شوارعها تحمل اسمكِ ... أينما ذهبت اسمكِ أخذ جانبًا من الطريق! حواريها وأزقتها الضيقة تحمل رائحتكِ... سماء المدينة تمطركِ... شمسها ترسل حرارتكِ... الضبابُ أنت فيه... والغبار من دخان سجارتكِ... المطرُ دموعُ عينيكِ... وصوتُ الريح من ضحكاتكِ.

رغم كل ما فعلتِ يا انجل ورغم الكره والصدمة في بادئ الأمر لكنني لا أنكر أنني ما عُدت أحقد الآن... توقف قلبي عن كراهيتكِ... ما عُدت أمقتكِ... أنتِ ابتعدت بقراركِ بعد أن انتهيتِ من المصلحة وأنا أيضًا ابتعدُ ليس بقراري بل لأن دوري انتهى في حياتكِ... أنتِ ابتعدت وأنا لم يكن أمامي خيارٌ آخر إلا أن أُطرد من حياتكِ... فرضيتُ بهذا القرار... ابتعدتُ طالما أنتِ تملكين القرار وطالما أنتِ طلبتِ ذلك... وكان علي أن أمضي لكي لا أظل أُحبكِ وأنتِ تمتصين دمي... لكن هل أنا فعليًا أمضي أم أنا أسيرٌ لديكِ.

أنا من دونكِ ظلٌ لجسدٍ حائر تاه في الظلام عن رفيقه.

حينما أقول أُحبكِ فأنا أظلم الحب لأنكِ خائنة... وحينما أقول أكرهكِ فأنا لستُ صادقًا ولستُ كاذبًا، إنما أنا مختلط المشاعر!

مستكبر... سكير لا موقف محدد لي... لم أكن عابثًا إلا عندما كنتُ منزوع الروح... والروح عادت لي لكن بعد فوات الآوان... بعد أن فعل الحب فعلته معي وكُشفت أسرارٌ خبأتها في طيات الورق، فصرتُ مع القاتلين مجرم ومع المقتولين ضحية هوى، لكنني والله بريء من دم عاشقٍ قتلتهُ في شبابي مئة مرة بل أكثر. ومن أنا؟ أنا المجرم وأنا القتيل! ما أنا إلا جثة عاشقٍ انتظر هاهنا مرور عابرٍ يحتسي معي قدحًا وأحتسي معه وجعًا ونصابُ كلانا في مقتلٍ من خصلات الهوى المتطايرة على وجه وكتفي شقراء ثم اقتله أو يقتلني!

لو قالت لي أنها فقط تريد مني أن اساعدها في ما تبحث عنه... كنزاً كان أو جهاز تجسس مقابل الأجر... لساعدتها وانتهى الأمر، لكنهم أوهمونا حبًا فمنحناهم قلبًا وبعد حين أرجعوه جريحًا مستهلكًا لا يصلحُ لشيء...

* القضية تتعقد وتُغلق *

في يوم مرافعة أمجاد للمحكمة ذهبنا ثلاثتنا للمحكمة... لم تكن المحكمة منعقدة كما هو معتاد، وبعد انتظارٍ طويل في قاعة جانبية وكنا نظن أن الجلسة ستؤجل طُلب منا ثلاثتنا أن نذهب لمكتب رئيس المحكمة، وبعد إنتظار طويل استقبلنا القاضي وأجلسنا...

استغربت قرار رئيس المحكمة بأن نجلس في مكتبه وأن يطلب مني الجلوس أيضًا... فالمتهمون لا يجلسون أمام القضاة ولا يُستقبلون في مكاتب رئيس المحكمة لكن فوجئ ثلاثتنا بالدعوة للجلوس.

بدأ رئيس المحكمة كلامه بأن قائد الجيش افصح عمَ حدث في عجلون وأن لا كنز هناك وأن لا قضية ولا ذهب ولا إدعاء ومتهمين، وأن ما جرى في عجلون قرار وأمر سري، وأن اسقاط المحكمة للإدعاءات الموجهة مني لجيمس كان قراراً ينبع عن أن التهم الموجهة إليه لم تكن بناء على دلائل وأن كل ما اقترفه جنحة واكتفت السلطات الأردنية بطرده من البلاد وإعادته لبلده وأنه بعد دراسة القضية من قبل المحكمة تأكد للمحكمة بأن معظم الأحداث وهمية من رأسي وأن وضاح ليس سوى "قواد" ولذلك أُطلق سراحه لعدم الإختصاص وأن على المتضرر من أعماله ملاحقته في المحاكم ذات الإختصاص، وأن سيرين "مومس" وتم

أيضـًا إطـلاق سـراحها لعـدم اختصـاص المحكمـة النظـر في القضـايا الأخلاقية وإنما دورها النظر في قضايا تمس أمن الدولة فقط، أما علاء فقد تبين للمحكمة أنه شخص غير مرتبط في القضية ولا داعٍ لإستدعائه خصوصـًا أن لا قيود أمنية أو طلبات قضائية ضده ولم تتمكن السلطات المختصة من استدعائه للتحقيق كشاهد. وبالتالي فإن المحكمة لا ترى أن هناك قضية وأن ما جرى كله كان حدثـًا أمنيـًا ارتبط به بعض الأشخاص الواهمون وبعض مدعي الشهرة وأن المحكمة ترى دوري في القضية وهميًا من صنع خيالي، وأنه ينصحني بالكف عن اتهام آخرين تهمـًا قد تخل بأمن البلاد وإلا ستضطر المحكمة إلى توجيه تهمة اثارة المشاكل الأمنية وزعزت الأمن القومي وأنه اذا وقفتُ أمام المحكمة بهذه التهمة فسأحاكم بعشرين عامـًا مع الأشغال الشاقة، وقال لي أن المحكمة وبناء على دراسة مستفيضة لحالتي ومنها أوضاعي النفسية بسبب هروب عائلتي فقد قررت المحكمة أنها ستسقط كافة القضايا عني وإغلاق ملف القضية.

طلبتُ الإذن بالحديث فسمح لي رئيس المحكمة: وعائلتي يا سيدي القاضي؟

رئيس المحكمة: عائلتك هربت... لا يوجد لدينا أي شك بأن زوجتك أخذت أولادك وهربت مع رجل آخر بسبب تقصيرك بحقها،

كل التحقيقات تُفيد بأن زوجتك تركت البيت وأنت غائب طواعية دون أي تهديد أو ضغط أو كما كنت تدعي خوف من العصابة، التحقيقات لم تشر لأي تهديدات لعائلتك أو كسر أو عنف في البيت... بيتك سليم وتُرك سليمًا عندما هربت زوجتك... ثم ألم تعين الضابط المتقاعد أسامة للتفتيش عن عائلتك؟

قام أسامة من مقعده لكن رئيس المحكمة أمره بالجلوس والتحدث

- نعم سيدي رئيس المحكمة، أنا أساعدهُ. أنا والمحامية أمجاد لدينا شركة أمن وحماية مرخصة.

رئيس المحكمة: عملك مع تميم في البحث عن عائلته أمر يخصكم لكن أُريد أن أنبهك بضرورة أن تكون كل العمليات التي تقوم بها قانونية وأن تتذكر أنك متقاعد عسكري وغير ذلك نتمنى لكم التوفيق.

نظر بإتجاهي ثم في عيوني بشكل مباشر وقال: أما أنت يا تميم فلك الحرية المطلقة جميع التهم سقطت عنك.

قامت أمجاد فوراً تهنئني وتسلم علي وأنا جالسٌ من دون حراك... لا أعلم هل هي صدمة أم فرحة! بقيت مذهولاً وساكنًا في مكاني بلا حراك... لاحظت أمجاد عدم تجاوبي مع تهنئتها أو مع قرار رئيس المحكمة... توجهت بالكلام لرئيس المحكمة قالت: أشكركم سيدي سعادة رئيس المحكمة على قراركم الحكيم وأشكر عدالتكم وانصافكم لموكلي.

رئيس المحكمة: العفو يمكنك أنت وموكلك الآن الذهاب ومتابعة إجراءات اسقاط التهم مع كاتب المحكمة المختص، لقد وقعت القرار صباحًا ويمكنك الحصول على نسختك من مكتب الكاتب العام للمحكمة وإنهاء الإجراءات، لكن أريد أن انبهك أنتِ وموكلك أن أي تصريح صحفي أو إعلان أو نقاش حول هذه القضية سوف يعاد فتحها! فبأمر من قائد الجيش يمنع منعًا باتًا الحديث حول هذا الموضوع بما يخالف الإعلان الصادر عن الجيش وأخص بالذكر الحديث عن الكنز وأن عصابة اسرائيلية أخذته... واضح.

أمجاد: نعم سيدي رئيس المحكمة.

رئيس المحكمة: انتهى اللقاء يمكنكم المغادرة.

نشلتني أمجاد من الكرسي وكأنها تحمل طفلاً من مكانه وتسير به مرغمًا نحو الباب خروجًا... كنتُ مذهولاً من الصدمة ومن القرار! أمجاد لم تفتح فاها للحديث عن براءتي ولم تفتح ملف المرافعة ولم تقرأه أبداً لكنها صدقت حين قالت أن كل ما حدث بعد تصريح قائد الجيش سيخدمني في القضية وسيؤكد براءتي وهكذا سقطت كل التهم... كل التهم عني! أنا الآن أبيض أمام الدولة... حتى أنه يمكنني العودة للعمل فوراً كما أخبرتني أمجاد... لا شيء علي أبداً... لا شيء أبداً لأعود للسجن... لا شيء لأبقى أسير منطقة واحدة... يمكنني الآن

أن أخرج وأذهب في أي وقت ولأي مكان... هكذا بعد شهر كامل في السجن قرر القاضي اسقاط كل التهم عني واسقاط القضية.

جلسنا ثلاثتنا في كافيه... الصدمة ما زالت تعلو وجهي أما أمجاد وأسامة فكانا سعيدين جداً...

أسامة: الآن نحن سنحصر دورنا في البحث عن عائلتك... لا نريد مشاكل مع الدولة، سنكف البحث حول ما حدث في عجلون سواء كان ذهبًا أو جهاز تجسس، وسنبحث عن كنزٍ أهم... الكنز الأثمن وهم عائلتك.

أمجاد: بالضبط... وأنا سأتفرغ للبحث أيضًا معكم... لم يعد لي عمل في القضية... لقد تم تبرأتك.

صفقت بكلتا يديها...

أسامة: لا.. أنتِ مطلوبٌ منكِ مساعدة تميم في العودة إلى منزله.

نظرنا أنا وأمجاد له نظرة استغراب وتعجب! وكلانا تحدثنا بنفس الوقت ونفس السؤال التعجبي: العودة الى المنزل!

أسامة: نعم صحيح... كما سمعتماني.

أمجاد: هذا خطر على تميم... قد يتعرض للخطف أو القتل من قبل العصابة.

أسامة: هذا ما أُريده...

أنا: ما تريده! ما عُدتُ أفهمك يا صديقي... أنت معي أم ضدي الآن.

أسامة: افهماني أرجوكما... أنصتا جيداً... لدي خطة محكمة لكن أُريد منكما أن تنصتا جيداً ولا تتسرعان بالحكم علي فوراً. أولاً تميم ستعود إلى بيتك وغداً صباحًا ستعود إلى عملك وتباشر مهامك هناك، وستعود إلى حياتك الطبيعية، هذا الأمر قد يساعدنا في معرفة اذا ما زال أحد يراقب بيتك وخصوصـًا العصابة أو من طرفها أو يرقب عودتك للعمل، مجرد أن تنكشف كل الأمور الأخرى ستنكشف وستسقط احجار الدمينو بعدها فوراً وتنكشف كل الحقائق... نحن أمام فرصة ذهبية جداً وضعت أمامنا على طبق وعليك أن تساعدنا بهذا الأمر... عليك أن تضحي لنصل للحقيقة... لنعرف هل هناك بالفعل عملية مراقبة عليك وعلى بيتك أم أن الأمر انتهى وكان مجرد تهديد ووعيد لا أصل له، ثم أن عودتك لبيتك وعملك ستفيدك شخصيـًا في العودة للحياة الطبيعية وأن تعود المياه لمجاريها.

نظرنا أنا وأمجاد لبعضنا بعضـًا ثم لأسامة... لقد كانت فكرة ممتازة جداً

أنا: بالفعل... نحن كمن ينصب فخـًا لمن يراقب البيت الآن أو يراقبني منتظراً عدم وجود متابعة أمنية لي... هذه فكرة رائعة... أنا الطُعم وهو أو هم سيحاولون أكل الطعم فنكتشفهم... لكن ماذا لو كانوا كثر

كيف سأتصرف؟ قد لا استطيع مجابهتهم إن كان معهم سلاح كما حدث معي ومع الحقير جيمس... أنهم أقوياء البنية ومسلحين.

أسامة: ومن قال لك أنني سأتركك؟ أنا وموظفي شركتي سنبقى كظلك لن نفارقك ونحن مُسلحين... سنراقبك ليل نهار وصدقني لن يحتاج الأمر أكثر من اسبوع ليظهر أحد ما منهم إن كانوا هنا أو أحد منهم أو من طرفهم يراقبك... لا بد أنهم الآن يعرفون أن قضيتك أُغلقت وأن الملف كله أصبح قيد السرية ولذلك إن حاولوا العودة لسبب ما... لأي أمر وكان في نيتهم العودة إليك فسنكتشفهم ومجرد اكتشافهم يعني معرفة أشياء كثيرة جداً ما زلنا نجهلها... الحلقات المفقودة من القضية سنعرفها بمجرد أن نمسك بأحدهم.

أنا: وعائلتي؟ متى ستبحث عنهم.

أسامة: أنت تعلم أننا لم نتوقف عن البحث عنهم لكن كل الطرق والمنافذ سُدت وأن لا شيء أوصلنا لما بعد المفرق... والدولة ترى أن عائلتك هربت مع رجل آخر وتصوروا بأن الموضوع علاقة غرامية بين زوجتك وبهاء رغم محاولاتنا المتكررة بأن نخبرهم بأن بهاء شاذ وأن زوجتك نظيفة السيرة لكن الدولة لها بالوقائع لا بالعواطف لذلك البحث عنهم توقف رسمياً والبحث من جهتي لم يوصلنا إلى شيء لكن أتوقع أن ظهور أحد العصابة أو المتعاونين معهم أمام باب بيتك سيقودنا لحل القضية كلها برمة واحدة.

أمجاد: أتفق مع أسامة.

أنا: اذا ما العمل.

أمجاد: لنذهب ونأخذ أغراضك من الشقة ونعود لبيتك هذا المساء وغداً صباحًا ستعود لعملك كالمعتاد.

أسامة: وأنا وموظفي شركتي الأمنية سنكون بالقرب منك على مدار الساعة لكن لن تشعر بنا أبداً ولن ترانا ولكن عندما نشعر بأي خطر ستجدنا أمامك فوراً.

أنا: على بركة الله.

* تبعثرتُ رغمـًا عني *

شهور قليلة ابتعدتُ عن بيتي وكأنها سنوات أو عقود... كل شيء تقريبـًا كما هو، القليل من الأشياء تغير وضعها! كُنت متوقعـًا أن أجد تكسيراً في البيت أو عبثـًا أو تخريب يثبت أن العصابة دخلت وقامت بالعبث لكن لا شيء، حتى الأشياء الفوضوية في البيت كانت موجودة أصلاً في مكانها.

الفوضى كانت في مكانها وعندما تأخذ مكانها تُصبح جزءاً من الترتيب، لم تعد فوضوية بعد أن نعتاد عليها...

دخلت غرفة أطفالي... أخذتُ أتلمس ألعابهم وأغراضهم وملابسهم... بكيت بحرارة وأنا أمسك بها واشتمها واضمها لصدري وأنا ألعن الساعة التي جعلتني أبتعد عنهم وأفكر بغيرهم!

هل فات القطار؟

- لا... ما فاتك القطار، بل لا محطة ها هنا... وجودك هنا وعائلتك في مكان مجهول مثير للسخرية... قم وابحث عنهم أنتَ وحدك.

كالعادة يظهر جاحظ العينين من حيث لا أعلم! لا أُريد أن يتحكم عقلي الباطن بأفكاري الآن... أُريد أن استمتع بهذه اللحظة بالقرب من

رائحة أولادي... جلستُ على الأرض وأنا أحضن ملابسهم وأبكي واشتمها بحرارة ونمتُ هكذا حتى الصباح الباكر.

صحوت على صوت طرق على الباب... توجست خيفه من القادم هذا الصباح وقلت لعل أحد أفراد العصابة كشف عودتي للبيت ويريد أن ينتقم مني... سرتُ ببطء نحو الباب وفتحته بهدوء... كانت أمجاد تقف على الباب تحمل أكياساً كثيرة وتطلب مني أن أفتحه بسرعة...

دخلت فوراً بإتجاه المطبخ وأنا تبعتها ووضعت الأغراض ثم بدأت توزعها على خزائن المطبخ القديمة! الثلاجة كانت معطلة لكنها وعدتني بإصلاحها اليوم حتى لا تتلف اللحوم التي اشترتها لي... اتصلت بشخص ما وأخبرته بأن يأتي لإصلاح الثلاجة وعمل صيانة عامة للبيت وطلبت منه أن يحضر فتاة لتنظيف البيت... كُنتُ أجلس بهدوء على كرسي وأنظر لهذه السيدة تعمل في بيتي كالنحلة تطير من مكان إلى مكان، هنا تُرتب وهنا توزع أغراضاً اشترتها، وتفتح صنبور الماء وتصنع لي قهوة وتجهز بعض الإفطار لي وتلملم بعض النفايات وتضعها في كيس... وأنا أنظر لها عاجزاً عن قول أي شيء

- ما بالك تنظرُ لي هكذا؟ قمْ خذ حماماً سريعاً وارتدي ملابسكبعد الإفطار وتناول القهوة سأقلك لمكان عملك لتباشره اليوم، لا تحتاج لأن أذكرك بأن أي استفزاز لك في عملك من زملائك قد يؤدي

لعواقب وخيمة... فقط أدخل إلى مكتبك وقم بإنجاز المطلوب منك دون أن تلتفت لأي تحرشات أو اسئلة سمجة أو استفزازات من قبل زملائك في العمل... بعد مرور بعض الأيام سينسون القصة كلهاوستعود الأمور إلى طبيعتها، لقد نسيوا وكل الشعب الأردني موضوع الكنز والتهوا بموضوع آخر من المواضيع التي تظهر فجأة وتنتهي فجأة، لذلك حاول أن لا تهتم لأي شيء بعض الأيام وسينسى زملاءك كل شيء، أيضًا جيرانك لا تهتم بهم إن حاولوا أن يطرحوا عليك بعض الأسئلة عنك أو عن عائلتك، لكن لا تنسى أن تدقق على أي ملاحظة غريبة في جيرانك أو أشخاص غرباء يطرقون بابك أو يمرون من أمام بيتك، قد يكون منهم شخص مدسوس من العصابة، هذه ملاحظاتي أنا وأسامة لك.

- حسنًا.

- في المساء سيأتي أحدهم لصيانة الثلاجة وفتاة لتنظيف سريع للبيت... سأجلبهم أنا فلا تسمح لأي غريب أن يدخل بيتك ونحن غير موجودين أو ليسوا من طرفي أو طرف أسامة حتى ولو كان مُحصل الكهرباء أو المياه.

- حسنًا.

باشرتُ عملي...كانت هناك بعض الأسئلة الغبية، والاستفزازات المقصودة، والتحرشات الكريهة لكنني لم انفعل وبقيتُ هادئًا كما أوصتني أمجاد... أيام وتنتهي هذه الأمور...وسينسى الناس الأمر.

في المساء جاءت أمجاد وأسامة مع عددٍ من الرجال وفتاة وأقاموا ورشة صيانة متعددة في البيت بينما تناولنا أنا وأمجاد وأسامة القهوة في الخارج.

كان الرجال والفتاة يقومون بالحفر والطرق والفك والتركيب وتحريك أثاث البيت وأصوات متعددة تخرج من البيت، حتى الجيران لاحظوا أن هناك صيانة في البيت.

أنا: قُلتِ لي أن رجل واحد وفتاة سيأتون للعمل الآن أشاهد عدداً منهم، هل تحتاج الثلاجة لهذا العددٍ من الرجال؟

أمجاد وأسامة ضاحكين

أسامة: ومن قال لك أن كل الرجال أتوا لصيانة الثلاجة؟

أنا: وماذا يفعل باقي الرجال في بيتي؟

أسامة: هؤلاء موظفون في شركتي وهم أصحاب خبرة ومتقاعدين عسكريين أيضًا جاؤوا يتفحصون البيت اذا كان فيه أي من أجهزة التنصت كما أخبرك البرفسور... فقط لنتأكد أن البيت نظيف.

أنا: نعم... نسيتُ الموضوع كليًا.

أمجاد: مجرد أننا سنفحص البيت كاملاً ولكنك أخبرتنا أنهم زرعوا في ألعاب الأطفال أجهزة أخرى... نريد أن تتأكد بنفسك هذه الليلة من الألعاب، المجموعة ستتولى أمر الإلكترونيات والأجهزة الكهربائية والأثاث وأنت تولى أمر الألعاب... إن أردت نصيحتي تخلص من الألعاب جميعها حتى بعد فحصها.

أسامة: لا حاجة سوف تتأكدين أن موضوع أجهزة التنصت كانت كذبة.

أنا: تمام.

بعد ساعتين من الأصوات التي كانت تخرج من بيتي كان أمر الثلاجة قد انتهى والفتاة قد اكملت تنظيف البيت والرجال من شركة أسامة قد أكدوا لنا أن البيت نظيف وخالٍ من أي أجهزة غريبة.

أسامة: كما توقعت لقد أوهموك بأن في البيت أجهزة مراقبة، وقد اخترعوا هذا الأمر ليجعلوك تخاف وتمتنع من الإتصال بعائلتك، فيفقدوا ورقة ضغط عليك... بيتك لم يكن مراقبًا من الداخل ومع ذلك لا مانع من أن تفحص ألعاب الأطفال وإن لم تجد فيهم شيئًا أنت حر التصرف بهم بإبقاء الألعاب أو التخلص منهم.

ذهبوا جميعًا وأنا دخلت البيت وقد أصبح مرتبًا.

قضيت الليل كله أفكك ألعاب أطفالي تلك الألعاب التي تحتاج إلى تفكيك أو افراغ الألعاب المحشوة من حشوتها بحثًا عن أي جهاز مزروع فيه... كانت جميعها عادية لا تحتوي على أشياء غريبة أو الكترونيات معقدة... أعدتُ تركيبها وتركتها لأطفالي.

أعددتُ كوبًا من الشاي وجلستُ مقابل النافذة التي تطلُ على الشارع... كانت حركة الناس ذهابًا وإيابًا إعتيادية، وحسدتُ الناس على تلك الحرية التي يملكونها في ذهابهم وإيابهم مع أن الحزن بادٍ على وجوه معظمهم، كنتُ قد سجنتُ نفسي بما يكفي من القيود طيلة حياتي ودائمًا ما أضع المشكلة على غيري، وبدل أن أفكك القيود كُنتُ أبحث عن قيودٍ جديدة وكأن القيود الجديدة ستحل وتفك قيودي القديمة... لكن أنا تكفيني القيود التي تحيط بي... لا أُريد باستيل آخر في حياتي... سأقود ثورة على قلعة الباستيل التي وضعت نفسي فيها وسأهدم الأسوار وأطلق عنان الحرية لنفسي وأعيش انسانًا جديداً.

* المجانيين *

المجانين يحكمون العالم... مئات من نيرون حكموا ويحكمون العالم... يريدون احراق العالم والغناء على أطلاله، والشعوب ترزح تحت ثقل قراراتهم الغبية! فما الذي دهاك يا هرقل لتأتي إلى منطقتنا وتسمى تلك البقعة من الأرض هيريقليا ونكتشف في يوم وليلة أنها أُغلقت عسكريًا لمدة يومٍ كامل ودخلها الغرباء وحفروا فيها وأخذوا منها أشياء تحت ستار الليل حتى لا يعلم الناس ماذا حدث ووضعوها على ظهر شاحناتهم وخرجوا بها خارج الأردن، لماذا لم تخفِ هذه الأشياء في وطنك القسطنطينية أو في فلسطين لماذا هنا؟ لماذا هنا؟

اذا خرجت الأشياء المخفية تحت الأرض من الوطن فلماذا أنا أبقى هنا؟ لماذا لا أذهبُ للبحث عن عائلتي في العراق أو في سورية؟ أنا من دون عائلتي كعصفور حزين بلا شجرة... شجرة أبني عليها عشي، أنا كعصفور حزين أصبحتْ السماءُ قبراً له والأماكن تابوتًا...

- أخيراً اتخذت قراراً جريئًا... سافر الليلة ولا تخبر أحداً... انطلق حراً ولا تخبر أحداً.
- جاحظ العينين!!!

- نعم أنا صديقك المقرب... من يدلك دومـًا على فعل الصح ولا تنصت لكلامي.
- سأسافر الليلة إلى العراق لكن سأخبر أمجاد حتى لا تقلق علي.
- لا... أمجاد ستخبر أسامة وأسامة شخص غريب وأنا لا أثق به.
- من أين لك هذه الأفكار السوداء؟
- أتصدق أن الرجال الذين جلبهم متقاعدون عسكريون؟ إنهم يعملون مع الأبالسة وزرعوا في بيتك أجهزة تنصت... أأنت غبي؟ لعلك أبله!
- ماذا؟
- أنت أغبى رجل مر علي في حياتي!
- أنت وأنا واحد فما الذي تقوله؟
- أنت غبي وكفى... الرجال الذين جلبهم كانوا جواسيس... عملاء... زرعوا في بيتك أجهزة التجسس وأنت تشرب القهوة خارجـًا مع أمجاد وأسامة، ثم طلبوا منك أن تهتم بألعاب الأطفال بعد أن تركوا لك أن تفحص أشياء خالية من أجهزة التجسس!

جن جنوني... قمت من مكاني وأخذت أنزع كل الأشياء التي قام الرجال بتركيبها، حتى الثلاجة قمت بفحصها... طيلة ساعات الليل قمت بفحص وتفكيك وخلع أشياء كثيرة كنتُ أبحث وأنظر واتلمس! إلى أن طُرق الباب وكانت الساعة تقارب منتصف الليل.

نظرت عبر النافذة كان أسامة... أرتعبت بشدة... خفت أن أفتح الباب

استمر الطرق...

لماذا أتى في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ معقول وأنا أعبث في البيت فصلتُ إحدى أجهزة التجسس فعلموا بالأمر وجاء لكي يُجهز علي؟

زاد الطرق... وأنا متسمرٌ مكاني... ثم قال لي جاحظ العينين: خذ سكينًا... خذ سكينًا.

اسرعت للمطبخ وأخذت سكينًا كبيراً... أمسكتها بشدة

عاد يحرضني جاحظ العينين

- عندما يدخل أطعنه فوراً... أقتله قبل أن يقتلك...
- لن أفتح الباب له.
- سيدخل عنوة... سيخلع الباب...
- لن يفعل
- سيفعل
- لن يفعل
- سيفعل

أصبح الطرقُ شديداً وأسامة يُنادي علي من الخارج... ثم... كُسر الباب ودخل أسامة وهو يحمل مسدسًا وركض نحوي وأنا أحمل السكين بوجهه.

- تميم... تميم أنت بخير؟ هل هناك أحد ما هنا؟ لماذا تحمل سكينًا؟

كان يحمل المسدس ويصوبه في اتجاهات مختلفة... وهو ينظر للغرف المظلمة.

ركضت بإتجاهه وأنا أشهر السكين كي أضربه به... نظر لي أسامة بإستغراب ثم بلحظة لا أعلم كم أخذت من الوقت قام بطرحي أرضًا وتثبيتي أما السكين التي كُنت أحملها بيدي فقد رماها بعيداً عني على الأرض وهو يمسك يدي خلف ظهري وقد وضع جسده كله فوقي...

- تميم... ما الخبر؟ ماذا دهاك؟ ماذا هناك يا رجل؟

كان ما زال ينظر يمينًا وشمالاً متوقع خروج أحدهم من الزوايا المعتمة... كان موقفه دفاعيًا معي ومستعد للهجوم على أي شيء يتحرك ولو نسمة هواء في الفراغ.

- تحدث... هل هناك أحد في البيت معك؟ هل هناك أحد؟ أخبرني سمعتك تتحدث مع أحدهم... أين هو؟ من هو؟

- لا أحد... لا أحد... ابتعد عني...

أخذت أقاوم جسده الثقيل عني أما هو فابتعد عني جالسًا على الأرض مستغربًا وما زال ينظر إلى العتمة في الغرف شاهراً مسدسه هنا

وهناك... فجأة دخل أحدهم من الباب راكضًا يحمل الآخر مسدسًا وهو ينادي على أسامة.

- معلم أسامة... معلم أسامة... هل أنت بخير؟

- نعم نعم أنا بخير... انتبه للباب... احمي ظهري.

ركض الرجل نحو الباب وأغلقه ووقف وراءه حاملاً مسدسه شاهراً إياه لفوق.

- إلى من كنت تتحدث يا تميم... ولماذا هاجمتني بسكين؟ ماذا دهاك؟ أنا أسامة صديقك... ما القصة؟ من هناك؟ هل هناك أحد؟

- لا... لا ... أنا أسف يا صديقي لا أعلم ماذا دهاني!

نظر لي نظرة مطولة ثم عاد النظر للفراغ... قام عن الأرض وأخذ هاتفه النقال وأجرى إتصالاً.

- أمجاد... مساء الخير... أحتاجك الآن في بيت تميم... أرجوكِ بسرعة... لا شيء لا شيء فقط حاولي المجيء سريعًا.

أغلق الهاتف ثم نظر للرجل وقال له:

- انتبه للباب لا تدع أحد يدخل... قد نكون مراقبين.

ثم اختفى في غرف البيت متنقلاً من غرفة إلى غرفة شاهراً مسدسه إلى أن تأكد أن لا أحد غيرنا في البيت... أعاد المسدس إلى جرابه المخفي خلف سترته اقترب مني وأمسك يدي ورفعني عن الأرض وأجلسني على كرسي وجلس مقابلي وأخذ ينظر لي.

- عندما كنت واقفًا على الباب سمعتك تتحدث إلى أحدهم... لقد سمعتك تتحدث بحدة مع أحدهم وبصوت مرتفع... من هو؟ أين أختفى؟ جميع نوافذ المنزل مغلقة ومستحيل أن يهرب أحد بهذه السرعة دون أثر.

نظرتُ أرضًا ولم أتحدث..

- تميم... ماذا هناك؟ أنت هاجمتني... لماذا؟ ماذا هناك؟... لماذا أنت صامت؟
- أنا أسف أسامة... أنا أسف.
- هل كنت نائمًا وتحلم؟ لكن لا مستحيل... السكين كانت بيدك وكنت تقف بمجابهتي وترغب بطعني.
- أنا أسف...
- أجب عن اسئلتي... ثم لماذا البيت في حالة فوضى؟ ماذا حدث ؟ من عبث في البيت؟
- أنا أسف... أنا أسف
- لماذا تكرر الإعتذار دون أن تجيب على اسئلتي؟ ماذا دهاك؟

بقيت صامتًا بلا حراك وبقي هو ينظر لي دون حراك... بعد فترة كانت أمجاد قد طرقت الباب تنادي على كلينا من خلف الباب، أدخلها الرجل بأمر من أسامة وهي تنظر للرجل ولنا والرعب على وجهها.

- تميم هل أنت بخير؟ ماذا هناك؟ ماذا حصل؟

وقف أسامة وبقيتُ أنا جالسًا مطأطأ رأسي ولم أجبها

- اهدئي أمجاد... سأخبرك كل شيء.

جلست والخوف بعينيها وهي تنظر يمينًا وشمالاً وقد دُهشت لأن الباب قد خلع والفوضى تملأ المكان وسكين على الأرض.

- أسامة... ماذا حدث؟ لماذا تميم صامت؟ هل اعتدى عليه أحدهم.

- لا أعلم جئت لأخبره أنني عرفت أين يقيم وضاح وكنتُ أرغب بإحتساء القهوة معه والإتفاق على أن نستوجب وضاح، فطرقت الباب عدة مرات ولم يجبني ثم سمعت صوته يتحدث مع أحدهم بعصبية وخشيت أن أحدهم قد دخل البيت ولم يكشفه الشاب الذي يراقب البيت، هذا الذي ترينه هناك... أنه أحد الموظفين في شركتنا... وعندما لم يفتح الباب قمت بتحطيمه ودخلت عنوة حاملاً سلاحي ظنًا أن أحدهم يهدد تميم لكن فوجئت به يركض نحوي حاملاً تلك السكين على الأرض يريد طعني بها فقمت بتثبيته أرضًا ونزعتها منه ولحقني موظفي بعد أن شاهدني أكسر الباب وعلى الفور قمت بتفتيش البيت ولم أجد أحداً.

- ولماذا البيت في حال فوضى؟ لماذا قوابس الكهرباء منزوعة والأسلاك تتدلى خارجًا والأثاث متكسر وبحالة فوضى... من فعل هذا؟

- أنه أنا!

أخيراً تحدثتُ خجلاً مم فعلت... لقد صحوت أخيراً وشعرت أنه لا بد أن أوضح لهم الأمر.

أسامة: أنت؟... أنت من فعل كل هذا؟ لماذا؟

أنا: لقد حرضني جاحظ العينين.

أمجاد: من؟

قام أسامة بإتجاه الرجل وطلب منه مغادرة البيت والعودة لموقعه...

عاد أسامة بعد أن أغلق الباب وجلس ونظر لأمجاد... وقال لها: حسنًا أمجاد، لقد فهمت... أن تميم لا يثق بنا

أمجاد: من هذا جاحظ العينين؟ وكيف لا تثق بنا يا تميم؟

أنا: نعم أنه أنا... أنا جاحظ العينين

أمجاد (فاغرة فمها): أنت؟ ماذا تقصد؟ ولماذا فعلت هذا كله؟ كيف لا تثق بنا بعد كل ما فعلناه؟

أنا: لا أعلم لماذا فعلتُ هذا كله! أنا لا أفهم تصرفاتي أحيانًا... أشعر أن أحدهم اسمه جاحظ العينين يبدأ يكلمني ويتحدث معي

فيتحكم بي أحيانًا وأتحكم فيه أحيانًا وهو أخبرني أن الرجال والفتاة الذين أحضرتموهم هنا كانوا جواسيس وأنهم زرعوا في البيت أجهزة تجسس وأن أسامة يعمل مع العصابة فصدقته وقمت بالبحث عن أجهزة التنصت وعندما لم أجد شيئًا وجدت أسامة يقف على الباب وعندما لم أفتح له الباب أخذ يطرق بشدة وجاخظ العينين يخبرني أن أسامة يقف على الباب يريد أن يقتلني لأنني عبثت في أجهزة التجسس وكلما زاد الطرق ارتفع صوت جاحظ العينين أكثر وعندما كُسر الباب ورأيتك تدخلُ حاملاً مسدس خفت كثيراً وقررت قتلك قبل أن تطلق النار علي.

أسامة: الحمد لله أنني لم اتسرع ولم أطلق النار دفاعًا عن نفسي... تصرفتُ بمهنية.

أمجاد: ومن جاحظ العينين؟

أنا: لا أعلم أنه صوت في داخلي... صوت مرتفع وشكل مرعب... صديق منذ أيام الطفولة.

نظرت أمجاد إلى أسامة أما أسامة ففتح فاه وهو ينظر لي ثم قال: فهمت... فهمت!

نظر كليهما إلى بعضهما بعضًا ثم ساد صمت غريب.

أسامة: حسنًا سأنام الليلة هنا... لا يمكنني تركك وحيداً في هذه الحالة... أمجاد يمكنك العودة لبيتك أنها ساعة متأخرة من الليل

وأرجوك أرسلي الفتاة للتنظيف مجدداً وأنا سأتصل مع فنّي الصيانة ليعاودوا اجراء الصيانة للبيت أيضاً.

أنا: أنا أسف حقاً... لا أعرف ماذا دهاني.

أسامة: لا عليك يا صديقي... لا عليك... سنصلح كل شيء... الآن قم ونم وغداً سنتحدث مطولاً... كل شيء سيكون على ما يرام.

* انكشاف سري وانكشافي *

شعرتُ بيد تهزني... صحوت من نومي العميق! كان أسامة...

- صباح الخير، لقد أعددتُ لنا فنجانين من القهوة... تعال أشرب معي.

ذهب وأنا أحاول أن أتذكر ما الذي حدث ليلة أمس! أه تذكرت... يا لخيبة الأمل التي سببتها لكليهما... لا بد أن كليهما مصابان بالذعر بعد ما فعلته ليلة أمس... لا بد أنهما مصابان بخيبة أمل كبيرة بسببي، لا بد أنهما لا يثقان بي الآن... ولا بد أنهما نادمان أيضًا على أنهما وثقا وصدقا مجنونًا مثلي... لا بد أنهما الآن يقولان في نفسيهما ما الذي ورطنا بمساعدة رجل مجنون؟ لا ألومهما... لقد سيطر علي جاحظ العينين أمس بطريقة غريبة وبشكل مخيف، لقد كان يتحدث معي فقط طيلة الثلاثين سنة ونيف الماضية لكن أمس سيطر كليًا علي وكاد أن يجعلني أقوم بجريمة... كان من الممكن أن أفقد حياتي أو يفقد أسامة حياته!

يا للهول... ما الذي قمت به!

وضعت رأسي بين يدي وأنا أجلسُ على السرير مرتعبًا حزينًا! وأقول في نفسي: ما الذي فعلته؟ ما الذي فعلته! لا بد أنهما سينهيان علاقتهما بي الآن... لا بد أنهما سيتركان القضية وينسحبان... أصبحتُ

خطراً عليهما وأنا الآن كالبيدق الخاسر على رقعة شطرنج وآن أوان خروجي من اللعبة فحملتني يد الخاسر وطرحتني خارج اللعبة.

سمعته من بعيد ينادي علي...

- تميم... القهوة بإنتظارك... تعال احتسيها معي.

مشيتُ نحو المطبخ وكان جالسًا قدم على قدم يشرب من فنجانه وبيده دفتر ملاحظات وقلم ويكتبُ على الدفتر وعلى الجانب الآخر من الطاولة فنجانًا... عندما رآني وضع القلم في الدفتر ووضعه على الطاولة وعدل جلسته... جلستُ والفنجان أمامي... لم أنطق أي كلمة... كانت عيناي متصلبتين في فنجان القهوة.

- ألن تشرب؟
- لا
- لماذا؟ أما زلت تشك بي؟ تظن أنني من العصابة؟... أليس كذلك؟
- لا... أبداً... كل ما في الأمر أنني تمنيت لو أنا أعددتُ ركوة القهوة هذه لأدفن فيها أخطر أسراري... سر مرضٍ نفسي... أن هناك شخصًا ثانيًا في جسدي اسمه جاحظ العينين.
- فهمت...اذا اسمه جاحظ العينين...

بقيتُ صامتًا

- أتريد أن تعد لنفسك قهوة أخرى؟

- لا أريد شفقتك يا أسامة... أفهم من طريقتك بالحديث معي كم تشفق علي... كم أنت حزينٌ علي... تظنني مجنوناً! ومعك حق... أنا مجنون... مختل... هذا ما قاله الطبيب لأمي وأنا صغيرٌ جداً... قال لها إبنك مريض مرض نفسي... مجنون... مختل... لن ينجح في الحياة، سيكون عالة على حياتكِ وسيجلب لكم العار... ونصحها أن تضعني في مشفى للمرضى الذين يعانون من الجنون... ضربته أمي بكفها على وجهه وهي مصدومة من كلامه... رغم بساطتها حاولت أن تضع كفيها على اذنيّ كي لا اسمع الطبيب وهو ينعتني بالمجنون...بكت أمي مطولاً، وعندما عدنا للبيت وَضَعتْ على جسدي زيتاً مقدساً ثم بخرتني ببخور ثمين اشترته من جارتنا النصابة ثم غطتني وبقيت تسهر فوق رأسي طيلة الليل حتى الصباح، أنا نمتُ طويلاً أما هي فبقيت تُصلي فوق رأسي طول الليل.
- لقد سبق وتحدثنا يا صديقي حول هذا الموضوع كلنا لدينا مشاكلنا وكلنا مرضى، و"المريض النفسي هو الإنسان الذي يفهم ما يجري حوله"[1].
- نعم لكن ليس الكل لديه رفيق وهمي يتحدث معه بصوت مرتفع ويتخذ عنهُ قرارات غبية ويُسيطر عليه... لا تبلل ريقك بالكلمات المعسولة لتخفف عني، فكلامك آخر شيء ينفع للإرتواء ...جاحظ

(١) ويليام بوروز (كاتب وروائي أمريكي).

العينين بعضٌ من السراب وبعض من دخان، يسيرُ في الفراغ وينتهي قبل أن تختار ترتيب الكلام لتخفف عني، هو لا ينفعُ كيدان تمدان نفسيهما لتساعداك أو قدمين تحملك وقت الشدة، هو بلا آذان ليستمع لي وبلا شفتين لينطق الحق لي رغم بعض نصائحه الجيدة أحيانًا، هو لا قلب له ولا رئتان... هو لا شيء... لا شيء.

- هل تريد أن تخبرني أنكَ ستغلق أبواب الحل؟ تريد مني أن أخرج من الباب واتركك أسير ما تُسميه جاحظ العينين؟ أنا لا أعرف شخصًا اسمه جاحظ العينين... أنا أعرف تميم وهو صديقي ويمر بفترات صعبة ولن أتركه أسير همومه والمشاكل التي تعصف به! الأصدقاء وجدوا ليقفوا مع اصدقائهم في ظروف تشبه هذه كثيراً لا بل أصعب منها! لا أنكر أنني جفلت من حدث الأمس لكن لم ولن يُغير من صداقتي معك.
- وأمجاد.
- أمجاد طيبة... أمجاد إنسانة عظيمة... لن تتخلى عنك... نحن ثلاثتنا أصدقاء ولا بد أن نقف بجانب بعضنا بعضًا.

مددتُ يدي وأمسكت فنجان القهوة وأخذتُ رشفة من القهوة فابتسم أسامة وأخذ بدوره رشفة من قهوته...

- لا بأس عليك يا تميم... كل شيء يمكن تصليحه وكل مشكلة يمكن حلها، لا تهتم أشرب قهوتك ولكن لن تذهب للعمل اليوم

هذا هاتفي الخلوي اتصل مع العمل واطلب منهم إجازة لترتاح...

أمجاد ستجلب لنا أفطاراً غربيًا شهيًا بعد ساعة وسنتحدث أكثر.

بعد الإفطار وقد أكلتُ على مضض تحت ضغط أمجاد وأسامة بادرت أمجاد بالحديث.

أمجاد: أسامة أمس أخبرتني أنك توصلت لوضاح، ما الفائدة التي سنجنيها من الحديث معه وقد أُغلقت القضية؟

أسامة: خيط بسيط لا نعرفه قد يؤدي إلى تفكيك القضية كلها، الدولة أنهت التحقيق ولكن نحن لم ننهيه، وتحقيقنا الهدف منه الوصول إلى معرفة مكان عائلة تميم وما الذي جعل العصابة توهم تميم أنهم يراقبون العائلة، نحن سألنا مدير الفندق وزملاء بهاء وسألنا جيران بهاء أسئلة بسيطة قليلة ومختصرة وتوصلنا لبعض الخيوط، الآن هناك خيوط تتعلق بالعصابة نفسها وإن لم نستطع التحقيق معهم لكن يمكن معرفة الكثير عنهم من خلال أحد المتعاونين معهم.

أمجاد: إن أردت مساعدتي فأنا جاهزة لأستجوبه جيداً

نظرتْ لي وقالت بكل حزم...

أمجاد: أما أنت يا تميم... نحن عائلتك وأصدقاؤك، لن نكف عن مساعدتك، فهلا أخبرتنا عن جاحظ العينين هذا؟

كنتُ خَجِلاً من فتح الموضوع... أعرف أنه سيُفتح... تمنيتُ لو شُقت الأرض وابتلعتني ولا أقف أمامهما هذا الموقف المخزي... لكن حدث ما حدث واعتذرتُ كثيراً ومطولاً حتى اصبح الإعتذار مقززاً

أنا: لقد أخبرتُ أسامة عني

أمجاد: حسنًا عرفنا أنه شخصية تظهر بها أو تظهر فجأة وتتحكم بك ونعت نفسك بالمريض النفسي، ولا أعتقد أن المريض النفسي يعرف عن نفسه هذا الأمر، لكن سأستمع لك أنا وأسامة الآن ليس لشيء فنحن لسنا طبيبين... فقط نُريد أن تُفرغ ما بقلبك من هموم... في الأول والأخير هذا الذي تسميه جاحظ العينين لا يظهر إلا عندما تتعرض للضغط!

أنا: حسنًا، منذ طفولتي وأنا أشعر وأرى في داخلي شخصًا له عينان كبيرتان بارزتان للأمام كأنهما جاحظتان لا ترمشان، متوقفتان عن الحراك كأنهما عينا رجلٍ ميت، وجسده صغير جدا كأنه قزمأ ومعاق، شخص قبيح جداً لونه أسود، وجهه مستطيل، لحيته جرداء، مسخ، أنفاسهُ كأنفاس رجلٍ ميت يحاول استنشاق روحه التي فارقته قُبيل لحظات، في صغري كان يشاركني ألعابي وفي كبري يُشاركني الأرجيلة وكل الأحداث المهمة في حياتي، يُقدم لي القليل من النصائح الجيدة والكثير من التحريض.

أمجاد: ليست أوصافًا لشخص محدد... هل يعقل أنه شخص ما أساء إليك وأنت صغير ورُسمت ملامحه في مخيلتك وبقي معك طول هذه المدة يخرجُ ويحاول أن يخترق حياتك الشخصية؟

أسامة: قد يكون أكثر من شخص لكننا لسنا مختصين لنحدد من هو وكيف دخل حياتك وكيف نخرجه من حياتك... نحن أصدقاؤك وهدفنا أن نخفف عليك... لا نملك دواءً سحرياً لعلاجك... نحن هنا لندعمك... نحن هنا لنخفف عليك... لسنا هنا لنحكم عليك بأنك مريض نفسي أو شيء من هذا القبيل.

أمجاد: بالضبط.

أنا: أشكركما

أمجاد: نعرف أن جاحظ العينين يظهر قليلاً في حياتك... فقط عند المشكلات.

أنا: تقريباً لكن لم أسجل متى يظهر ومتى يختفي لكن نعم أحياناً يظهر بكثرة وأحياناً يختفي لفترات طويلة جداً أكاد حتى أنسى وجوده.

أمجاد: كما توقعت أنه شخصية مدفونة في داخلك وليس مرضاً نفسياً صدقني... مع أن معلوماتي بسيطة لكن أعتقد أن المرضى النفسيين يعانون من تبدل الشخصيات كثيراً لدرجة أنك لا تشعر متى تظهر الواحدة ومتى تختفي! أن مزاجك العام في الظروف التي مررت بها هو ما يتبدل فتظهر هذه الشخصية في أوقاتٍ يشتدُ فيها الضغط النفسي عليك... لكن من يربح؟ هنا مربط الفرس.

أنا: أسكرُ أنا وجاحظ العينين من كأس واحدة، فإن ربحتُ كان سعيداً وإن فشلتُ لامني على تقصير ما، لكنه يفرح عندما يدلي بدلوه وأنا

اتجاهله عندما يكون قراري خاطئًا... لا فكرة لدي متى ظهر ومتى يظهر ومتى يختفي... أنه لأمرٌ مُتعبٌ جداً... أمر مرهقٌ جداً... لا تعلمان كم هو متعب أن يتحدث شخصٌ ما في رأسك لساعات وأيام دون أن يصمت... عندها لا فكرة تثير شهيتي، لا حقيقة تثير دهشتي، لا تمرد يثير ثورتي، لا سيدة تثير شهوتي... كل ما في الأمر أنني ألعب دور المنتصر حينًا والخاسرُ حينًا أخرى، أما هو فيلعبُ معي دور الغميضة فيختفي حينما احتاجه ويظهر على حين غرة دون ترحيب.

أمجاد: لا نملك حلولاً سحرية لهذه المشكلة لكن أنا متأكدة أنه لن يظهر ثانية اذا ما انتهت القضية كلها وعادت لك عائلتك عندها ستكون كل الأمور بخير.

أسامة: لنتأمل خيراً... الآن لا بد أن نستجوب وضاح، أنه خيط مهم في قضيتنا... سأذهب بعد قليل لأجلبه هنا ونستجوبه ثلاثتنا.

أنا: لا أتوقع أنه سيأتي إلى هنا... سيرفض.

أسامة (ضاحكًا): لي طرقي في اخراج الأفعى من وكرها فلا تهتم.

* من أنا لأحاط بهذا الكم من التعقيد؟ *

طُرق الباب مساءً وفتحت أمجاد الباب... كان أسامة مع وضاح، قالت لي أمجاد لاحقـًا أن وضاح صُدم عندما شاهد المحامية أمجاد وكاد أن يهرب لكن أسامة أمسكه فرفض أن يدخل للبيت لولا أن أسامة وعده بأن يمنحه مبلغـًا إضافيـًا... فدخل الخسيس... لكن عندما دخلتُ عليهم فجأة قام على الفور عن الكرسي لكن أسامة منعه، ووقف حاجزاً بينه وبين الباب.

وضاح (موجهـًا كلامه لأسامة): أنت تحتجزني وسأبلغ الشرطة بأنك اختطفتني.

أسامة: إهدأ... إهدأ نحن لا نريد أن نؤذيك ولا نريد مشاكل... فقط احتسي معنا شيء ودعنا نتحدث ثم خذ الأموال التي وعدتك بها وغادر بهدوء.

أنا: أسامة هل جلبته إلى هنا دون رغبته؟

أسامة: لم أجبره على شيء فقط قلتُ له أنني أملك فتيات سوريات وأُريد تزويجهن.

أمجاد: ألم تتعلم يا وضاح مـمَ حدث معك؟ أما زلت تبحث عن طرق جديدة للدعارة؟

أنا: أنتَ إنسان حقير ووضيع.

وضاح: وأنت ملاك! ألم تبيع نفسك في ماخوري ببعض الدنانير؟ لا تحدثني أيها الصالح التقي عن الحقارة والوضاعة وأنت كُنت عاهراً عندي وتستجدي عملاً مضاعفًا وأموالاً أكثر...

وقفت لأقاتله لكن أسامة وقف بيني وبين وضاح الذي بقي جالسًا

أسامة: لنهدأ... لنهدأ... نحن هنا ليس للمحاسبة، الماخور والقضية وكل ما حدث انتهى وذهب إلى طريقه... نحن هنا لموضوع آخر... أجلس تميم... وأنتَ وضاح كف عن هذا الكلام الآن، وأعدك أنك لن تخرج من هذا الباب إلا وأنت سعيد.

جلس وضاح وجلستُ أنا وكلانا ننظر لبعضنا بعضًا بشيء من العصبية والتوتر.

أمجاد: سيد وضاح نحن هنا لنتحدث عن المجموعة التي كنت تعمل معها لعلنا نتوصل بفضلك إلى عائلة السيد تميم المختفية.

وضاح: لا أعلم شيئًا عن هذا الموضوع... لا علاقة لي بهذا الموضوع.

أمجاد: نعرف ذلك... نحن متأكدين أنك لم تتورط معهم في كل العملية ولكن نريد أن نعرف إن قالوا لك شيئًا أو طلبوا منك شيئًا فيم يتعلق بعائلة تميم... أو على الأقل سمعتهم يتحدثون عن هذا الموضوع.

وضاح: لن أتحدث إلا اذا دفعتم لي كما وعدتني أنت.

كان يشير لأسامة

أنا: مُحتال... حقير... متخلف...

وضاح: انا احتال على أمثالك الأغبياء، رغم أنني قليل التعليم أو متخلف كما تسميني لكنني فهلوي وذكي جداً في الاحتيال، ثم تعال يا رجل! ألم تحاول الاحتيال على انسانٍ ما أو شيء ما في هذه الحياة؟ هكذا نحن! كلنا هكذا! حتى أسامة جلبني هنا بطريقة احتيالية... والاحتيال مهنة من لا مهنة له لكن المحتال ذكي... ليس من شروطها أن تعرف القراءة والكتابة... فلو كنت أُميّاً ولكن فهلوياً أصبحت محتالاً شاطراً لا يُشق له الغبار[1] بينما لو كنت تملك أعلى الشهادات وغافلاً فأنت مشروع مُحتال عليه... نعم أنا محتال وهذه مهنتي ولا تحتاج هذه المهنة لتصريحٍ أو شهادة، إنها مهنة الشيطان، مهنة من يصنع المتناقضات لكي يصنع بها المعجزات.... ولكي لا يبدو الاحتيال احتيالاً فنحن نضع على وجهه الكثير من مساحيق التجميل ليبدو الاحتيال صحيحاً وقانونياً، نقدم رشاوي كثيرة ومتنوعة لمحتالين آخرين لكي تمر خطوط الاحتيال من طرفهم أو بموافقتهم أو مساعدتهم... أنا إنْ شئتم متخصص في

(١) لا يشق له الغبار: جملة تستخدم للإفادة للفارس السريع جداً ولا يستطيع أحد أن يسبقه ويشق غبار فارسه في السباق.

الاحتيال وفي فن مكياج الاحتيال... احمل دكتوراة في الاحتيال حتى أن الكثير من الذين يعملون معي يسمونني دكتور.

أمجاد: ولماذا تمارس الاحتيال؟

وضاح: لن أتحدث أكثر أُريد أموالي أو أخرج الآن وإذا منعتموني فأنا سأخبر الشرطة أنكم اختطفتموني وهددتموني.

أخرج أسامة من جيبة ورقتين من فئة الخمسين دينار وسلمه إياهم.

وضاح: حسنًا... أنا احتال لأجل عائلتي لأؤمن لهم احتياجاتهم ورسوم المدارس وفواتير الكهرباء والمياه وبنزين السيارة والإنترنت... ألا تشاهدين كم أصبحت الحياة مرتفعة التكاليف في الأردن؟ لستُ أخلاقيًا نعم لكنني لا أرضى بعملٍ أجرهُ زهيد وأنتم تعرفون وخصوصًا أنت يا تميم أن رواتب المتعلمين وأصحاب الشهادات في هذا البلد قليلة جداً، فما بالكم بمن لا شهادة ولا مهنة له، لكن لستُ وحدي بلا أخلاق هنا فأنتم أيضًا محتالين... بل كلنا في هذا البلد محتالين... أنا محتالٌ مثلكم... احتال لأعيش وأتدبر أمري.

أمجاد: حسنًا لسنا هنا لنحاسبك على ما فعلته هذا أمر يخص الدولة وكما قلت لك نريد أن نعرف إن سمعت المجموعة التي جندتك لفتح " بيت الحياة" واصطياد تميم عن استهدافهم لعائلة تميم؟

وضاح: معظم كلامهم كان بالإنجليزية ولكن كان هناك مترجمة بيني وبينهم وهي تعرف معلومات أكثر مني وكانت صلة الرابط بيني وبينهم.

أمجاد: ومن هي؟

وضاح: أنها سيرين.

صرخنا ثلاثتنا أنا وأمجاد وأسامة: سيرين!!!

وضاح: نعم المحتالة الصغيرة سيرين، أنها الملاك التي لا يتوقع أحد أنها الصلة بين المجموعة وبيني وأوقعت بحبالها الكثير من الرجال، وتورطوا بسببها في قضايا كبيرة جداً... لولاها لما استطعنا فتح باب الحياة واستدراج الكثير من النساء والرجال ذوي المناصب وابتزازهم والكثير من الأشياء التي لا أعرفها، لكنها كانت المترجم ونقال قرارات الفريق...اعتمدوا عليها في الكثير من الأمور... كانت ظل البروفيسور... لا تفارقه إلا قليلاً.

أنا: سيرين فتاة بريئة وقاصر من أين لها كل هذا الدهاء؟ نعم كُنت أشاهدها معهم كثيراً لكن كُنت أضنها مجرد أداة لهم.

وضاح: لا أعرف لكنها أفعى وإن بدت لطيفة بريئة مسكينة ومحكومة على أمرها، وقد كانت المترجم بيني وبين الفريق، وكانت تصدر لي الاوامر وأنفذها أنا!

بدت الصدمة علينا جميعًا... آخر مخلوق على الأرض كنا نظن أنه متورط ومخطط ومنفذ للكثير من أمور الفريق في الأردن هو سيرين... عندما قابلتها في الماخور كانت فتاة صغيرة قاصر ذات شعر ناعم طويل... بريئة...

أنا: لذلك كانت تنظر لي طوال الوقت وعيناها كانتا تتبعاني في كل مكان كأنهما تقولان لي خذني... وأنت... أنت من قال لي أنه يجب علي أن أخذها لنفسي تلك الليلة ودفعت لك بدل أن آخذ منك حصتي مم قمت به تلك الليلة التي أخذتها معي للغرفة لأحميها من رجال الماخور وهي مثلت علي دور البريئة... تبكي وترتجف... وجعلتني أتحدث بكل ما بقلبي... عائلتي وعملي وقتها بدت فتاة فضولية جداً إلى درجة أنها طلبت مني أن أصف لها بيتي غرفة غرفة وعمَ يدور في خلدي من أمور بخصوص عملي... على كل حال هذه الصدمة لا تفوق صدمتي عندما رأيتها مع العصابة وتعمل معهم حتى على أجهزتهم الإلكترونية الدقيقة.

أمجاد: لم تطلعني المحكمة على نتائج التحقيقات التي أجرتها مع سيرين، لكنه حسب علمي كان أقصر تحقيق في القضية... حسنًا هل أطلعتك سيرين على أي شيء يتعلق بالعائلة؟

وضاح: لا... أبداً! دوري كان يقتصر على فتح " بيت الحياة" وهم دفعوا كل التكاليف وهم من زرعوا الكاميرات وأدوات التجسس.

أسامة: لم يفتحوه فقط للإقاع بتميم.

وضاح: تميم! لا طبعًا... لقد سجلنا لمئات الناس بعضهم أعرفه وبعضهم لا... بعضهم كنتُ أشاهد صورهم على التلفاز وفي الصحف وبعضهم لا... تميم أتى للماخور عبر زميل له بعد شهرين أو أكثر من فتح الماخور وبعد أن أصبح لدينا زبائن كثر.

أسامة: هل تم ابتزاز أي شخص غير تميم؟

وضاح: لا أعلم... هذا لم يكن من اختصاصي... كان دوري فقط إدارة الماخور وكُنت أتلقى تعليماتي من سيرين عندما كانت تأتي وحدها أو أحيانًا برفقة البروفيسور.

أسامة: وأين ذهبت بالتسجيلات؟

وضاح: جميع التسجيلات والصور أخذوها معهم، عندما أغلقنا " بيت الحياة" أخذوا كل شيء معهم ولم يتركوا خلفهم أي شيء.

أمجاد: هل سألك المحققون عن هذه الأمور؟

وضاح: نعم وأجبتهم نفس الإجابات.

أمجاد: هل أخذت نسخًا منها لإستعمالك الشخصي؟

وضاح: أبداً.

أمجاد: قل الحقيقة... لن نحاسبك أو نحاكمك!

وضاح: بصراحة كُنتُ أفكر في الموضوع... لكن لم أكن أعرف كيف... كانوا يستخدمون أجهزة دقيقة وصعبة ولم أكن أعرف كيف أشغلها حتى وكان ممنوع علي الإقتراب منها، خفت إن فعلت شيئًا أن يكشفوني وينتهي أمر الماخور لذلك صرفت النظر عن هذه الفكرة.

أمجاد: وهل تعرف أين سيرين الآن؟

وضاح: إن دفعتم لي جيداً استطيع أن أجلبها لكم كما أحضرتموني هنا.

أمجاد: لماذا لم تهرب سيرين مع المجموعة؟

وضاح: لا أعلم.

أنا: كنتُ بنصابٍ واحد لأكتشف أنني وقعت بإثنين... ما أغباني... ما أغباني!

أسامة: سأدفع لك ثلاثمئة دينار إن أوصلتني أنا وأمجاد لسرين... لن نستطيع احضارها هنا لأنها قد تعرف البيت... لذلك سيكون لقاؤنا في مكانٍ عام.

وضاح: لا أعلم إن كُنت استطيع ذلك.

أمجاد: هذه أصعب حلقة ولكنها مهمة.

أسامة: حسنًا... هل سمعت شيئًا عن الكنز؟ أو جهاز التجسس؟

وضاح: لم أصدق موضوع جهاز تجسس! الموضوع حسب علمي كان الإيقاع بتميم وآخرين لتسهيل استخراج الكنز وإخراجه إلى اسرائيل.

أمجاد: ومن أين لك هذه المعلومة؟

سيرين: كانت سيرين تتحدث مع أكثر من شخص عن هذا الموضوع وكنت اسمعها بالصدفة أو كانت تترجم كلام المجموعة مع آخرين مثلي لا يعرفون الإنجليزية.

أسامة: وأنت تعتقد أن كلامها صحيح؟ أم تصدق الكلام الرسمي؟

وضاح: أصدقها هي أكثر لأني رأيت صور وخرائط وعلامات وأيضًا في آخر فترة كان هناك صندوق صغير وجدوه فيه ذهب أخفوه في قاصة كانت لدي في بيت الحياة ثم أخذوه بعدها بأيام.

أمجاد: وهل هذا كان قبل أو بعدما حضر تميم للبيت؟

وضاح: بعدها... لكن كان تميم قد غادر البيت وأصبح يعمل مع المجموعة.

أمجاد: وأنت فككت البيت بعدها فوراً.

وضاح: لا.. بعد أن غادر تميم بفترة بسيطة قاموا بأخذ كل الكاميرات والأجهزة والتسجيلات وطلبوا مني بيع الأثاث وأخذوا اللوحة الفسيفسائية وأخبروني أن أُخلي الفيلا فوراً.

أمجاد: ومتى آخر مرة رأيتهم فيها؟

وضاح: لا أتذكر بالتحديد لكن كانت بعد أن توقف تميم عن المجيء عندي بفترة قصيرة تقريباً.

أمجاد: وهل حاسبوك جيداً؟ أو وعدوك بحصة من الكنز؟

وضاح: أعطوني عشرين ألفاً وكل ما جمعته من بيت الحياة كان لي.

أسامة: مبلغ ليس بقليل... هذا يدل أنهم كانوا يعملون لشيء مهم جداً جداً، دفعوا مبلغاً ضخماً مثل هذا مقابل الإيقاع بتميم وتصويره بعلاقات وابتزازه بها. هل هذا منطقي؟

وضاح: ليس تميم فقط... تميم واحد من أصل عشرات... تميم أبسط واحد فيهم.

أسامة: وهذا ما يؤكد أن الموضوع ضخم جداً... وهل جميع من صوروهم متورطون في موضوع الكنز؟

وضاح: لا أعلم... ممكن نعم وممكن لا... لكن حسب علمي أن من تم اصطيادهم كانوا سيخدمون المجموعة بطريقة أو بأخرى.

أنا: لم يكن معي من الأردنيين إلا وضاح وسيرين فقط.

أسامة: الباقون لتسهيل مهام أخرى...

أمجاد: حسناً... كيف سنصل لسيرين.

وضاح: ادفعوا لي الآن مقابل هذه المعلومات وإذا اكرمتموني جيداً فأنا أعرف أفضل الطرق للوصول لسيرين وأن تخبركم بكل ما تحتاجون.

*** مهما قصرت حياتك أو طالت**
لا بد أن تلتقي يومـًا بشخص يؤذيك *

غادر وضاح حاملاً ثلاثمئة دينار ووعداً بأن يسهل لقاء أسامة وأمجاد بسيرين.

من وجهة نظري أنا لم أستفد من لقائنا مع وضاح ولا أعتقد أننا سنستفيد بلقائنا مع الشيطانة الأخرى سيرين... أنا مشكلتي حاليـًا مع بهاء! أين ذهب وأين أخذ عائلتي معه... ولا توجد الآن أي طريق تؤدي إليه. تحقيقات مع وضاح أو مع سيرين ليست ذا جدوى ولا تفيد.. تضيع وقت...

أنا: لماذا لا نذهب لفندق البحر الميت ونسأل زملاء بهاء ومديره عنه... هؤلاء من يجدر بنا التحقيق معهم.

أمجاد: كل التحقيقات التي جرت معهم من قبل الشرطة حصلت عليها وحتى اسئلتنا عنه ولم توصلنا للشيء الكثير عن بهاء... أنه شاب منغلق على ذاته.

أنا: كيف منغلق على نفسه؟... ألم يعرف زملاؤه أين يسكن؟ ألم يعرفوا بموضوع شذوذه؟

أمجاد: نعم منغلق على نفسه... كانت علاقتهم معه ضعيفة جداً... وهل تعلم أنهم انصدموا حينما علموا أنه مثلي... مثلي وليس شاذاً.

أنا: كلها تحمل نفس المعنى... لا فرق!

أسامة: أصبر يا تميم سنعرف الكثير ووصولنا لبهاء أو وصوله إلينا هو شيء محتوم ومفروغ منه.

أنا: وما الذي يجعلك متأكداً هكذا؟

أسامة: عندي شعور أنه بمجرد ما يتأكد من أنك بخير وأن العصابة ما عاد بإمكانهم الوصول إليك أو لعائلتك سترى أنه إما سيكشف عن موقعه أو سيطرق بابك مع عائلتك... ومع ذلك نحن نتعامل على أننا من سيكشف موقعه أولاً... أُتعلم شيئًا... طريقته في الإختفاء مبدعة جداً وهذا يدل على أنه حمى عائلتك بشكل ممتاز.

أنا: ليتني استطيع أن أفهمها مثلك... إن شعوري يخبرني أنه شاذ حقير وأنا الغبي الذي رضيت أن يأخذ عائلتي لمكان مجهول! لكن لم يكن أمامي أي خيار ثانٍ.

أمجاد: لا تجعل أفكار جاحظ العينين تسيطر عليك.

غادرت أمجاد تلك الليلة وبقي أسامة عندي وطلبت منه البقاء عندي وأن نسهر معًا كوني أشعر بالضجر والتعب.

أسامة: تميم... أفهم أنك عملت في " بيت الحياة" بدافع الحصول على عائد مالي، لكن هل علاقتك مع انجل كانت فعلياً علاقة حب أم مجرد علاقة جسدية.

أنا: كانت من طرفي علاقة حب، ولكن أيضاً كانت علاقة جسدية... كانت علاقة عشق وحب وتخللها علاقات جنسية لكن لا أفهم كيف تجمد قلبي اتجاهها ولا استطيع أن أصف شعوري نحوها الآن... إنّ المشاعر لدي نحوها مختلطة ومتناقضة! أحبها لا أعرف... أكرهها لا أعرف...حقاً لا أفهم كيف أصف مشاعري نحوها.

أسامة: ولكن هل هذا هو الحب؟ أن تبني خيالاً في المجهول! أن تعيش المتناقضات؟

أنا: وما هو الحب؟

أسامة: إن الحب هو ذلك الشعور الروحاني والجسدي بين شخصين يقلب موازينهما ويسمو بعلاقاتهما نحو السماء، لا بل إنّ الحب أوسع من هذا بكثير ولكن حب هكذا مع فتاة غريبة فجأة وبناء على مصالح وأهداف شيء يُثير الشك.

أنا: وكيف يأتي الحب؟

أسامة: لا أعلم كيف يأتي... قد يأتي بغته وقد يأتي مع الوقت... قد يأتي بترتيب أو بدون موعد... لا ميزان أو خارطة طريق محددة للحب،

أنا لا أفهم الحب الذي يُصّنع ويأتي معلبـًا، لا أفهـم الحـب الـذي أجهـل محتوياته، لا أفهم الحب الذي يـأتي مكتوبـًا كارشـادات على العلبـة، لا أفهم الحـب وهنـاك مجموعـة مـن المحـاذير والمخـاطر عليـه... لا أفهـم الحب الذي يحتوي على ملونات صناعية ومنكهات ومواد حافظـة! فـأي حبٍ هذا الذي يأتي في عُلـبٍ بلاسـتيكية أو معدنيـة... سـائلاً أو غازيـًا أو صلبـًا قاسيـًا أو مجففـًا يُكال بـالميزان، ويبـاع بـالكيلو أو بـالغرام ثـم بعـد البيع يوضع في أكياسٍ سوداء اللون وما أن تصل البيت تجد نصفه الأعلى جيد والنصـف الآخـر المخفـي فيـه خـراب أو عفـن أو مضـروب! عنـدها تلعن التاجر الذي باعك حُبـًا فيه السوس والخماج. الحب أبسط من هذه الأمـور كلهـا... الحـب ثـورة تصـيب أحشـاءك... انقـلاب... تمـرد... عصيان... تبدل الأحوال! وفي لحظة واحدة فقط تفقد السـيطرة علـى كـل شيء... كل شيء... تتصبب عرقـًا، تمطر شُـهبـًا وتـرى في كـل الأوقـات نجومـًا بـلا سـبب وحروفـًا بـلا قلـم... ووجوهـًا وعيونـًا وابتسـامات وضحكات وهمس وحكايات وأشياء أخـرى لا يمكـن وصـفها كتابـة... لذلك يسهل القول أن العاشـق شـاعرٌ قـد يُجيـد اللغـة والكلمـات وقـد لا يُجيدها فعليـًا لكنه أي العاشق شاعرٌ بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ... هذا ما أعرفه عن الحل... غير ذلك إعذرني أنا لا أفهم هذه المعادلة الكيميائية الـذي جـرت بينـك وبـين انجـل وهـذه التجـارة التـي اتفقـتم عليهـا اتفاقـًا

بالبحث عن كنز مفترض وثم أخذ حصتك منه والهروب إلى دولة أخرى.

أنا: لا ألومك... كلامك صحيح! لكن أعتقد أنك عاشق... هذا الكلام لا يصدر إلا عن عاشق.

أسامة: " الضعفاء لا يدخلون ملكوت الحب"[1]... الضعفاء لا يملكون مفاتيح قلوبهم وأنا رجلٌ قوي وأعشق زوجتي... نعم أعشق زوجتي... أحبها بجنون...

أنا: زوجتك!

أسامة: نعم زوجتي... أحبها وأعشقها بجنون.

أنا: أول مرة أسمع عن رجلٍ عربي يُحب زوجته... حالتك لا تمثل أكثر من ١٪ من المتزوجين العرب.

أسامة: قد يكون... لا أعلم... لكن الحق هو "أن تملأ قلبك بمن تحب"[2] فلا يكون هناك شاغر لشخص آخر.

أنا: هل يعقل أننا العرب نعاني من علاقات سيئة مع الحب؟

---

(١) غابرييل غارسيا ماركيز (روائي كولومبي).

(٢) من مقدمة " الوهم".

أسامة: لا أعلم كل ما أعرفه أنني أُحب زوجتي كثيراً ولا أتخيل حياتي دونها ولا أتخيل قيامي بخيانة علاقتنا الزوجية... لا يمكنني تصور الدنيا بدونها...

أنا: قلوبنا من زجاج والحُبُّ حجارة... تضرب الحجارة بهذا الزجاج فإما تكسره أو تخدشه أو حتى لا شيء.

أسامة: أنتَ خدشت الحب... هو لم يخدشك.

أنا: " كي لا تصاب بالخيبة، لا ترسم في مخيلتك أن أحدهم لا يستطيع الاستغناء عنك"[1].

أسامة: الحب القوي لا يقتله إلا الموت أما أنت فلم تُحب بل عشقت جسد انجل وبنفس الوقت خنت زوجتك.

أنا: لقد فعلت ما فعلت... لستُ الخائن الوحيد على وجه البسيطة، أنا خطيئة ونحن جميعًا آفة، هذا التكاثر البشري آفة، نحن فيروسات نحن بكتيريا على هذا الكوكب... لستُ وحدي من أخطأ ومن وقع ومن خان...

أسامة: أنا لستُ هنا لأُدينك... نحن فقط نتبادل الحديث.

أنا: أعلم... لكن ضميري يؤنبني وكلما انبني ضميري يخرج جاحظ العينين يريد أن يقدم لي نصائح أو يلومني على حياتي، لذلك تراني كلما

---

(١) نجيب محفوظ (روائي مصري).

أنبني ضميري أُحمل غيري نتيجة فشلي... كما حملتها لزوجتي وعائلتي وقبلها لأمي... لا بل أُحمل العالم كله نتيجة أخطائي وليتني أرمي أخطائي على العالم وأعيشُ حراً لا مبالياً، لا بل أرمي على العالم كله أخطائي وأحمل عن آخرين أخطاءهم...لماذا يؤنبني ضميري على كل خطايا الكون؟ ألا تكفيه أخطائي ليتحمل ثقلها وبلاءها.

أسامة: المهم هل تعلمت درسك؟ ألن تسقط مجدداً في وهم الحب؟

أنا: سأرفض الحب إن أتى راكضاً أو ماشياً أو ساعياً أو زاحفاً... سأرفض الحب إن جاء متوسلاً أو سائلاً... سأرفض الحب أن جاء ديكتاتوراً قمعياً وحاول فرض أحكامه العرفية وسأرفضه إن جاء بشعارات طنانة عن حبٍ ديمقراطي وحرية وتحرر... سأرفض الحب إن جاء مبتسماً أو باكياً... خشناً أو ناعماً... سأرفض الحب بكل أشكاله لأنني لا أُجيده بالمطلق... فأنا حين أُحِبُ أغرقُ وأنغمسُ في بركان الإنتظار واحترق، وأنا إذا أحببت فقدتُ هويتي وكلي وقراري! ولهذا سأهرب من الحب متى جاء، ساختبئ عن الحب لاجئاً بين حفر التنقيبات وبين صفحات تقاريري العلمية وأسفل طاولة أكتبُ عليها تاريخ الموتى، وخلف اللقى الأثرية، وأدسُّ عينيّ في فنجان القهوة الذي أشرب، فالقهوة تحمل طاقة رومانسية قادرة أن تمنع أي تشويش من طاقة أخرى قد تحاول اقتحام مجالها... ولكن أتعلم... منذُ أن دخلت السجن

ثم خرجت، أصبحتُ منعزلاً عن هذا المجتمع... مجتمع لا أفهمه، لا مكان لي فيه... هم في جهة وأنا في جهة.... لا شيء يربطني بهذا المجتمع، لا علاقة لي به، لا استوعبه، أنا لفظته أو هو لفظني وطردني من كينونته " بالشلوت" لا أعلم! كل ما أعرفه أنني أشعر أنني نقطة ماء لا تتناسب مع هذا المحيط الكبير.

أسامة: بعد هذا الكلام أعتقد أنك نجوت من وهم الحب... أنت ناجٍ يا صديقي فحمداً لله على سلامتك.

* الفضول المتأخر *

بعد إجازة لبضع أيام من العمل عدتُ وما زالت عيون الزملاء تتبعني وهمساتهم تقتات على سيرتي وآذانهم تصغي لأي حديثٍ جانبي أجريه مع هذا أو ذاك، وأقدامهم تتبعني كلما استدعاني المدير العام لعملٍ أو مهمة أو إجراء، حتى دخولي للحمام تطلب منهم الجراءة لمعرفة كم من الوقت أقضيه فيه وهل كان فارغًا وهل خرجتُ منه بدون خسائر متوقعة.

بضع أيام والتماسك الذي كانوا يتحججون به سقط واصبح الزملاء يدخلون مكتبي فراداً أو مجموعات ليسألونني عن الكنز!

"هل حقًا كان هناك كنز؟"

" هل صحيح أن اسرائيليين كشفوا الكنز وقاموا بإخراجه من الموقع وتهريبه من الأردن لأسرائيل؟"

" كم حصتك من الكنز؟"

" أين تخفي حصتك؟"

" أيعقل أنك هرّبت حصتك مع عائلتك لخارج الأردن؟"

بينما كانت الشائعات التي اسمعها:

" كيف تفرج الدولة عن متورط إلا اذا كان عميلاً للصهاينة؟"

" سرق البلد وأعادوه للعمل، لا بد أنه متواطئ"

كانت كلمات حمدلله على سلامتك، وعودة ميمونة، واشتقنالك... ليست سوى عبارات سخيفة تافهة مزيفة... كانت غلاف جميل لشوكولاته مسمومة عفنة من كم هائل من الشائعات التي انتشرت ولم تتوقف إلا بعد فترة ليست بقصيرة!

كُنت كلما فاتحت أمجاد بهذا الأمر تقول لي: عِش غريبًا عن الناس وصديقًا لنفسك ولا تهتم،"كل ما أعرفه هو أن بعض الناس يتغذون على تعاسات الآخرين، ولا يحبون رؤية أن ينخفض عدد البؤساء على وجه الأرض"[1].

عُدتُ للعمل... للراتب القليل والجهد الكثير ولكن شعرت أن هذا المكان هو الآمان وهو القِسمة المحددة لي، نركضُ... ونركضُ ونحنُ كساعاتٍ قديمةٍ تتدلى من سلاسلها... تتحركُ بلا داعٍ وكأنها مشانق للدقائق، والوقتُ الذي يذهبُ يموت، ونحن هنا ننتظر رسائل لن تصل ومراكب غرقت ووجوه ما عدنا نستطيع التعرف عليها، ومع مرور الوقت تجعدت قلوبنا من الحزن واصبحت فقاقيع صابون نفخها طفلٌ وتركها تتشرد في غرفته بلا هُدى وهو ينظرُ لها بإنتظار أن تنفجر انفجارها الهادئ.

لا يمكنني الفرار من هذه الأجواء المسمومة ولا يمكنني أن أهرب من تاريخي وممَ فعلت لكنني أملك خياراً وهو الابتعاد قد المستطاع من

(١) إليف شافاق (روائية تركية).

الأجواء السلبية التي تُحيط بي... قرر المدير العام أن ينقلني لقسم جديد يُعنى بالدراسات... قسمٌ منعزل عن باقي الموظفين ودوره تقييم الأبحاث والتقارير المقدمة من الزملاء عن حفرياتهم أو الحفريات التي يشاركون بها مع الأجانب، وقال لي المدير وقتها أن تجربتي مع الفريق المزعوم ستفيد في كشف الحقائق وتقييم الفرق التي تطلب السماح لها بالعمل في الأردن.

لكن هل ستعود انجل مع فريق آخر... مع مجموعة أخرى؟

عمَ سيبحثون هذه المرة؟ عن مدينة أطلانتس غائرة في صحراء معان؟ أم عن كنز قارون المدفون بجانب سكة الحديد في عمان؟ هل يبحثون عن مملكة سبأ في الطفيلة؟ أم عن تيجان الملك سليمان التسعمئة والتسعة والتسعين التي دفنها في السلط؟ أم عن كنوز آخر خليفة عثماني قرر أن يدفنها بعيداً في صحراء بلاد الشام بالقرب من الأزرق؟ أم تلك الكنوز الصليبية التي دفنها أرناط آل شاتيون في الكرك؟

أم ستكتشف انجل خطاءها الفادح وتعرف كم أحببتها وأنها خسرت قلباً نقياً جميلاً لم ولن تحصل عليه... وحباً كبيراً وجماً لم ولن تحصل عليه!

الكنز الأثمن!!!

هل ستأتي؟

آهٍ يا انجل كأنكِ أفيون كلما تذكرتكِ أتخدر، وحين جاء همس ذكرياتكِ في القسم الجديد الذي استلمته أُصبتُ بالخدر...

ما عادت قدماي تمتلكان القوة للوقوف، كأنكِ إله وأكثر...

كأنني في هذا القسم الجديد المتفجر بالأوراق والأبحاث والتقارير أشمُ عُطركِ في الأوراق، فأغيب عن الوجود وأسرح... أفتش بين التقارير والأبحاث عن قصاصة ورقٍ عليها اسمك وتوقيعك لأجد لكِ منفذاً واحداً بأنك عالمة آثار وأنكِ لستِ مخادعة ولا نصابة ولا منافقة ولا مجرمة... أبحثُ لكِ عن عذرٍ... أي عذر... أي ورقة مكتوب فيها أنكِ تهتمين للآثار والتاريخ ولستِ باحثة عن كنوز وثراء.

سألتُ نفسي: هل نجوت؟بعد هذا البلاء العظيم... هل نجوت؟

وهل ينجو المرء من موتٍ على قيد حياة؟ إذا نحن فقط نؤجل الأمر! أو أن الأمر ليس بأيدينا... نحن لم نختر ذلك... نحن ننتظر فقط... ننتظر الأمر لكي يحدث فقط.

* السقوط المدوي *

نحن في حافلة والحافلة تهوي... تهوي بسرعة... ونحن العالقين فيها لا نستطيع الهروب، ولا نستطيع أن نقطف زهرة نمت على جدار الجبل، لا نستطيع أن نتأمل غروب الشمس من بعيد، لا نستطيع أن نتشبث بغصنٍ ناشف... الحافلة تهوي وتهوي ونحن ندفع أجرة السقوط.

من سينجو من هبوطنا العمودي هذا؟ حتى سائق الحافلة تخلى عنا وهرب من شباك مقعده الوثير! لكن بعد فوات الآوان... لقد قفز من النافذة فمن يظن أنه سينجو؟ لن ينجو! وكل من قفز من النافذة مثله لن ينجو... من تمسك بالمقعد لن ينجو... من جلس القرفصاء لن ينجو... من جلس وحيداً لن ينجو...من احتمى تحت المقعد لن ينجو... من نام على الأرضية أو حاول أن يتمسك بالسقف لن ينجو... من بكى وصرخ وتوسل وصلى لن ينجو...ومن شتم كل الآلهة والأنبياء أيضاً لن ينجو... من حاول أن يحضن حبيباً لن ينجو هو والحبيب... لن ينجو أحد.

أنها مسألة وقت فقط... والإنهيار مستمر وإن طال أكثر من اللازم وكلما اعتقدنا أننا وصلنا للوادي كان الأمر مجرد ارتطام بحافة... وكلما ارتطمنا بحافة تسارع هبوطنا ووقعنا أكثر...

أين نهاية الإنهيار؟ أين حدود المنحدر؟ أين عمق الوادي؟ لا أحد يعلم... وطالما أننا ما زلنا على قيد الحياة فلا أحد يهتم... طالما أننا على قيد الحياة... لا أحد يهتم.

منذ مدة لم يظهر جاحظ العينين وعندما أخبرتُ أمجاد بهذا الأمر قالت لي أن جاحظ العينين وهمٌ في دماغي وأنني من اخترعه وأنا طفل وأنني كبرتُ وكبر معي وأنه ليس أكثر من أفكار وصور تأتي في دماغي عندما أتعرض لضغطٍ نفسي أو بعض المشاكل وأن علي أن اتحكم بشعوري وأن لا اسمح لهذا المسخ الخيالي بأن يعود!

قالت لي: أنت الشاهد الوحيد على مقتل هذا الكائن! وهذه الجريمة الوحيدة التي لا تحتاجُ لمحكمة ولقاضٍ ومحامي دفاع ومحامي إدعاء... تحتاج فقط لقرار وحُكم وتنفيذ وأنتَ القرار وأنت الحُكم وأنت المنفذ...لقد انتصرت...أنه أنت...حقًا أنه أنت، هو ميت وأنت حي!

وأنا الذي كُنتُ أظن أن الحي هو من يعيش، فالحياة كانت بالنسبة لي مجرد كلمة مصطنعة... مصطلح الأكل والشرب، لكني أنظر خلفي... للجريمة التي اقترفتها، أُريد لو يعود الزمن للوراء بعض السنوات لا بل بعض الأشهر فقط لأتحدث للشاب الغبي الذي اسمه تميم وأخبره أنه على وشك أن يقع فريسة غبائه قبل أن يقع فريسة عصابةٍ مجرمة... أُريد أن اتحدث معه وأخبره أين الصواب وأين الخطأ ولكن

كلما عُدتُ للماضي أجدُ ذلك الشاب وقد رحل منذ فترة طويلة... وترك خلفه عجوزاً متهالكةً لا بد أن أعيش معه! عجوزاً لا بد من إعادة تأهيله ليعود للحياة... لكنه مؤهلٌ للموت فقط.

هذه الحياة وجعٌ وضحكة ومفعمة بالأمل والإنكسار...

* صدمة جديدة *

بعد أيامٍ من لقائنا المسائي مع وضاح اتصل معي أسامة وأخبرني أنهُ رتبَ لقاءً مع سيرين وذلك في بهو أحد الفنادق الراقية وأنه بإنتظاري أنا وأمجاد في ذلك الفندق بساعةٍ محددة... ليس في أول اللقاء بل بعد لقائهما ببعض الوقت حتى لا تخاف أو تترك الجلسة.

أنه الموعد الأهم... أنه التحقيق الأخير... أنها آخر محاولة للنجاة... للخروج بشيء من هذه الدوامة... لأعرف رأسي من قدميّ في هذه الحلقة المفرغة...

لا يهمني موضوع الكنز ولا أين هو

لا يهمني إن كان الموضوع يتعلق بجهاز تجسس اسرائيلي قديم تم نزعه من قبل الإسرائيليين

لا يهمني إن كانوا فريقًا أثريًا أو عصابة

لا تهمني انجل ولا أين هي ولا ماذا حل بها

كل المهم... كل ما أُريد أن أعرفه هو مصير عائلتي

ولعل سيرين هي الوحيدة القادرة على أن تدلنا على طريقٍ ما... خيط ما... الحلقة المفقودة.

لعل سيرين هي الخيط الذي متى ما سحبناه قد يفكك العقدة ويحل كل الخيوط... لعلها طوق النجاة من هذا الغرق المميت!

في الطريق للفندق كُنتُ أنظرُ عبر نافذة السيارة للشوارع... هل سأرى عائلتي فجأة تمشي في هذه الشوارع؟ تعبر زوجتي الطريق ممسكة بيد طفلي الصغير... أميرتي الصغيرة تضع على ظهرها حقيبتها المدرسية وتمسك بيدها لعبتها ذات الشعر الأشقر الطويل...

وصلنا إلى الفندق وقالت لي أمجاد: أنهم هنا منذ ربع ساعة، سندخل إلى بهو الفندق لن نذهب إليهم فوراً بل سنجلس إلى أن يعطيني أسامة إشارة فنذهب ونجلس معهم.

- حسنًا

دخلنا الفندق وجلسنا في مكان بعيد عنهما... كنا في مكان لا يروننا فيه، وكان أسامة وأمجاد يتبادلان الملاحظات عبر الواتساب، جاء نادلٌ وطلبنا القهوة وكنا نراقب من بعيد أسامة وسيرين يتحدثان...

كانت سيرين تبدو أكبر سنًا من آخر مرة رأيتها فيها... ملابسها أكثر جرأة وأكثر رقيًا من المرات التي شاهدتها فيها آخر مرة... تبدو كفتاة راقية جداً بجلستها وملابسها... لولا أنني شاهدت وجهها قبل ثواني لقلت أنها فتاة أخرى ليست سيرين.

كانا يتحادثان... ونحن نشرب القهوة... لم يرسل أسامة أي إشارة لنا لا بيده ولا عبر الواتساب لنتدخل ونجلس معها...

- ألم يتأخر؟ ما الذي ينتظره ليرسل لنا إشارته؟

- أنا متأكدة أنه ينتظر الوقت المناسب... لا نريد أن نرهبها فتخاف وتتركنا وترحل... لا نريد جلبة في الفندق...
- صحيح ولكننا ننتظر هنا منذ نصف ساعة وهما يتحادثان ولا يتوقف الحديث بينهم.
- لعل الأمر بالغ الصعوبة... لا تنسى أنها كانت عضواً في العصابة ومجرد اقناعها بالحديث أمر بالغ الصعوبة، ثم لا نعرف كيف جلبها هنا أسامة ووضاح وكيف اتفقوا معها.
- وضاح! أين هو يا ترى؟
- لم يخبرني أسامة بأن وضاح سوف يحضر... قد يكون رتب للموعد من بعيد.
- المهم أن نخرج بشيء من هذا اللقاء... يا رب... يا رب.

وما أن انتهيت من هذه الجملة حتى وقفا كليهما...

هبط قلبي... لماذا لم يعطينا إشارة؟... سترحل ولن آخذ منها أي معلومة!

كُنتُ أنا وأمجاد ننظر لهما بدهشةٍ وريبة... ونقول في نفسنا: إلى أين؟

ثم كانت المفاجئة... لقد شاهدونا...

أشار أسامة لي ولأمجاد من بعيد... وقع نظر سيرين علينا ... وتلاقت نظرات عينيها مع نظرات عيني...

تحركا نحونا... بكل ثقة

وصلا إلينا... رفعت سيرين يدها اليمنى للسلام فسلمت على أمجاد أما أنا فما مددتُ يدي... بقيت تمد يدها بإنتظار السلام مني وأمجاد وأسامة ينظران لنا... بعد لحظات أنزلت يدها... بعد أن تأكدت أنني لن أُسلم عليها.

أسامة: تميم... سيرين تريد أن تعتذر لك وتريد أن تساعدنا.

لم أجب.

أمجاد: تفضلي سيرين أجلسي... لنجلس جميعًا ولنحاول أن لا نحدث جلبة في هذا المكان العام... كيف أمورك سيرين؟

سيرين: أنا بخير شكراً.

أمجاد: آخر مرة شاهدتك فيها كانت في المحكمة... لقد تم الإفراج عنك فوراً.

سيرين: نعم.

أمجاد: لسنا هنا لنحقق معك... لا نريد مشاكل معك ولا وضعك في مشاكل... نريد أن تساعدينا في موضوع عائلة تميم، لا شيء آخر وأي شيء تريدين منا سنقدمه لكِ.

سيرين: لا أريد شيئًا... لا أريد شيئًا سوى أن يقبل تميم إعتذاري عمَ فعلت.

أسامة: قبل أن تتحدثي يا سيرين أُريد أن أخبركم أنني التقيت بسيرين بعد أن أخبرها وضاح بأنني صديق لعائلة تميم وأن تميم يريد مساعدتها في البحث عن العائلة ولكنها طلبت مني أن أكون وسيطًا بينها وبين تميم وأنها لا تريد أن تقابلك يا تميم لأنها تشعر بذنب كبير لِمَ اقترفته من أفعال وتسهيلها لمهمة الفريق بالسيطرة عليك منذ البداية وحتى النهاية... ولكن بينما نحن نجلس هنا ونتحدث وأعربت عن ندمها الشديد أقنعتها بأن تتقابلا وأن تتصالحا وتفتحا قلبكما لبعضكما بعضًا وتتحدثا بوجودي أنا وأمجاد عمَ حدث لعلنا نستطيع التوصل إلى مكان العائلة.

أنا: وأنتَ صدقتها... أنها كومة من الشر، صغيرة وشيطانة... أنها بارعة في الخداع، دموعها دموع تماسيح والبراءة التي تظهر على محياها كأنها لسعات أفعى تبصق علينا سُمها... هل نسيت كيف خدعتني في "بيت الحياة"؟ أنها بارعة في إظهار نفسها كطفلة بريئة... أنا أعتقد أننا لن نستفيد منها بل قد تخدعنا مجدداً.

سيرين: لا... لا أرجوك! أعرف أنك متضايق مني ومتوقع منك هذا الأمر وحكمك علي مبني على شيء منقوص وأرجو منك أن تسمعني للآخر ولن تندم... لن تندم.

أسامة: نعم... أرجوك يا تميم اسمعها للآخر.

أمجاد: سنسمعكِ يا سيرين فأرجو أن تكوني صادقة ولا تنسي أن الأمر يتعلق الآن بأم وأطفالها... تذكري بأنك مراهقة ولعلكِ تشتاقين لعائلتكِ... دعِ قلبكِ يحكم الآن ودعِ إنسانيتكِ تتحكم بما تقولينه لنا من معلومات فلعل المعلومات التي تقدميها لنا تجعل أطفالاً بعمر الورود ينامون في حضن والدهم الليلة أو غداً.

سيرين: أنا لستُ مراهقة... أنا أبلغ من العمر ٢١ عامًا.

علت المفاجأة وجوهنا جميعًا... إن مظهرها يدل على أنها مراهقة وإذ هي الآن بالغة!

سيرين: نعم أنا لستُ طفلة... مظهري خادع... أنا قصيرة وصغيرة الحجم وشكلي يبدو كطفلة ولكنني طالبة في السنة النهائية في الجامعة وأدرس في كُلية الآداب وتخصصي الفرعي لغات.

أي وصفٍ لصدمتنا لا يمكن أن يكشف مدى الإندهاش الذي بدى على ثلاثتنا أنا وأمجاد وأسامة.

أنا: ألم أقل لكم أنها مخادعة؟

سيرين: صبرك علي... أنا مظهري خادع ولكن تعرضتُ للخداع مثلك... وإذا كان مظهري خادعًا فلا علاقة لي به... طولي وحجمي وشكلي لا علاقة لي به أنها الوراثة!

أنا: وما علاقة الوراثة بالجريمة التي اقترفتيها بحقي وحق وطنك.

ضحكت سيرين ضحكة حزينة أو ضحكة بائسة، وبعض الضحك حزين!

وقبل أن تتحدث قاطعتها أمجاد: لا نريد صراعًا بينكما... نريد أن نركز الآن على قضية العائلة... أرجوك تميم دع عنك الحقد الآن ودعها تكمل كلامها.

أنا: أسف... أسف ... فقدتُ أعصابي... لكن الفرص لا تمنح بالمجان، وهذه فرصتي لأقول ما في قلبي لشخصٍ خدعني، فرصة لن تتكرر مرتين.

أمجاد: نحن نتفهم شعورك لكن لتركز الآن في موضوع عائلتك.

أسامة: أكملي سيرين أخبريهم عن لقائكِ بالفريق الأثري وتورطك معهم.

سيرين: حسنًا... أنا طالبة في الجامعة سنة آخيرة ومن متطلبات تخصصي أن أقوم بزيارة تبادل أكاديمي مع جامعات أجنبية أي أن يقوم طالب من جامعة أجنبية بزيارة لجامعتي بالمقابل يقوم طالب من جامعتي بزيارة لجامعة أجنبية... يسمونها تبادل أكاديمي للطلبة... ذهبت أنا ومجموعة من الطلاب والطالبات لجامعة أمريكية وهناك كان جزء من تعليمنا وتدريبنا مع برفسور أمريكي يُدّرسُ علم الآثار البيزنطي.

أمجاد: وما اسمه؟

سيرين: أنه البرفسور دانيال.

أمجاد: اسمه الحقيقي؟ وهل هو بالفعل عالم آثار؟

سيرين: نعم... اسمه حقيقي، ونعم هو برفيسور في الجامعة الأمريكية.

أمجاد: اذًا كان بالفعل عالم آثار وليس مزوراً... لم تكن اذا قضية تزوير؟

سيرين: تمهلي سأخبرك كل شيء.

أنا: لا أعلم من أصدق! ما هذه الألغاز والأحاجي... نحن أمام قضية معقدة جداً!

سيدين: عندما تسمع قصتي ستعرف كل شيء وبعدها اجمع قصتي مع القصص الآخرى وستخرج بكل الرواية.

أمجاد: أكملي عزيزتي.

سيرين: في أمريكا بدأنا نأخذ محاضرات مع البرفسور دانيال ومع الأيام وقعت في حب الرجل.

أنا : أنه يكبرك سنًا بعقود... أنه بمثابة والدكِ، كيف تقعين في حب رجلٍ في عمر والدك؟

سيرين: لقد كان رائعًا وطيبًا معي... وقعنا في الحب... أو بالأحرى وقعتُ أنا في حبه، أما هو فكان يريد رفيقة فقط! وكم حطمني هذا

الأمر... وبدل أن أهرب من حبٍ يقتلني تعلقت به أكثر وكلما تمادى في إذائي كلما تعلقتُ به أكثر! مع الأيام أصبحتُ عبدة له... سيطر علي كليًا... والحبُ من طرفٍ واحد يحطمنا ويتركنا أشلاء... الحب وطن الحطام والثورات... الحبُ انقلابٌ عسكري تعقبه مجازر وانفلات، قتالٌ ومذابح! الحبُ يُحطمك إلى أجزاء وكلما تعمقت في الحب تظن أن الحبيب سينقذك وسيأتي سريعًا ليلملم حُطامك وكِسر القلب التي سقط منك على قارعة كتابٍ ما فتحطم! لكن الحقيقة هو أن لا أحد يهتم... لا أحد يلتقطكَ... لا أحد يُمسك يدك... وأنك وحدك تواجه كارثة قلبكَ المحطم، وأنك وحدك "ستلضم"[1] الإبرة، وأنك وحدك من ستخيط قلبك لتعيده قطعةً واحدة وأنت تعلم أن لا شيء مكسور يعود كما كان، وأنك لستَ ماهراً في الخياطة، لكن لا تملكُ أن تترك قلبك وحيداً ممزقًا وتنظر إليه!

أمجاد: لماذا لم تتركيه؟

سيرين: من السهل أن نقع في الحب ولكن لا يمكننا الخروج من الحفرة لشدة عمقها... " نحن نقع في الحب ولا نمارسه... يقولون أننا نمارس الحب، لكن من يقول عن الحب أنه ممارسة فإنه يظلم الحب! نحن لا نجيد الحب لنمارسه لذلك متى وقعنا فيه فلا مفر... لا مفر من

(١) إدخال الخيط في ثقب الإبرة بهدف الخياطة.

التخبط لأننا لا نعرف كيف نتقن الحب... نسبح به ظنًا أننا نستطيع السباحة لكننا مهما أجدنا الحياة فإننا نغرق إذا ما أحببنا"[1]

أمجاد: وماذا بعد هذا الحب الفاشل؟

سيرين: مع الأيام عرفني على صديقته الثانية انجل وهي طالبة ماجستير عنده ايضًا ولكنه كان يحبها أكثر مني، وكنت أحسدها لأنها كانت ذا مكانة وحُظوة[2] عنده... مع الأيام كنتُ قد أصبحت أزوره يوميًا في البيت وكان يأتيه مجموعة من الطلبة بينهم انجل وهناك اطلعوني على سرهم العظيم... لقد اكتشفوا في مكتبة الجامعة عن خريطة وكتاب يتحدث عن سر خطير حول موقع أثري دفن فيه كنز بيزنطي وكنوز يهودية وكانوا يسمون الكنز بكنز هرقل.

أمجاد: أتظنين أن الكنز حقيقي؟ أم أنهم أوهموكِ بالكنز كما أوهموا تميم وأوهموا البلد كله...

سيرين: إن الكنز حقيقي ومن يقول غير ذلك واهم!

أنا: من نصدق الآن؟

قلتها بشماته!

أمجاد: وهل شاهدتيه؟ هل أخرجتِ الكنز معهم؟ هل أخذتِ شيئًا منه!

---

(١) رواية الوهم لنفس الكاتب.

(٢) المنزلة الرفيعة.

سيرين: لم أصل قط لهذه المرحلة معهم...

أنا: اذا أنتِ واهمة... وأنا واهم... والوطن كله واهم! ما كان في ذلك المكان، في تلك البقعة من الأرض لا يعرفها إلا الله وحده وبعض الرجال والنسوة... بعض المسؤولين وبعض الإسرائيليين... هم وحدهم كانوا يعرفون عمَ يبحثون وعندما وجدوه أخرجوه من الأرض في جنح الظلام وتحت الحماية... ما كشفوه أخرجوه إلى اسرائيل...

سيرين: أنا أجزم أنه الكنز... وليس جهازاً اسرائيليًا

أمجاد: وما الذي يجعلك واثقة هذا الحد؟

سيرين: كانوا يملكون صور جوية مأخوذة من الأقمار الصناعية وعندما سألتهم عنها قالوا أن هناك قمراً يمكنه كشف المعادن على الأرض وتحديد نوعها وأن هذه المنطقة تحتوي على كميات كبيرة من الذهب.

أسامة: وكيف حصلوا على هذه الصور؟

سيرين: لأنهم كانوا يتعاونون مع أجهزة سرية... لم أكن مخولاً لي الدخول لإجتماعاتهم لكن كنتُ أعلم أنهم يعملون مع أجهزة سرية، ثم أن صور الأقمار الصناعية كانت تحمل اشارات حكومية أمريكية وبعضها اسرائيلية.

أمجاد: لهذا الأمر كثير من التحقيقات تم اخفاؤها واُعتبرت بالغة السرية.

أنـا: نحـن نتسـرع في الحـديث... دعينـا نتحـدث بالتفصـيل... متـى شاهدتِ صور الأقمار الصناعية قبل أن تعودي للأردن وأم بعدها؟

سـيرين: قبـل عـودتي بفتـرة... أنـا عُـدت لـلأردن قـبلهم... سـبقتهم بفترة.

أمجاد: وعلى ماذا اتفقتِ معهم في أمريكا؟

سيرين: كنتُ أنفذ ما يطلبه مني البرفيسور... لم نتفق على شيء ولم يعدني بشيء أبداً... كنتُ أريد أن أبهره... أن أسرق قلبه... أن أجعله يُحبني بأي طريقه بأي وسيلة لذلك فعلت كل شيء يريده مني.

أنا: وهل صحيح كان هو والمجموعة كلها تضاجعك.

سيرين نادمة وقد انزلت رأسها لأسفل: نعم.

أمجاد: وما الذي أوصلكِ لهذه المرحلة من الهوان!

سيرين: القصة طويلة.

أنا: معنا وقت كافٍ.

سـيرين: لا أعلـم هـل سـتفيدكم قصـتي في شـيء ولكـن علـى الأقـل ستعرف يا تميم أي إنسانة أنا حينما تعرف أنني حينما كنتُ طفلة كنتُ أهاب كل شـيء... الأشـياء الصـغيرة دائمـا مـا تقلقني والأشـياء الكبيـرة دائما ما تثير رعبي... أعاني رهاب الخروج من البيت وأخاف من المـرور بالشوارع التي تكتض بالمـارين... كنـت اتحاشـى الأمـاكن التـي تـذكرني

بوجوه الناس الذين مروا في حياتي... ثم بعد فترة أصبحت سجينة... سجينة البيت وسجينة الخوف وسجينة الأفكار السوداء وسجينة الحزن والألم... كنت اتمنى الموت يوميًا وأخاف على نفسي من نفسي! أما أهلي فكانوا لا أباليين! كانوا لا يفهمون معنى أن ابنتهم تعرضت للإغتصاب وتتعرض له كل يوم على يد رجلٍ همه أن يفرغ قوته عليها، عندما بلغت الثامنة عشر من عمري زوجني أهلي من شخص ملتزم دينيًا أعجبه أنني لا أخرج خارج البيت فظن أنني مثله ملتزمة دينيًا، وعندما اكتشف زوجي في ليلة الدخلة هذا الأمر جن جنونه وكاد يقتلني لكثرة ما تعرضت له في تلك الليلة من الضرب المبرح على يديه... وفي الصباح الباكر عندما جاءت أمه وأمي ليطمئنا على الذبح الشرعي صدمتا من منظر وجهي وجسدي لكثرة الضرب فالدماء كانت تسيل من كل بقعة في جسدي إلا من المكان الذي كانا يتأملان أن يسيل منه! فأخبرهما زوجي فكاد يغمى على أمي أما حماتي فأخذت تلطم وهي تقول " تزوج إبني عاهرة... تزوج إبني عاهرة... أقتلها وامسح العار، أذبحها وامسح العار" ثم أتت المساعدة من حيث لا أعلم فوالد زوجي كان خارجًا وعندما سمع الضجة والبكاء دخل فوراً وعندما علم بالموضوع طرد زوجي وأمي وأم زوجي وسألني لماذا فعلت بإبنه هذا الأمر؟ فقلت له بشكل مباشر ودون مواربة " عمي أنا لست عاهرة! أنا تعرضت للإغتصاب

اليومي على يد زوج أمي لسنوات... أنا لم أفرض نفسي على أبنك بل أنتم وأمي من زوجتموني... أنا قلتُ لكم أنا لا أصلح للزواج... أنا لا أصلح لشيء" فما كان من حماي إلا أن جمع أمي وحماتي وزوجي وطلب منهم أن "يستروا عرضي"[1] وأن يقوم زوجي بتطليقي بعد شهر حفاظًا على سمعة العائلتين!

كانت سيرين تتحدث وهي تشهق بكاءً وكانت أمجاد تبكي معها وأسامة تملكه الحزن أيضًا! أما أنا فلم أكن أملك مشاعر حقيقة! أشعر بالبرودة إتجاه هذه الفتاة.

ما بال هذه البلاد مريضة؟ ما بال هذه البلاد حزينة؟ ما بال هذه البلاد تخنقنا ببطء؟

لماذا الكل هنا محزونون؟ مخنوقون! بائسون! يتملكنا الألم والوجع وعدم الثقة ورغبة بالإنتحار وحب الموت.

أسامة: ولماذا لم تتعلمي درسك مع البرفيسور؟

---

(١) ستر العرض هو مصطلح اخفاء حقيقة أن الفتاة غير المتزوجة ما عادت عذراء! وهي تستخدم في الأردن لكتم معلومة تتعلق بالشرف، حيث أن اكتشاف هذا الأمر يُعرض الفتاة للقتل، وكان من يقتل عرضه أي زوجته أو أخته أو إبنته بداعي الشرف يحصل بموجب قانون العقوبات الأردني على حكم مخفف حتى وقتٍ قريب إلى أن تم إلغاء العذر المخفف لاحقًا لتعتبر جريمة قتل مع سبق الأصرار والترصد.

سيرين: لا أعلم لقد سيطر علي البرفسور سيطرة تامة وتلا الأمر اشياء كثيرة وأحداث كثيرة وفي مرحلةٍ ما فقدتُ السيطرة على كل شيء!

كان صوتها المختلط بالبكاء أقرب للهمس... لم يشعر بنا أحد ولم تكن تحاول أن تثير جلبة ببكائها وكلامها...

وضعت أمجاد يدها اليمنى على كتف سيرين فما كان منها إلا أن وضعت رأسها على صدر أمجاد وأخذتا تبكيان بهدوء... بكاءً مُراً!

شاهدتُ هذا الموقف قبل اليوم... عندما كانت سيرين في حضني في بيت الحياة وأعتقتها من شري ومن شهوتي ومن عبثي ومن أفكاري الجنونية... يومها بكت بكاءً مراً على صدري وبكيتُ معها ثم استنطقتني كل أحداث حياتي واسراري وعملي وعائلتي... وكل شيء!... فما عساها تُريد الآن؟ ما عساها تُخطط الآن؟

أرى أمجاد تبكي معها...

أسامة بدت عليه علامات الحزن والأسى...

أما أنا فيا لقلبي القاسي!

لا بل إن تجربة واحدة تكفيني!

لدغة واحدة من هذه الأفعى تكفي ولن أقبل أن أضع ثقتي في جحرها مرتين.

أنا: يكفي الآن... هذه تمثيلية! اكملي... لا نريدُ مسرحية الآن.

نهضت عن صدر أمجاد وقد كانت دموعها تنهمر كقطرات ماء تنزل من غيومٍ هي عينيها... أما أمجاد فنظرت لي نظرة قاسية.. نظرة تعنيف...

أمجاد: ما بالك؟ الهوينة يا رجل

أما أسامة فأشار بأصابعه على فمه أن أصمت... أن أهدأ... أن لا أغيض أمجاد... ولا أُهين سيرين!

لكن... لا أحد... لا أحد عَرِفَ أو شَعَرَ أو مر بمَ مررتُ به

كيف اذا سيفهمون أن التمثيلية التي تجري الآن هو نفسه المشهد الذي مررتُ به قبل بضع شهورٍ فقط! لن يفهموا!

أمجاد: إهدئي حبيبتي... إهدئي...

أخذت سيرين نفساً طويلاً ومسحت دموعها...

سيرين: أنا بخير... لا تلومي تميم! ولكن سأُخبركَ بشيء يا تميم... عندما التقينا في بيت الحياة وكانت الخطة التي وضعها البرفسور ونفذها وضاح أن تختارني ثم تضاجعني وأن تخبرني بكل شي وخلال هذا الأمر أن يتم تصويرك ثم اذا رفضت أن تقوم العصابة بتهديدك بنشر مقاطع الفيديو لنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي فيجبرونك على تنفيذ طلباتهم... لكن الخطة جرت اسهل مَمَ توقع البرفسور، ففي الوقت الذي حاولت فيه إغراءك كنت تنظر لي بشفقة وعندما شعرنا أن الخطة ستفشل قام وضاح وطلب منك أن تأخذني وأنت فعلت لكن ليس لتضاجعني بل أخذتني ظناً

منك أنك تحمي مراهقة من براثن ذئاب بيت الحياة، وأخفيتني في غرفةٍ وعندما رأيت كيف تتصرف معي كأبٍ حنون قارنت بينك وبين البرفسور الذي كنتُ أحبه جداً... وكان يطلب مني وهو يضاجعني أن أناديه بابا أيضًا... قارنت بينكما! أنت حنون وتخاف علي أنا الغريبة التي جاءت لتوقعك في براثنها... وهو لئيمٌ ومُستغلٌ لفتاةٍ تحبه ومنحته أغلى ما تملك كفتاةٍ شرقيةٍ تنتظر منه الحنان! هذا الموقف أبكاني جداً... ومع ذلك نفذتُ أنا دوري من الخطة وأنت انفتحت ولم تخفِ عني أي معلومة كنتُ احتاجها وحتى التي لا أحتاجها... كل شي... وكانت الكاميرات تسجل كل كلامك وأخذوا ما يحتاجون من معلومات وإن لم يستطيعوا أن يأخذوا لك فيديو معي لكن مجرد نومنا معًا شكل بالنسبة لهم مع فيديوهاتك الأخرى مكسبًا للضغط عليك إن لم تنفذ مطالبهم... لكنك نفذت ما طلبوه منك دون أي ضغط منهم عليك حتى شعروا أنك أصبحت خطراً عليهم عندها هددوك وأخذوك معهم إلى البحر الميت... حتى متى انتهت خطتهم انسحبوا خلال دقائق لداخل اسرائيل.

أنا: تخيلي معي لو أنكِ في تلك الليلة أخبرتيني بأنني أتعرض للخداع والإبتزاز والمراقبة!

سيرين: كنا مراقبين وبالأخص أنت... كان لديهم ما يكفي لإبتزازي أيضًا وإيصال فيديو سجلوه لي في أمريكا لعائلتي وهذا كان بمثابة حكم

بالإعدام علي... لقد فقدتُ السيطرة على نفسي وعلى قراراتي وعلى حياتي وعلى كل شيء.

أنا: لكنك بالفعل فقدت ما تملكين... لماذا تهتمين لفيديو في أمريكا عنك؟

سيرين: أخوتي لا يعلمون بأمر زوج أمي... أمي وحماتي وطليقي ووالده كانوا يعلمون الأمر وحافظوا على الأمر هكذا ولا أحد غيرهم يعلم بالأمر حتى أخواني.

أسامة: أخبرنا وضاح أنكِ كنتِ حلقة وصل بينه وبين العصابة وأنكِ تحكمتِ بكل شيء وانك المترجمة والوسيط بينه وبين العصابة وانك سهلت كل امورهم في الأردن.

سيرين: لقد نجحوا في ايهام الجميع بأنني من أُدير الأمور وأن وضاح من يدير بيت الحياة وأن تميم متورط بموضوع البحث عن الكنز... وأنهم خيال ووهم... لا شيء ضدهم... لا اثبات أنهم فريق أثري... لا شيء يثبت أنهم كانوا موجودين هنا... حتى أن جوازات سفرهم كانت خيال... دخولهم للأردن خيال... خروجهم كان سهلاً وكأنهم (فص)[1] ملح وذاب... حتى أنهم قدموا أوراقًا حقيقية من الجامعة ثم أصبحت أوراقًا مزورة...! لا شيء يُثبت أنهم كانوا هنا...

(١) جملة شعبية وتشير لكمية قليلة من الملح.

أمجاد: الآن بدأت أفهم بعض الأمور الغريبة.

أسامة: أما قُلتُ لكم أن السر عند سيرين.

أنا: ولماذا لم تهربي؟

سيرين: ولماذا لم تهرب أنت؟ ألم تحن لك فرص كثيرة للهرب؟

أنا: صدقتِ... لكنني كلما تعمقت أكثر مع انجل تورطت أكثر... وغرقت في الرمال المتحركة أكثر.

سيرين: وهذا ما حدث معي أيضـًا... لا تلومني عـمَ فعلت... لقد تعرضت للضرب من نفس السوط مثلي... يفترض بك أن تشعر بوجعي كما أنا شعرتُ بوجعك... أنتَ متورط وأنا متورطة... أما أنتَ فمتزوج! فما الذي جعلك تُحب ثانية؟ وما الذي جعلك تعتزل زوجتك وتُصلي في صومعةٍ مهجورة من الله؟ ما الذي جعلك تدب الحياة في جدرانٍ قاسية مجهولة؟ لماذا قرعت نواقيس الحب في كنائسكَ وتدعو الناس للصلاة؟ هم هجروا المكان فما الذي دعاك لنبش قبورٍ ماتت مع الأيام؟ عليك أن تعرف أنني تعرضتُ للإغتصاب وأنا صغيرة وكان يوهمني بالحب... كبرت وصنعت من نفسي فتاة قاسية بعد أن كنتُ أخاف كل شيء... وسافرت بعيداً للدراسة وتوهمت الحب برجلٍ يكبرني جداً وكان أيضـًا يبيعني الوهم... وهم الحب... والحبُ وجع الأيام... والحبُ بطاقة إقامة للحزن... والحبُ ترنيمة ألم كلما سمعتها تذكرتُ أني وحدي مع

الأيام. نحن معابد مهجورة مجهولة لكننا حين شرّعنا أبوابها دخلها لصوص وأوباش.

أمجاد: لا عليكما أنتما الآن ناجيان من حبٍ كاد أن يقضي عليكما... وأنا ناجية مثلكما... كلنا نجونا من الحب.

أسامة: أنا أكاد لا أفهم هذا التناقض... هذا التشتت... لدينا روايتان... رواية رسمية ورواية شهود... من نصدق الآن؟

سيرين: صدقني أنا... أنا أخبرك الحقيقة.

أمجاد: لكن عندي استفساران... كيف تم اطلاق سراحك فوراً، ومتى آخر مرة شاهدتِ فيها البروفيسور دانيال؟

أنا: ومتى بالتحديد بدأوا يهددون عائلتي ويزرعون في بيتي أجهزة تجسس؟

سيرين: سأجيبكم... لكن ليس هنا... المكان يخنقني.

تركنا الفندق وذهبنا إلى بيت أمجاد.

* مقهور واحد يكفي... لماذا كلنا هكذا؟ *

بعد أن هدأت أعصابنا قليلاً وأكلنا طعام الغذاء تجمعنا حول طاولة عليها القهوة، وأعادت أمجاد طرح اسئلتها على سيرين: سيرين لدينا اسئلة حول الفريق طالما أنه بالفعل فريق أثري فكيف تفسيرين الأجهزة الإلكترونية الدقيقة التي كانت معهم وأجهزة التجسس التي ركبوها في الفنادق التي اقمتم بها وبيت تميم وبيت الحياة ودائرة الآثار والله أعلم أين أيضاً؟

سيرين: انتظري قليلاً... هذ الأمر يحتاج لتفسير كبير وجواب طويل...أولاً وأنا في الجامعة كانوا بالفعل مجموعة من الآثاريين علماء وطلاب وعندما دخلت فيهم أكثر ظهر منهم جانب لم أعرفه قبلاً ولا أحد يعرفه من الطلاب الآخريين ولا حتى الطلاب الأردنيين الذين كانوا معي في نفس الإبتعاث الأكاديمي...

أسامة: اذا لا أحد غيرك متورط معهم من الطلاب.

سيرين: نعم لا أحد غيري.

أمجاد: أكملي...

سيرين: عندما كُنت معهم ظهر أنهم كانوا على تواصل مع أجهزة حكومية سرية أخرى ومنها الموساد والشاباك ناهيك عن CIA وناسا ولا

أعلم... أجهزة أخرى! وبعض الذين كانوا معنا في أمريكا لم يأتوا لعمان وبعضهم أتى لكن كان هناك أشخاص رأيتهم في أمريكا من هؤلاء كنت اشاهدهم مع البرفيسور أحيانًا في عمان وفي البحر الميت.

أسامة: تطور الأمر كثيراً... هل أخبرتِ أحداً غيرنا بهذه الأمور.

سيرين: لم يسألني أحد عن هذه الأمور.

أسامة: فهمت!

أمجاد: وما دور هذه الأجهزة في كل العملية؟

سيرين: لا أعلم تحديداً لم أكن مدعوة دومًا لحضور جلساتهم وأحيانًا كانوا يطلبون مني المغادرة بمجرد اجتماعهم.

أنا: لكنكِ كنتِ تعملي على جهاز تجسس عندما تعرضت للضرب وعرضتم علي صوري وفيديوهاتي وفيديوهات عائلتي.

سيرين: كنتُ مسؤولة عن الترجمة في معظم الوقت وكنتُ اترجم بعض الأوراق للبرفيسور على أحد الحواسيب عندما جلبوك للفندق الأول وعرضوا عليك الصور والفيديوهات وضربوك وقتها... لكن لم يكن لي أي دور في هذه الأجهزة ولا كيف تعمل.

أمجاد: هل كانوا هم من يشغلوها أم فريق آخر؟

سيرين: معظم الوقت هم، ولكن كان يظهر أحياناً أشخاص آخرين يقومون بتدريب وتعليم الفريق على بعض الأجهزة أو عمل تحديث عليها ثم يرحلون... لا نشاهدهم بعدها... كانوا لا يتحدثون الا قليلاً...

أمجاد: متى بالضبط بدأت العملية؟

سيرين: قبل الإيقاع بتميم بفترة وكانوا قبلها يأتون ويذهبون للأردن عبر اسرائيل.

أسامة: كيف أدخلوا هذه الأجهزة المتطورة للبلد؟

سيرين: لا أعلم... أنا كنتُ فقط ازور البرفسور ويعطيني تعليمات محددة للتنفيذ خصوصاً مع وضاح ثم بعد ذلك طلب مني البقاء معه طول الوقت، كنت لا أفارقهم حتى آخر ليلة عندما طلب مني البرفيسور الذهاب إلى عمان وجلب بعض الأمور له، وعندما عُدت للفندق اكتشفت أنهم غادروا ثم بعدها بأيام كان خبر الكنز قد انتشر.

أمجاد: ما كان دورك في موضوع عائلة تميم؟

سيرين: قبل أن أعرف تميم طُلب من وضاح أن يحضر معلومات عنه عبر زميل له لكن المعلومات لم تكن كافية لذلك قرروا أن يرسلوني للقاء تميم في بيت الحياة وتسجيل كل شيء، بعد أن حصلوا على معلومات كافية عنه طلبوا مني تصوير بيت تميم من الخارج صور وفيديو، فذهبت أنا وجيمس وصورناه من الخارج...

أنا: فقط من الخارج! هل زرعتم أجهزة تجسس في البيت؟

سيرين: لا شيء... فقط قمنا بتصوير أطفالك وهم يلعبون في الخارج... لم نتحدث معهم ولم نقترب منهم أو من البيت.

أسامة: لهذا لم نجد أجهزة تجسس في البيت... هذا يؤكد صحة كلام سيرين.

أنا: ماذا بعد؟

سيرين: والصور التي أخذناها والفيديو كان هو ما عرضه البرفيسور عليك يوم ضربوك.

أنا: ألم يُعطيكِ ألعابًا وأموال لتعطيها لزوجتي كهدايا لأولادي؟

سيرين: لا أبداً... لا شيء بالمطلق.

أنا: هل راقبوا هاتف البيت؟

سيرين: لا أعرف ولكن حسب علمي لم يفعلوا أكثر من تخويفك بالصور والفيديوهات التي قمت بتصويرها أنا... كذبوا عليك بموضوع عائلتك حتى لا تتركهم... كان عليهم إخافتك بموضوع عائلتك لأنهم شعروا أنها أقوى وسيلة ضغط عليك.

أنا: اذا كان الأمر صحيحًا... فعائلتي لم يكن معها أي علم بمكان وجودي أو التهديدات التي تعرضتُ لها وهم لم يتعرضوا لتهديد أيضًا... أُصدقها بهذه النقطة لأنها لم تعلم أن بيتي لا يوجد فيها هاتف.

أمجاد: بالفعل لعلهم لم يتعرضوا لتهديد بالمطلق لكنهم أوهموك بهذا الأمر.

سيرين: أعتقد أنهم كانوا يستعجلون اخراج الكنز وكان همهم الخروج من الأردن قبل أن يعترضهم أحد.

أنا: كيف اخرجوا الكنز إن كان كنزاً؟

سيرين: لم يخرجوه هم... دورهم كان وضع علامات فقط لفريق آخر يقوم بعملية الحفر والإخراج.

نظرنا ثلاثتنا لبعضنا بعضاً ونحن نهز رؤسنا: الفريق الآخر!

سيرين: نعم هذا هو المخطط... هم يحددوا المكان بالضبط ويضعوا العلامات الدالة ثم يهربوا الى اسرائيل ويقوم فريق آخر بباقي المهمة... فريق يملك المهارات والمعدات والأدوات والأجهزة لإخراج الكنز.

أمجاد: الآن فهمت... لا بد أن العملية ضخمة جدا ليقوم بها أكثر من فريق! هذا ليس عمل مافيا مكونة من بعض الأشخاص... هذه عملية ضخمة جداً.

أنا: أعتقد أنني ارتحت قليلاً كون العصابة لم تلحق أذى بعائلتي ولم تراقبهم عن كثب... بقي الموضوع عن بهاء إلى أين أخذهم... لا يهمني اذا ما كان هناك أكثر من فريق أو كان الموضوع كنزاً أو جهاز تجسس.

أسامة: يجب أن يهمك لأنه اذا كان كنزاً فهم سرقوا إرثـًا حضاريـًا ووطنيـًا وهرّبوه خارج الأردن، وأنت موظف في جهاز مكلف بالحماية والحفاظ على أرث الوطن.

أنا: أي وطن وأي أرث؟ أتظن أن من ساهم وساعد بهذا الأمر هو بمستواي أو بمستوى سيرين؟ ألم تسأل نفسك من الصادق في هذه المسألة كلها؟ ولماذا خرجت رواية أخرى في الوقت ذاته؟ من كشف الموضوع؟ ومن أخفاه؟ من الذي ألقى القبض على شهود؟ وسهل هروب متهمين؟ وكيف دخل المتهمون وأجهزتهم وبعد أن أنهوا كل أمورهم خرجوا بأجهزتهم وما أخرجوه من الأرض بسهولة دون أن يعترضهم أحد؟ من يملك كل هذه الأيدي الخفية وكيف يملكها؟ من يستطيع الوصول إلينا جميعـًا؟ من الذي أغلق التحقيق كله وخرجتُ أنا بريئـًا وسيرين لم يُحقق معها ووضاح بعدم مسؤولية؟ من الذي أوقف البحث عن عائلتي وعن بهاء واتهم زوجتي بالهرب مع شاذا!... مَن مِن وجهة نظرك فقد وطنيته وباع أرث الوطن؟

أسامة: يجب أن لا تحبطك هذه التجربة، بل ترسخ فيك قيم وطنية... قيم حقيقية مفروغ منها... قيم لا تتزعزع مثل حقيقة كروية الأرض ومسيرها حول الشمس.

أنا: أنا لا يهمني شكل الأرض كرويـًا كان أم مسطحة... تدور حول الشمس أو أن الشمس تدور حولها أم أنهما تتبادلان الأدوار... لا يهمني

الخوف الذي يصيب البشر من خسوف القمر وكسوف الشمس، لا يهمني إتساع الكون أو عمره أو جود حياة ما على كوكبٍ يشبه الأرض على بعد مئات الملايين من السنين الضوئية ... أتعرف لماذا؟ لأنها كلها كما قلت أنت حقيقة قائمة بوجود تميم أو عدمه، بوجود الكنز أو عدمه، بوجود فاسد سرق الوطن أو مجموعة فاسدين... ما يهمني هو ما يمكنني أنا أن أُثر فيه... أنا يا أسامة.

أسامة: حتى لو كان... أنا شخصيًا عندما أجد عائلتك سأبقى أبحث عن الحقيقة هنا.

أنا: الحقيقة!... أي حقيقة؟ وأينها؟ لكن أتعلم شيئًا... هؤلاء الكذبة الذين فسدوا وأفسدوا في هذا الوطن سيأتيهم يومًا وستنكشف فضائعهم وفضائحهم ومنها هذه القضية... لكن للأسف بعد فوات الآوان وبعد أن نكون جميعًا قد خسرنا الكثير، وبعد أن لا نتمكن من استرجاع الحقوق .

أمجاد: لنتأمل خيراً... لكن سيرين عندي سؤال أيضًا... علاء... هل عرفتي عنه شيئًا؟

أنا: بالفعل... أنا استغرب أن أحداً لم يسأل عنه ولم يهتم أحد لغيابه.

أمجاد: التحقيق حول غيابه أيضًا انتهى بسرعة بالغة.

سيرين: رأيته بعض مرات معظمها وتميم موجود ثم شاهدتُ مثلك جثته مطروحه في منطقة صحراوية، لكن لم أعرف من قتله وكيف ومتى... عندما رأيت مقطع الفيديو وهو مقتول أصابني الرعب والخوف، تخيلت أن مصيري سيكون هكذا! لقد بكيت ليلتها طويلاً... لولا الأمل لما كنتُ حيّةً حتى الآن... لولا الخيال الذي كنتُ أتمناه ونظرتي للمستقبل لما كنتُ حيّةً حتى الآن.

أمجاد: الحمد لله على سلامتكِ أنت وتميم من هذه العصابة المجرمة.

أنا: ظننت أننا سنخرج بشيء من سيرين ووضاح ولكن الأمر زاد تعقيداً... لا شيء يُشير لعائلتي.

أسامة: لا بالعكس عرفنا نقطتين مهمتين... أولاً عائلتك لم تتعرض للتهديد المباشر وثانيًا أنهم خرجوا من البيت سالمين غير مراقبين من قبل العصابة.

أنا: تذكرت شيئًا أن جيمس كان يحاول عبر الهاتف مع انجل أن يصل لعائلتي آخر مرة شاهدته فيها وكان معه مسدس يريد قتل بهاء فيه ثم قال لي النادل صديق بهاء أن الفريق غادر الفندق على عجل ما عدا جيمس.

سيرين: نعم جيمس الوحيد الذي بقي في الفندق... نعم أتذكر الآن... لقد قام البرفيسور بإيقاظي من النوم قبيل الفجر وطلب مني الذهاب إلى عمان لجلب أغراضي لنهرب معًا دون أن يحدد الوجهة، وعندما أخبرته أن تأشيرة دخولي للولايات المتحدة الأمريكية منتهية الصلاحية أخبرني أن لا أهتم قط وكان قد جهز حقائبه أيضًاوطلب مني العودة للفندق غداً مساءً وما هي إلا دقائق حتى أخذتُ سيارتي وغادرت نحو عمان أما هو والمجموعة فغادروا بعدي كما أخبروني في الفندق عندما عُدتُ في اليوم التالي اخبروني أنهم غادروا وأن الشرطة كانت هناك فتوقعت أن أمري كُشف فهربت من الفندق فوراً وعُدت مرتعبة إلى عمان.

أمجاد: وأين عائلتكِ من كل هذه الأمور؟ ألم يستغرب أهلك غياباتك الطويلة عن المنزل؟

سيرين: لم يهتم أهلي بغياباتي الطويلة عن البيت بعد انكشاف امري... أصلاً لم نكن يومًا عائلة متماسكة.

أمجاد: أعتقد أننا حصلنا على ما نحتاجه من معلومات... لكن سيرين لأجل أطفال تميم وعودتهم لبيتهم وحضن والدهم إن تذكرت شيئًا أرجوك لا تتواني عن الإتصال بنا.

غادرت سيرين وما زال ثلاثتنا أنا وأسامة وأمجاد نجلس مكاننا والأسئلة تزداد والتعقيد يزيد... القضية كانت فريقًا صغيراً من الآثاريين

يريد دراسة علمية والتنقيب في موقع أثري لتصبح عصابة من المحتالين يبحثون عن الذهب ثم تتطور الأمور إلى مجموعة عالمية من المافيا وعصابات تهريب متورطة مع أجهزة دولية في عملية تجسس وآخرين يقولون أن اسرائيل نزعت جهاز تجسس بناء على طلب من الجيش الأردني... شيء يبعث على الإستغراب... إلى أين ستصل الأمور؟

* لا شيء *

وتهيأ لي أن القشة خشبة وأن سيرين ستقدم لي معلومات عن مكان عائلتي على طبق من ذهب... لكن لا شيء! لا شيء!

حسنًا لا بد أن أعود بنفسي لفندق البحر الميت طالما أن أمجاد وأسامة لا يريان في العودة لفندق البحر الميت فائدة تذكر. سأعود بنفسي... سأسأل مدير الفندق والموظفين واحداً واحداً عن مكان بهاء... عن أي معلومة يعرفونها عنه... أي معلومة قد تفيدني، أقلها أين يقطن... لو أعرف بيته في عمان أو أي مدينة أخرى سأذهب لأطرق الباب وسأطرقه حتى يفتح أحدهم الباب وإن لم يفتح أحدهم سأقوم بتكسيره وسأدخل وأبحث عن أي شيء... لن أترك شيئًا مكانه... سأبحث عن أي خيط يوصلني لمعلومات عن بهاء... لا بد أن هناك شيئًا ما قد يفيدني في بيته... أو غرفته في الفندق أو حتى مجرد بضع أسئلة قد اطرحها على زملائه في العمل.

يقولون أن زملاءك في العمل قد يعرفون عنك أكثر مما يعرفه أهل بيتك... سأجرب هذا الأمر! غداً صباحًا سأستقل سيارة سرفيس لتأخذني للفندق...

جهزت بعض الملابس وبعض الأموال لأبيت ليلة هناك...

كتبتُ على قصاصة ورق رسالة لعائلتي " حبيبتي... أولادي... أنا سأذهب لفندق البحر الميت لأعرف أي شيء عن بهاء... الرجل الذي أخذكم من البيت، إن عدتم ولم تجدوني... إتصلوا معي على رقم الفندق... أنا بخير فقط اشتقت لكم... اتمنى أن تساعدني هذه الزيارة لمعرفة أين أنتم... وأين كنتم اذا قرأتم هذه الرسالة... أحبكم جدا جداً".

قرأت الرسالة مرة أخرى...

حبيبتي... أول مرة أقول لزوجتي كلمة حبيبتي...

أول مرة أكتب لها هكذا... أيعقل أنني بدأت أُحبها؟ أم أنه مجرد الإشتياق؟ أم أنه شعور بالذنب عمّا اقترفته بحقها من إهمال ومهانة وخيانة؟ أمّا من أحببتها ومن بعتهن حبًا في الماخور فقد أوهمونا وأوهمناهم حبًا فمنحناهم قلبًا وبعد حين أرجعوه جريحًا مستهلكًا لا يصلح لشيء.

قررت أن أُبلغ أمجاد وأسامة عن قراري حتى لا يستغربوا ابتعادي وعدم وجودي في البيت... كلاهما تمنى لي الخير وأسامة حاول إقناعي بأن الأمر لا فائدة منه لكن إعتبرها فرصة لي كي أبعد عن أجواء التوتر وأرخي أعصابي...

أخبرتهم أنها زيارة خاطفة لمدة ليلة واحدة ألتقي فيها مدير بهاء وزملاءه فإن خرجت بشيء كان به وإن لم استطع سأعود في اليوم التالي.

وصلت للفندق وحينما دخلت بهو الفندق أصابني التوتر والقلق.. شعرت أن جيمس قد يظهر من خلف أحد الأعمدة وأن البرفيسور وانجل سينقضان علي من الخلف...

بينما كُنتُ أتمم اجراءات التسجيل في الغرفة طلبت من الموظف أن أقابل مدير الفندق، فحضر إلى البهو رجل قدم نفسه على أنه مدير الفندق، وأخبرني أن المدير السابق قدم استقالته وانتقل قبل أسبوع للعمل في فندق خارج الأردن، فأوضحت له أنني كنت أنوي أن أطرح على المدير السابق بعض الاسئلة حول نادلٍ اسمه بهاء

- أنت اذا تميم الذي جرت معه الأحداث عندنا هنا.
- نعم.
- أعتذر عن عدم إمكانية تقديم أي مساعدة لك... أنا جديد هنا...وأريد أن أرحب بك في فندقي مجدداً...
- أشكرك استاذ.
- تمنياتي لكم بطيب الإقامة... لم تكن إقامتك السابقة مريحة على ما أعتقد...ومن دواعي سروري أنك عدت واتمنى أن تكون تجربتك هذه المرة أفضل.
- في الواقع لم آتي للإستمتاع... أنا هنا لغرض محدد.
- لطرح اسئلة على المدير السابق.

- نعم... وعليك استاذ إن أمكن.
- تفضل كيف أخدمك؟
- أُريد أن أطرح عليك وعلى بعض زملاء بهاء اسئلة بخصوص بهاء والعصابة التي كانت هنا إن لم يكن لديكم مانع... أُريد أن أعرف أين بيته وأن افتش اغراضه لعلنا نصل لشيء بخصوصه!
- ألم تنتهِ القضية؟
- نعم انتهت القضية وتم اغلاقها، لكن ما زال الجزء الخاص بي من القضية مفتوحًا... عائلتي لم تظهر بعد.
- إن جئت بحثًا عن بهاء فصدقني لم يعد... وهو الآن يعتبر فاقد وظيفة.
- ماذا عن زملائه؟ هل يعرفون مكانه؟
- يمكنك أن تسأل زملاءه ولا أمانع ذلك.
- هل أحد من الفريق عاد للفندق لاحقًا؟
- لا.
- لماذا لم تحاولوا أن تمنعوهم من الخروج من الفندق؟
- حسب علمي هم دفعوا المطلوب منهم وغادروا بشكل قانوني أما الأخير...
- جيمس

- نعم جيمس... فقد تم دفع ما عليه من قبل السفارة الإسرائيلية لاحقًا.
- وهل تم هذا بعد أن ترك الفندق بفترة؟
- نعم.
- اذا كما توقعت هم يحملون الجنسية الإسرائيلية.
- عن من تتحدث؟ المجموعة كلها؟
- نعم.
- سأتأكد من المعلومة التي في ملفاتنا وسأخبرك بها لاحقًا.
- وبخصوص بهاء... هل يمكنني أن أطرح الاسئلة على موظفي الفندق؟ إنها محاولة لا أكثر... أُريد أن أفتش أغراضه أيضًا.
- سبق أن فعلت الشرطة ذلك أيضًا لكن هي أصلا أغراضًا قليلة ومع ذلك يمكنك أن تطلع عليها في قسم الأمانات فقد تم وضعها هناك لأنه تغيب عن العمل كثيراً فتم الإستغناء عنه وتم وضع مقتنياته البسيطة في الأمانات حتى اذا ما رجع يأخذها وأكاد أشك بعودته.
- أُريد أن أسألك سؤالاً محرجًا قليلاً...
- تفضل.
- هل كان له علاقات خاصة مع أحد زملاءه في العمل؟
- لقد سمعت أنه مثلي الجنس ولكن لا أعتقد ذلك... لقد سمعت أنه كان شابًا ملتزمًا بعمله وملتزمًا باخلاقيات الوظيفة لا بل حصل

على العديد من كُتب الشكر والحمد والثناء من الزبائن ومن زملائه... معظم زملائه صدموا من المعلومة أنه كان مثلي الجنس لقد كان محبوبًا وخفيف الظل و...

- هل كان له أصدقاء؟
- نعم أعتقد ذلك لكن ممكن أن تعرف عن ذلك من خلال زملائه أكثر... معرفتي عنه مبنية على ما سمعته من زملاء الفندق عندما اطلعت على القضية منهم.
- أشكرك.
- اتمنى لك إقامة طيبة واذا ما أردت أي مساعدة أرجوك أن لا تتوانى في طلبها مني أو من زملائي في الفندق، وسأترك ملاحظة عند مديرة العلاقات العامة بمساعدتك في مسعاك.

جلستُ بعد طعام الغذاء في بهو الفندق... كانت هناك لوحةً زيتية كبيرةً جداً موضوعة في إطارٍ خشبي لونه خشبي ضخم جميل جداً... لوحة فنية نصفية لسيدة وكأنها من عصر النهضة... كُتب تحتها " السيدة المتشحة بالبياض".

تُظهر اللوحة صورة لسيدة في مركزِ اللوحة، جالسةٌ في إطارٍ لمقصورة بشكلٍ جانبيّ، وباعتدال على كرسي بلا مسند للظهر، مع صدرها ووجهها ملتفان قليلًا باتجاهِ الناظر.

وكأن الرسام أراد إظهار النصف العلوي من جسم الشخصية فقط، وجعلها تنظر إلى المشاهد مباشرةً بعينين تمتلئان ببريق آخاذ، ويظهر خلف الشخصية منظر طبيعي مكون من جبال وأنهار وأفق ضبابي، وتلبس الشخصية ثوبًا حريريا بلون أبيض لؤلؤي مطوي طيات صغيرة من الأمام، مع أكمام صفراء، خط الرقبة مذهب بخطوط متداخلة مع بعضها ومطرزة، تلبس الشخصية حجابا مطرزاً لونه أبيض شفاف يغطي شعرها الأسود السابل الناعم الذي ينسدل على أكتافها. العينان لهما بريق آخاذ ضيقتان تحدقان بالمشاهد وتتبعانه حتى عند تحركه.

نظرت جليًا في اللوحة... ثم عُدتُ وقرأت الاسم على بطاقة كُتب تحتها " السيدة المتشحة بالبياض".

السيدة المتشحة بالبياض... ألا تشير للسيدة المتشحة بالسواد؟

لم أشاهد هذه اللوحة في المرة الماضية... مر أحد الموظفين سألته عن اللوحة الزيتية وأنني لم أشاهدها مسبقًا، فأخبرني أن سيدة أهدتها للفندق قبل فترةٍ قصيرة...

لا أعرف ما الذي جعلني أشك بأنها هدية من أمجاد للفندق!

اتصلت هاتفيًا مع أمجاد وسألتها عن اللوحة فضحكت وأخبرتني أنها بالفعل هي من أهدى اللوحة للفندق بعد مغادرتها وذلك عندما كُنت في السجن، حيث رجعت للفندق بعد فترة وقامت بإهدائهم هذه اللوحة

التي اشترتها من فنان أردني وسمتها السيدة المتشحة بالبياض احتفالاً بعيد ميلادها الجديد بعيداً عن سجانها، وأنهم حينما علقوها في بهو الفندق غطوها بقماش ابيض جميل للإحتفال بإزاحة الستارة عنها في احتفال مهيب وأنهم في تلك الليلة التي علقوها فيها حضر الحفل الكثير من الضيوف والمدعويين والمقيمين في الفندق وأن طفلة تلبس فستانًا ابيض رائعًا وتغطي رأسها بتاج بلاستيكي مُذهب جميل قامت بإزاحة الستار عن اللوحة فكان منظراً جميلاً.

قررت في تلك الليلة التي علقت فيها اللوحة على جدار الفندق بأنها لن تلبس الأسود مرة أخرى... مطلقًا...

بعدما أغلقت الهاتف مع أمجاد... نظرتُ مطولاً للوحة... كان بريق عيني السيدة في اللوحة وكأنهما عينان حيتان... وكأن السيدة المتشحة بالبياض إنسانة حقيقية دبت في الحياة تنظر لك طوال الوقت... وإبتسامتها الرقيقة تقول لك... ابتسم أنت أيضًا...

يال جمال بريق العينين... في اللوحة.

قالوا قديمًا أن الرؤية تتم عندما يصدر ضوء من العين ويسقط ضوء العين على الأجسام فنراها ولكن العلم نفى هذه الفرضية وأكد أن سقوط أشعة الشمس أو الضوء على الأجسام وانعكاسها عنها يجعلنا نرى الأشياء... لكن هاتين العينين للسيدة المتشحة بالبياض تصدران بريقًا آخاذ... لمعانًا يجعلك تشعر بالحياة...

ما أجمل هذا الفنان الذي استطاع أنْ يُوقد بريقًا حيًا في لوحةٍ صماء...

ونحن المقيدين في هذا الجسد الحي موتى لا بريق في أعيننا وفي حياتنا...

لعل الأمر في كوننا عبيداً لشيء ما...

" من قال عنا أحراراً؟ لسنا بأحرار! نحن مقيدون في هذا الجسد، نحن مقيدون في هذه الأرض، نحن مقيدون خارج جهنم ومطرودون خارج الجنة، نحن مقيدون مع الظل في النهار ومع أرواح الموتى في الليل، نحن مقيدون بعبادات وديانات وطقوس ومعتقدات، نحن مقيدون بالطعام والشراب واللذات والحاجات والرغبات، نحن مقيدون بالولادة والتعليم والزواج والإنجاب، نحن مقيدون حتى في الموت. في الموت نحن مقيدون بأن ينزع ملاك الموت أرواحنا نزعًا فتهيم نحو مكان تكون فيه الأرواح مقيدة وتبقى هناك مقيدة تنتظر شيئًا ما، ويبقى في الأرض جزء يسكن القبور ثم يتحلل إلى حفنة تراب وقليل من العظام"[1].

أما عيني هذه السيدة المتشحة بالبياض فكأنها قصة!

أتعلم عيناكِ أنهما شهيتان...وأن البريق الذي تصدرهما هو البريق الوحيد في حياتي الآن وأنهما الأمل وسط العتمة وأنهما انتظار الصباح... الصباح الذي ما جاء! تأخر كثيراً ذاك الصباح!

---

(١) خوف خلف الأقنعة، ٢٠١٥.

أرغب أن أقول للوحة دعيني أسرق من بريق عينيكِ نوراً اضيء به عتمة قلبي...

أما العينان فكأنهما تقولان... أشياء لا أفهمها، وحيث يتكلم الصمت... صمت جميع المتكلمين... أصبحوا خرساء... أما أنتَ أيها البريق فناطق... وكأن السيدة في اللوحة ناطقة باسم البؤساء!

أيها البريق، قل لهم إننا مللنا... مللنا البحث عنكم وسط أشلاء الوعود والخيانات والكذب والفساد... ما عدنا نثق بالكلمات... ولا بسرد قصصٍ من هنا وهناك... ولا بقصيدةٍ عابرة ولا بقصيدةٍ حزينة على شفاه خادعة...

حتى البريق... هذا البريق... خادعٌ... فلا تقل شيئًا لهم...

لا تقل شيئًا منا لهم.

لا تقل شيئًا.

* أسرار تُكشف... *

من أين أبدأ؟ لا أعلم... قررت أن أبدأ بزملائه في خدمة الطعام والشراب... سألتهم واحداً واحداً معظمهم جدد لا يعرفونه، ومن كانوا يعملون معه أخبروني نفس الكلام... لم يرونه... منصدمين من معرفة أنه مثلي الجنس... فهو بالنسبة لهم مثال الشاب الذي يتحلى بالأخلاق الحميدة والنزاهة وحب العمل ومساعدة الناس... لا يعرفون الكثير عنه خارج العمل أو عن عائلته أو مكان سكنه في عمان... كذلك أخبروني في قسم المطبخ وقسم التدبير المنزلي وقسم العلاقات العامة وقسم الإستقبال وقسم أمن الفندق... لا أحد يعرف أكثر من هذه الامور... إذا هم ليسوا أكثر من زملاء عمل وبالتالي لن يعطيهم سراً من أسراره.

لم يشاهده أحد منذ أن غادر آخر مرة وبعد أن انتهت إجازته ولم يعد للعمل... مُنح فرصة قانونية للعودة للعمل ثم بعد أن انتهت هذه المدة تم الاستغناء عن خدماته... وتم وضع مقتنياته القليلة جداً في الأمانات حتى إذا رجع للفندق يستطيع أن يحصل عليهم.

فتح زميل له الصندوق الذي يحتوي على أغراضه... كانت بضع الملابس، ساعة، كتاب، هاتف متنقل قديم ومغلق.

طلبت الحصول على الهاتف والكتاب فرفض تسليمي إياهم إلا بعلم مدير الفندق... وبدوره مدير الفندق كان متردد في إعطائي إياهم: لا

يمكنني أن أُعطيك إياهم...هي أغراض شخصية وأمانة لدينا ولا يمكن لأحد الحصول عليهم إلا بمعرفة وموافقة صاحب العلاقة.

- هل اطلع عليهم أحد من جهة أمنية؟
- لا
- أي أُناس آخرين... أي شخص طلب الإطلاع عليهم؟
- لا... لا أحد.
- إذا دعني أطلع عليهم وأعدك أنني سوف أعيدهم قريبا.
- لا يمكنني أعتذر منك.
- قد أحصل على معلومات مهمة منهما... أرجوك لا تنسى أنني أبحث عن عائلتي وقد تكون المعلومات الموجودة في الصندوق تحتوي على الخشبة الوحيدة لأنقاذهم وانقاذي.

وضع كفه على فمه وبعد تفكيرٍ لثواني...

- حسنًا يمكنك أن تطلع على محتوياتهما هنا في الفندق وأمام موظف من الفندق ولكن لا يمكنك الخروج بهما خارج الفندق.
- أشكرك جزيل الشكر... لن أنسى جميلك مدى حياتي.

مد يده نحو الهاتف وحاول تشغيل الهاتف المطفئ لكنه لم يعمل

- لا بد أنه فارغ من الشحن!
- نعم يبدو كذلك

- شيء طبيعي أنه في الصندوق منذ مدة... لا يوجد شاحن مع الهاتف فكيف ستحصل منه على معلومات؟
- سأذهب لأشتري شاحن واشحنه وسأطلع على أرقام الهواتف والرسائل ثم أُعيده لكم... أما الكتاب فسأطلع عليه سريعًا إن كان يحتوي على أي ملاحظات... عادة الناس تحتفظ بقصاصات أوراق داخلها فيها معلومات مهمة.
- حسنًا... لكن كل ذلك سوف يتم بوجود موظف الفندق.
- تحت أمرك.

كنتُ أعرف أنني لا يمكن أن اخرج من الفندق تلك الليلة وأن إقامتي ستطول على الأقل ليومٍ آخر...

اتصلت مع أمجاد وأخبرتها عن الهاتف والكتاب، فأخبرتني بأهمية أن أعرف محتوياتهما وأنها قد تأتي لزيارتي هي وأسامة في الفندق غداً لتعرف ما هي المعلومات التي قد نخرج بها من الهاتف والكتاب.

لم يخطر ببال أمجاد أو أسامة أن هناك هاتفًا قديمًا مغلقًا لبهاء في الفندق ولم يطلعهم أحد في الفندق على هذه المعلومة... الكتاب أيضًا.

خرجت من الفندق وبحثت مطولاً عن شاحن للهاتف... كان الأمر صعبًا كون لا أحد يستخدم هذه النوعية من الهواتف المتنقلة الآن... إلى أن وجدتُ واحداً... عُدت للفندق واستلمت الهاتف من أمن الفندق

ووضعته في الشاحن فبدأ بالشحن وارتاحت اساريري... قررت أن أتركه على الشاحن فترة وخلال تلك المدة أخذت الكتاب لأطلع عليه... كان الكتاب رواية مترجمة لأوسكار وايلد عنوانها " صورة دوريان جراي".

نفضت الكتاب عسى أن تقع منه أي ورقة... لكن لا شيء.

واضح أن الكتاب قد قُرِأ جيداً فالورق مطوي في أكثر من موقع وهناك علامات اليدين المتعرقتين والغلاف كان فيه علامات وخطوط الإستعمال...

بدأتُ أُقلب صفحات الرواية... كان هناك الكثير من الخطوط بقلم الرصاص تحت الكثير من العبارات... وملاحظات مثل (جميلة) و (رائعة) و (الله) عند الكثير من الفقرات...لا شيء مثيرٌ للشبهة... أنها أشياء يفعلها كُل قارئ نهم...

استوقفتني عبارات جميلة أخذتني من هدفي وسرحت فيها:

" نحن لم نأتِ إلى هذا العالم لنطلع الآخرين على أحكامنا الأخلاقية، صحيحة كانت أم فاسدة. فأنا لا أكترث لما يقوله الدهماء وأنا لا أتدخل في ما يفعله الخاصة. فإن جذبتني شخصية إنسان ما وجدت ما يستهويني في كل عمل يعمله وفي كل كلمة يقولها، أيا كانا"...

لقد وضع بهاء تحتها خطين وكُتب بقربها كلمة "رائعة... إنها تمثلني"...

تذكرت وقتها كم كُنتُ شديداً عليه في آخر لقاء بيننا وبعدها ذهب إلى عائلتي وأخفاهم في مكانٍ ما بعيد عن أعين العصابة وحماهم من العصابةمعرضًا نفسه للخطر...

في تلك الليلة لم أكتفِ بالهجوم عليه بل خجلت من تواجده معي في ذات الغرفة.

كل من عرفه قال عنه أنه شاب طيب ويتحلى بالأخلاق الحميدة والنزاهة وحب العمل ومساعدة الناس، وهو كان يحاول مساعدتي... وأنا كنتُ قاسيًا وشديداً معه... حكمتُ عليه حُكمًا قاسيا بناء على تصرفاته... حاولت أن أضع نفسي في إطارٍ أخلاقي وأتدخل في ما كان يفعله من ممارسات خاصة، بينما ما كُنتُ أفعله أنا لا يقلُ قُبحًا وخسةً في المنظر الأخلاقي عنه!

عُدتُ إلى الكتاب وقرأتُه كاملاً وركزتُ على الخطوط... وكأنني أحاول الخروج بشيء ما... برسالة ما... لكن لم أجد شيئًا... كل التحليل الذي بنيته عن هذه الرواية وبالأخص عن تلك الجمل والعبارات التي تحتها خط أو خطين وبقربها كتب كلمات قصيرة لم تعطني شيئًا ولو بسيطًا عن هذا الإنسان الغامض!

طويت الكتاب وبينما كنتُ أُعيده إلى الصندوق لفت نظري جملة مكتوبة بقلم حبر أزرق على الغلاف الخلفي للكتاب " يموت الأعزب

ميتة الكلاب، أما المتزوج فيعيش عيشتها"[1] ضحكت طويلاً... يا ترى هل كان يقصدني؟ هل كان يُرسل رسالة ما لي في هذا النص؟ ثم لاحظت أن هناك رقمًا وعبارة بالإنجليزية بالقرب من الجملة! رقمًا غريبًا لا معنى له... **blackgod666** لكن ما السبب الذي دعاه ليكتبه هنا؟ أنه رمز لشيء ما... فما عساه يكون؟

هل ممكن أن يكون كلمة سر لصندوق أمانات؟

سألت رجل الأمن عن وجود صندوق أمانات في الفندق فأخبرني أنه يوجد ولكن كلمة السر فيه مكونة فقط من ٤ خانات يجب أن تكون مكونة من أرقام... اذا ما هو هذا الرمز؟

اكتمل شحن الهاتف بمجرد من انتهيت من الرواية...

قررت أن آخذ الأرقام أولا واسماء أصحابها...

ثم دخلتُ على المكالمات الواردة... أخذتها أيضًا... المكالمات الصادرة أخذتها أيضًا مع التوقيت ومدة المكالمة...

الرسائل... كانت قليلة وبعضها خاص جداً لكن كتبت نصوصها بدقة...ولمن أُرسلت... وتاريخ ارسالها.

كانت عملية مرهقة جداً... احتاجت مني وقتًا طويلاً وكان موظف الأمن يتململ جزعًا... لا ألومه كانت ساعات مرهقة وطويلة من القراءة والتسجيل.

---

(١) مارك توين (كاتب أمريكي ساخر) .

ما أن انتهيت حتى سلمته الهاتف وأخبرته أن بودي أن اترك مع الهاتف الشاحن حتى اذا ما عاد بهاء يستطيع أن يستفيد منه فوافق وأعاد الصندوق لمكانه وأنا عُدتُ لغرفتي.

بعد ساعاتٍ من هذا الأمر وما رافقه من ارهاقٍ شديد قررت أن آخذ غفوة.

مددتُ جسدي على السرير متذكراً كم كنتُ أعاني قبل فترة وجيزة في هذا الفندق وكيف تصارعتُ مع جيمس هنا... جيمس حر وقد يكون على الجانب الآخر من البحر يستمتع أو يُحصي حصته من الذهب إن كان كنزاً، أو يحتفل مع مجموعته ومن خلفهم بسحب جهاز التجسس إن كان جهازاً للتجسس!

سآخذ غفوة...

سأرقد قليلاً... ليس حبًا بالنوم بل عشقًا في النسيان، فالنوم راحة للأشقياء وراحة للشعوب التي يحكمها الطغيان... وراحة لي من شقائي وجنوني وأفكاري الهدامة...

سأرقد قليلاً لأريح قلبي من نبضٍ متسارع يهلكه ومن طغيان العِشق ودكتاتورية الغرام وهما في صراعٍ مع الواقع المر والحقيقة الصادمة.

سأرقد قليلاً في غفوة لبضع دقائق... وليتني ما أخذتها...

استفقت في منتصف الليل مرتعبًا من حلمٍ ما... شعرتُ أن يداً قد امتدت لي تخنقني وأنا نائم... كان الظلام في الغرفة قويًا لدرجة شعرتُ

أنني ميت... أنني في قبرٍ مُحكم... وأن اليد تخنقني بشدة... اليد تزداد قوة وعنفوان وأنا أشعر بمزيد من الإختناق والضعف... واليد تشدُ أكثر وأكثر والظلام الحالك يصبح شديد السواد لا بل أكثر اسوداداً... ودقات قلبي تكاد تتوقف...

إني بالكاد اسمعها...

طرقه ضعيفة...

ليتك يا قلبُ توقفت قبل أن أقع في أهوائي وجنوني ورغباتي

طرقة ضعيفة أخرى...

ليتك يا قلبُ كنت مخلصاُ لزوجة وإن لم تُحبك.. على أن تعشق فتاة صعلوكة استخدمتك ووظفتك كعبدٍ في ماخورها.

طرقة ضعيفة ثالثة...

ليتك يا قلبُ تتسارع في ايجاد الحقيقة ومعرفة الصواب والخطأ وتحكم على الأمورِ برفقة العقل.

طرقة رابعة قوية...

محاولاتك البائسة أيها القلب بِطرقِ جدراني فاشلة " هناك كان... ولذلك لن يجد الحب هنا إلا بقايا إنسان"[1]

طرقة خامسة أقوى...

---

(١) خوف خلف الأقنعة.

أتحاول أن تعيدني للحياة أيها القلبُ المجنون؟

طرقات متكررة قوية...

صحوت...

كُنت مبللاً بعرقي... متوتراً وجسدي كله يرتجف... والطرق يشتدُ على الباب... ولا يتوقف...

قُمتُ نحو الباب وفتحته... كاد ضوء الممر يُعمي عيني... أغمضت عيني لشدة الضوء... لكنني رأيت بطرف عينٍ أسامة على الباب:

- ما بالك يا رجل؟ هل كنت نائمًا؟ لقد أخفتني!
- نعم... نعم... أدخل

أدرت النور... ولكنه قاطعني

- أمجاد في البهو... خذ حمامًا سريعًا وتعال إلى بهو الفندق لندردش قليلاً.
- حسنًا

تركني وذهب... وأنا دخلتُ الحمام وأخذت حمامًا منعشًا ثم قابلتهما في البهو عند اللوحة حيث كانت أمجاد تشرح لأسامة عن اللوحة.

- مرحبا بكما... لم اتوقع أن تأتيا ليلاً للفندق... أما قلتما أنكما ستأتيان غداً؟

- نعم لكن فضلنا أن نأتي الليلة لنستمتع بأجواء الليل في البحر الميت... نحن هنا منذ وقت طويل لكن أبلغنا الإستقبال أنك قضيت وقتًا مرهقًا في الأمانات فتركناك ترتاح إلى أن قررنا أننا نريد أن نتعشى سويًا ونسهر.
- خيراً فعلتما... لنأكل ثم أحدثكم عمَ جرى معي.

بعد العشاء... أخبرتهما عمَ فعلت بالهاتف وعن الكلمة الغريبة.

أمجاد: هل يمكن أن تكون كلمة سر لبريد إلكتروني؟

أسامة: وكيف سنعرف إن لم نكن نملك اسم البريد؟

أنا: أمجاد هل جلبتي معكِ الحاسوب المحمول؟

أمجاد: نعم... معي في الغرفة.

أنا: اجلبيه لنتأكد من هذا الشيء.

أحضرت أمجاد الجهاز... وضعته أمامي... وطلبا مني أن أخبرهما عمَ يدور بخلدي.

أنا: لقد وجدت الكلمة في كتاب اسمه صورة دوريان جراي وهو رواية لكاتب انجليزي اسمه أوسكار وايلد... لعل الاسم هو أوسكار وايلد أو دوريان جراي وكلمة السر هي **blackgod666**.

بدأت أضع الاسم على مواقع البريد الإلكتروني المجانية وأبحث

بعد أن جربنا العديد من المواقع ظهرت اسماء كثيرة لكن كانت كلمة السر لا تنطبق على الاسمين...

جربنا اسم الفندق أيضاً... لم ينفع

اسم بهاء وعائلته... لم ينفع

أسامة: هل جربت موقع الفيسبوك؟

أنا: لا... كيف لم يخطر ببالي؟ نعم

جربنا اسم الفيسبوك... وفتح فوراً

أنه الفيسبوك...

شعرت بأنني محتال لأني فتحت موقع بهاء الشخصي... اخترق خصوصيته... لكن الحاجة للتواصل معه كان ضروري!

نظرنا لآخر منشور كان صورة له قبل أن اتعرف عليه في الفندق وكان هناك عدة تعليقات عليها لكنها كانت كلها قبل الحادثة بأيام...

أسامة: يبدو أنه لم يفتح حسابه منذ ما قبل الحادثة!

أمجاد: لنرى صور أخرى له لعلنا نكتشف مكان معين له... بيت أو مكان يزوره بصورة كثيرة نستطيع أن نذهب إليه.

أسامة: بالضبط.

دخلنا لألبومات الصور وأخذنا ننظر لها واحدة تلوى الآخرى، ولاحظنا أنه يزور هو وأصدقاء له كافيه مميز في عمان... ومطعماً... وله

صورة في غرفة تتكرر كثيراً... لا بد أنها في بيته... معظم الصور تشير إلى أنها أخذت في عمان ثم فجأة صور أخذت في الفندق... صور وهو يعمل... صور وحده... صور مع زملائه...

أسامة: انتبه هنا... دعونا نركز على زملائه...

أخذنا ننظر لكل صورة بتركيزٍ شديد... معظم من كانوا يلبسون اللباس الموحد لم نراهم هنا... بالفعل كما قال المدير الجديد معظم موظفينهم جدد...

كنا نتحدث عن أن نذهب في المرة القادمة للمطعم وللكافيه في عمان وإنه لا بد لنا من معرفة موقع البيت أو الشقة التي رأيناه فيها مع أن الصور لم تعطنا شيئًا عن الموقع... عدنا لصور يظهر فيها في الشارع بجانب سيارته... صور متعددة لكن لم نلحظ أي علامات فارقة في الشارع أو الرصيف أو العمارات تشير للموقع! حتى رأينا في إحدى الصور رقمًا للعمارة... رقم (٦٥) أزرق كبير لكن لا شيء آخر... لا اسم الشارع ولا الحي... لا شيء بالمطلق! كيف سيدلنا هذا الرقم لشيء ما؟

قررنا التركيز الآن فقط على الفندق وإن لم نخرج بشيء هنا... نخرج لعمان والبحث فيها.

تأخر الوقت...وتعبنا... قررنا الذهاب للنوم واستكمال العمل غداً صباحًا...

هما ذهبا كلٌ إلى غرفته للنوم أما أنا فجلستُ على الشاطئ حتى طلع الفجر...

في الصباح الباكر وبينما كنا نتناول الفطور... أشارت لنا أمجاد

أمجاد: أنظرا لذلك الشاب هناك... ذلك النادل... لقد ظهر بأكثر من صورة مع بهاء.

نظرنا لكن لم نكن متأكدين... حاولنا النظر بتركيز أكثر لكن ذاكرتينا أنا وأسامة لم تسعفنا في تذكر الشاب بأي صورة!

أمجاد: أنظرا له جيدا... ألم تعرفاه؟

لم نكن متأكدين...

ذهبت بسرعة وأحضرت الحاسوب المحمول وأخذت تبحث عن صور الشاب مع بهاء... أما الشاب فشعرنا بتوتره وكادت نظراته تفضحه... حتى اختفى فجأة

بعد فترة بدأنا نرى صورة مع بهاء... بالفعل أنه هو مع فوارق بسيطة... فوارق ناتجة عن تغيير التسريحة وأنه يلبس ملابس شبابية بينما هوالآن يلبس ملابس أكثر رزانة ورصانة.

أسامة: ألم تلاحظا أن الشاب توتر وبعدها اختفى...

أنا: نعم.

أسامة: وهل تذكر ماذا قال لك عندما سألته عن بهاء؟

أنا: نعم تذكرت... هو واحد من الموظفين القدماء القلائل الذين بقوا في الفندق ومن كلامه تفاجئ بأن بهاء شاذ ولكنه أخبرني أنه يعتبره شابًا مهذبًا وحسن السيرة، لكنه لم يكن صديقًا له.

أمجاد: مممممم أعتقد أن هناك سراً في الموضوع... هناك صور عديدة له مع بهاء فكيف يقول أنه لا يعرفه جيداً... واضح من هذه الصور أنهما صديقان.

أنا: أنه يكذب... أنه يعرف سره ولذلك كذب.

أسامة: لنتحدث معه.

أمجاد: لكن بعد أن توتر ونحن ننظر إليه اختفى... كيف سيساعدنا؟ قد ينكر

أنا: لنطلب من أحد زملائه أن يناديه... وسنضعه أمام الأمر الواقع.

طلبنا من نادلٍ آخر أن يناديه لنا لكنه عاد بعد دقائق يخبرنا أنه مريض وغادر إلى غرفته وأنه لا يريد أن يزعجه أحد...

زادت شكوكنا حول الشاب... سألنا النادل عن اسم ذلك الشاب فأخبرنا أن اسمه جمال...

ذهب النادل... أما أمجاد فأخذت تنظر لحساب بهاء مجدداً... حتى وجدت تعليقًا من جمال وولجت لحسابه... كانت الكثير من صور بينها صورة الحساب الرئيسية لجمال وبهاء معًا... صور كثيرة في الفندق وفي

كافيهات ومطاعم وبنفس الغرفة إياها وصور أخرى خارج الأردن لهما...

كانت الصور تتوالى وكنا على يقين أنهما ليس فقط زملاء بل أصدقاء لدرجة التشارك بهذا الكم الهائل من الصور... أحيانًا هما فقط وحدهما في الصور.

أنا: لا يمكنني الانتظار لأراه مرة أخرى... يجب أن أعرف الآن مدى صداقتهما... أنه يعرف عن بهاء الكثير وأخفاه عني! ما السبب؟

أسامة: لنذهب لمديره ونخبره بما اكتشفناه

أمجاد: لنذهب.

مشينا بإتجاه الإدارة ونحن نحمل الحاسوب المحمول وما كدنا نصل لبوابة الإدارة حتى قاطعنا النادل الآخر مرة أخرى...

النادل: لا داعي للدخول... جمال لا يريد مشاكل مع الإدارة ولا معكم... طلب مني أن أخبركم أنه سيقابلكم خارج الفندق بعد قليل.

أنا: لماذا؟ هل هناك مشكلة؟

النادل: صدقني لا أعرف... طلب مني أن أخبركم هذا الأمر وهو متوتر جداً وطلب من مدير الطعام والشراب باقي اليوم اجازة ووافق... أخبروني هل هناك أي مشكلة مع جمال؟

أنا: لا أبداً... نريد فقط إعادة طرح الاسئلة عليه... نفس الأسئلة التي طرحناها عليكم جميعًا.

النادل: هو موظف قديم... لكن طلب مني أخباركم أنه سيقابلكم بعد قليل خارج الفندق إن أحببتم... انتظروه في موقف السيارات أمام الفندق وهو سيأتيكم.

خرجنا وانتظرنا بجانب سيارة أمجاد... بعد ربع ساعة شاهدناه يأتي بإتجاهنا وهو متوتر جداً... سلم علينا...

جمال: هل يمكننا الذهاب من هنا؟

أمجاد: أصعدوا للسيارة لنذهب لمطعم قريب من هنا.

صعدنا جميعا ولم نتحدث في السيارة... كانت يدي الشاب ترتجفان خوفًا وتوتراً!!!

زاد الأمر من فضولي ومن استغرابي... كنت اتمنى أن أبدأ بطرح الأسئلة عليه لكن شعرت أنني سأفقده ما تبقى من أعصابه بتوتري الشخصي، فقررت الإنتظار قليلاً لعل أسامة وأمجاد أفضل مني بطرح الأسئلة وأسلوبهما الرقيق والمتمكن أفضل من اسلوبي واندفاعي.

أخيراً وصلنا المطعم... طلبنا قهوة وجلسنا أربعتنا على طاولة دائرية، أما أمجاد وبدون أن تنطق كلمة فتحت حاسوبها المحمول وثم حولت الشاشة بإتجاه جمال... كان حساب جمال على موقع الفيسبوك... كانت قد فتحت صورتهما معًا... كان جمال وجهًا لوجه مع صورته وبهاء على الشاشة... فنظر جمال لأمجاد ثم نظر للأرض وتوتر مجدداً...

أمجاد: اسمك جمال... وأنت موظف خدمة الطعام والشراب في الفندق منذ مدة... لا بد أنك تعرف بهاء جيداً... الصور تخبرنا أنكما أكثر من زميلين.

جمال: أرجوكِ لو عرف والدي بعلاقتي مع بهاء لقتلني... أبي رجل متدين جداً وسيقتلني إن عرف الأمر!

نظرنا ثلاثتنا إلى بعضنا بعضًا... فهمنا الأمر.

أمجاد: علاقتك الخاصة ببهاء ليست سؤالنا ولا نريد أن نقتحم حياتكما الشخصية لكن لماذا كذبت على تميم ولم تخبره بعلاقتكما؟

جمال: هل تريدون مني أن أفضح نفسي؟ لقد أنكرت حتى لا أتعرض للفضيحة أو لموقف مشابه لهذا الموقف.... أرجوكم لا تخبروا أحد وسأتعاون معكم.

أنا: ما ستقوله هنا سيبقى بيننا... كل ما أريد معرفته أين بهاء حتى استدل على مكان عائلتي... غير ذلك ليس من اهتمامي.

جمال: لا بد أن الفندق الآن كله يتحدث عني وسيعرفون أنني وبهاء صديقان حميمان... إن شك الفندق بذلك سيطردونني وأخاف أن يصل الخبر لوالدي... سيقتلني!

أسامة: لن نخبر أحداً أنك صديقًا حميمًا لبهاء وأننا طلبنا مساعدتك في رحلة حول البحر الميت...

جمال: لن يصدقوك...

أنا: والحل؟ لا نريدك متوتراً... نريدك صادقًا معنا الآن وكما أخبرناك لا يهمنا شيء الا موضوع أين بهاء وعائلتي! لا تقحمنا بمواضيع شخصية ولن نقحمك بمشاكل.

جمال: حسنًا سأخبركم كل شيء

أخذ رشفة من القهوة ويده ترتجف...

جمال: أنا وبهاء نعرف بعضنا منذ سنتين عندما بدأنا نعمل هنا... وأصبحنا مع الوقت صديقين حميمين، بعد أن اكشفنا لبعضنا البعض عن ميولنا واهتماماتنا، وكنا نقضي معظم الوقت نعمل معًا واجازاتنا موحدة لكن أحيانًا يأخذ هو اجازة ويقضيها وحده في عمان وأحيانًا أنا أخذها وحدي وأقضيها في عمان ولكن إن أخذنا اجازة مشتركة كنا نذهب لشقتنا في عمان ولا أحد يعرف عنها شيء أو أين تقع...

أنا: أين تقع شقتكما؟

جمال: سأخبرك بعد قليل... في إحدى الأيام وكنت فيها في إجازة وحدي في عمان اتصل معي بهاء وأخبرني أن التقي به بمكان معين في عمان... عندما وصلت للموقع كان معه عائلة... سيدة وثلاثة أطفال أخبرني أنهم عائلة لصديق له وطلب مني أن آخذهم لشقتنا الخاصة... جن جنوني وفقدت أعصابي عليه ورفضت لكن أصر علي أن أسكنهم في الشقة لأن لا مكان لديهم، ووعدني بإخباري كل شيء لاحقًا...

أسكنتهم في شقتنا وكنا نتحادث في اليوم عدة مرات أنا وبهاء وأخبرني أن صديقه تعرض لخطر بالتعاون مع المافيا وأن عائلته التي اسكناها في شقتنا كانت معرضة للخطر أيضًا... أما هو فأخذ السيارة للمفرق وتركها هناك مع صديق له...

كنت أظنه كاذبًا وكنت دائم الصراع معه حول الموضوع وبعد فترة أخذهم من الشقة إلى شقة أخرى استأجرها لمدة واستدان مني بعض الأموال ليصرف عليهم ثم بعد فترة أخرجهم من الشقة وأنزلهم في هذا الفندق.

أنا: هذا الفندق!!!

جمال: نعم فندقنا... الفندق الذي تنزلون به الآن.

صدمنا جميعًا... وصرخنا ثلاثتنا معًا...الفندق!!!

جفل جمال... وقال نعم

أمجاد: لقد عُدت للفندق مرتين... مرتين عدتُ للفندق لنصب اللوحة وللتحقيق مع مدير الفندق السابق ولكن لم أفكر مطلقًا أن بهاء قد يسكنهم في الفندق.

جمال: لم ينزلهم في الفندق بوجود المدير السابق لكنهم كانوا موجودين في الفندق أثناء نصب اللوحة...

أسامة: غريب لماذا انزلهم في الفندق؟

جمال: اخبرني أنه أفضل مكان للتستر عليهم.

أسامة: أنه بالفعل ذكي... يستحيل للعصابة أن تعاود النزول بهذا الفندق.

أنا: وأين هم الآن؟

جمال: لقد تصارعت مع بهاء بسبب العائلة لأنه كان يعطيهم جل اهتمامه ووصل الأمر بنا إلى القطيعة... لقد هددته... قلت له إما أنا أو العائلة... فقال لي أن أخلاقياته لا تسمح له بتركهم هكذا وأخبرني أنه سيذهب بهم إلى مكان آمن للمرة الآخيرة لأن القضية انتهت حسب قوله وأنه عندما يتأكد أن الوالد ليس مراقبـًا فأنه سيعيدهم إلى البيت ويعود لي...

أنا: ثم؟

جمال: قلت له أغرب عن وجهي! لا أريدك في حياتي... إما أنا أو هم...

فكرر لي كلامه أنه لن يتخلى عن العائلة... وأنني سأتفهم موقفه لاحقـًا وخرج بهم من الفندق إلى مكان لا أعرفه و...

أنا: هل معك رقم هاتفه؟

جمال: نعم... هذا هاتفي يمكنك الإتصال به...

أخذت الهاتف منه... وأجريت الإتصال... الهاتف مغلق.

كانت ساعدتي غامرة... لا تسعني الأرض كلها... وكذلك أمجاد وأسامة... أخيراً توصلنا لبهاء... مجرد مكالمة واحدة ونستطيع الوصول إليه وثم لعائلتي.

كانت أمجاد تطلق ضحكات سعيدة وتصفق بيديها...

كان أسامة يبتسم ويتحدث مع جمال أما جمال فقد أظهر ارتياحاً خلال دردشته مع أسامة الذي كان يكيل المديح لبهاء ولجمال على مساعدتهما لنا...

وأنا كنت استخدم هاتف جمال كل دقيقة لأتصل مع بهاء... ولكن الهاتف مغلق...

كُنت أنظر لثلاثتهم وأنا أشاهد فرحتهم بما انجزنا... ثلاثتهم سعداء لسعادتي...

ما أجمل أن تجد انساناً غريباً عنك... يساعدك... يفرح لفرحك... يحزن لحزنك! ليس لسبب... ليس بهدف مادي أو احتياج منك... أو طلبٍ أو رغبة... لا شيء... لا شيء بالمطلق!

هل يوجد بشر طيبون هكذا؟

أم أن طبيعتي اللئيمة والجاحدة والمتذمرة دوماً سقطت أمام هذا الكم الهائل من التصرفات والسلوكيات الإنسانية من غرباء عني اتجاهي واتجاه عائلتي؟

نعـم... هنـاك في الحيـاة أُنـاس سـاروا معـي بطريـقٍ أو بـأخرى وساعدوني...

تكررت محاولاتي الإتصال على هاتف بهاء... والجواب " الهـاتف المتنقل المطلوب مغلق حاليـًا"

بعد عدة محاولات بدأ شعور السعادة يخفت... ثم تحـول إلـى تـوتر وإحباط... لاحظ ثلاثتهم هذا الأمر...

أنا: متى آخر مكالمة أجريتها مع بهاء؟

جمال: هو أجراها معي قبل أيام بسيطة... محاولاً أن يمتص غضبي.

أنا: هل من عادته إغلاق هاتفه المتنقل في هذه الساعة من النهار؟

جمال: مطلقـًا... كان يتركه مفتوحـًا حتى وهو نائم لكن كـان يغلقـه فقط أثناء العمل، بناء على أوامر الإدارة!

أنا: اذا لماذا هاتفه مغلق الآن؟ أيعقل أنه في وظيفة أخرى؟

جمال: لم يخبرني أنه يعمل! لا بل استدان مني مبلغـًا كبيراً من المـال لكي يوفر احتياجاته واحتياجات عائلتك.

أنا: لماذا يبقي هواتفه مغلقة؟

جمال: هواتفه! لم يملك إلا هاتفـًا واحداً فقط.

نظرنا أنا وأسامة وأمجاد لبعضـنا البعض ولـم نحـاول أن نعلـق علـى جملة جمال أو نحيطـه علمـًا بمـا وجـدنا في صـندوق الأمانـات الخـاص بصديقه الحميم.

بدأت أحزن على بهاء وما آلت إليه الآمور معه منذ دخل في خضم حياتي... ومشكلتي... وعائلتي...

ألهذه الدرجة أجلب التعاسة لمن يقترب مني؟ أجلب له النحس والفأل السيء والمشاكل!

بعد عدة محاولات أخرى مني للإتصال مع بهاء... قررنا أن نعود للفندق أنا وأسامة وأمجاد وحدنا وجمال وحده حتى لا نثير الشكوك حوله... سجلت رقم بهاء معي حتى أحاول الإتصال معه لاحقًا... وغادرنا.

طيلة الوقت كُنت أجر الإتصال من هاتفي ولا شيء!

أمجاد تتصل ولا شيء!

أسامة يتصل ولا شيء!

" الهاتف المتنقل المطلوب مغلق حاليًا"

في تلك الليلة تقاسمنا قائمة الارقام التي حصلت عليها من هاتف بهاء القديم وبدأ كلٌ منا يجري اتصالاته مع القائمة التي كانت بين يديه...

كنا ثلاثتنا نجلس حول طاولة دائرية في مكان بعيد من المطعم في الفندق وأمام كل واحد منا قائمته من الأرقام وأوراق وأقلام لنحصر المعلومات والبيانات التي كنا نحصل عليها... كلٌ منا كان مشغولٌ

بقائمته وتسجيل ملاحظاته... ساعاتٍ من المكالمات الفاشلة والمحاولات المتكررة للضرب على هواتف لا يجيب أصحابها أو تفصل بعد عدة رنات أو مغلقة أو أن أصحابها لا يعرفون شخصاً اسمه بهاء أو ان الرقم مسجل عندهم باسم وهمي تعرفوا عليه لهدفٍ ما وانتهى... كثيرون منهم أغلقوا الخط بوجوهنا... والكثير من الارقام مفصولة... وبين كل مكالمة ومكالمة كان أحدنا يحاول أن يجري إتصالاً مع بهاء... لكن هاتفه ما زال مغلقاً.

معظم من اتصلنا بهم إما لا يعرفون شيئاً أو رفضوا اعطاءنا معلومات أو أين يمكن أن يكون بهاء، بعضهم حتى رفض الحديث معنا حينما عرّفنا عن أنفسنا...

تبين لنا أن الهاتف المتنقل القديم والذي كان يستخدمه بهاء، والذي نقلتُ عنه كل تلك الأرقام التي كنا نجري إتصالات معها كان خاصاً بأهوائه وليس هاتفاً للعموم.

ساعات طويلة ومرهقة من لا شيء... النتيجة نفسها تتكرر... صفر!

قررنا تلك الليلة أننا سنذهب إلى عمان صباحاً لعلنا هناك أقرب إلى بهاء والعائلة... أخذنا عنوان الشقة من جمال ومفتاحاً لها... قررنا أننا سنذهب للشقة فوراً... وأخذ جمال منا أرقام هواتفنا ووعدنا بالإتصال بنا اذا ما سمع خبراً عن بهاء أو اتصل معه.

مع ذلك كان اليأس قد دب في داخلي بأن كل النتائج التي توصلنا إليها قد تكون نتائج خادعة وأنها لا تفيد حقاً...

نحن متأخرون...

دائما يسبقنا بخطوات ونحن نسير ببطء نحوه... وما نكاد نصل لخيط حتى نكتشف أن نهايته مقطوعة... والنتيجة صفر... لا شيء.

شعرتُ بحاجة للبكاء...

جلستُ على سريري أبكي وحيداً في الليل... وهاتفي بيدي يجري اتصالاً وراء آخر على رقم بهاء... وما زالت نفس الرسالة... " الهاتف المتنقل المطلوب مغلق حالياً".

إلى متى تبقي هاتفك مغلقاً؟

دب اليأس في داخلي بأن لا لقاء لي معهم على الأرض، وأن لقاءنا لن يكون إلا على نجمة ما في السماء أو على ظهر غيمة نمتطيها معاً بعد الموت!

نمتُ تلك الليلة الآخيرة لي في الفندق... وحيداً باكياً حزيناً تعيساً بلا أمل.

* خطوة واحدة تكفي *

في الصباح الباكر اتجهنا لعمان... إلى العنوان الذي أعطانا إياه جمال!

نعم رقم العمارة نفسها...

إنها شقق صغيرة يقطنها طلاب إحدى الجامعات القريبة... طرقنا باب الشقة ولم يأتينا جواب... فتحنا الشقة بالمفتاح الذي اعطانا إياه جمال... وجدناها فارغة وأصابنا الإحباط.

بدأنا بتفتيش الشقة عسانا نجد شيئًا... تركتهما يفتشان الشقة وقررت أن اسأل الجيران عن سكان هذه الشقة.

معظمهم أخبرونا أن الشقة فارغة معظم الوقت وأنه أحيانًا يأتي شاب وحده ليسكنها أو شابان ولكن مؤخراً سكنت فيها عائلة لبضع أيام... عائلة مكونة من سيدة وثلاثة أطفال فقط، وكان الأطفال مزعجين فجاء صاحب العمارة والحارس وطلبوا منهم المغادرة وهدد صاحب العمارة المستأجر الذي يقطن هنا عندما حضر بأن هذه الشقق طلابية وعلى ضيوفه المغادرة وعدم استضافة أحد هنا...

عندما سألناهم: أين ذهبوا؟... لم يجبنا أحد

متى رحلوا؟... "قبل فترة"...

وهـل تعرضـوا لأي مضـايقة خـلال وجـودهم مـن أشـخاص غيـر صاحب العمارة... أخبرونا أنهم لم يروا غرباء غيرهم... وأن المستأجر هادئ عادة ولا يشعرون به.

لم أستفيد كثيراً سوى أن عـائلتي كانـت في هـذه الشـقة وأنهـم بخيـر ورحلوا عنها وهم بخير

وأنهم في الفندق كانوا بخير ورحلوا عنه وهم بخير.. اذا بهاء يحسـن معاملتهم ويحاول اخفاءهم وحمايتهم بشكل جيد...

لكن بهاء ما زال لا يعلم أن العصابة رحلت عـن الأردن وأنني بخيـر وأنني عُدتُ للبيت... لو تصله معلومة واحدة فقط عـن أن الأمـور عـادت إلى طبيعتها لعله يُعيد عائلتي للبيت... لكن كيف وهاتفـه مغلـق وعلاقتـه مع العالم الخارجي تقريبـًا منعدمة!

لو يتابع أخبـار كنـز هرقـل لعلـم أن الموضـوع انتهـى وأُغلـق... وأن محكمة أمن الدولة حكمت ببراءة متهمين وعدم مسؤولية آخـرين وعـدم اختصاصها بقضايا أخرى مرتبطة بالقضـية الرئيسـية... لكـن المؤكـد أنـه يُبعدهم عن كل الأخبار... عن كل المعلومات وأنه شخصيـًا بعيد أيضـًا عن كل الأخبار والمعلومات وأنه دائم التنقل بهم.

عُدتُ للشقة وكان أمجاد وأسامة جالسين ينتظران عودتي...

أمجاد: لم يعد أحد للبيت منذ فترة... لا شيء يُشـير إلـى أن أحـدهم كان هنا منذ مدة.

أسامة: لكن اكتشفنا شيء بسيط

أنا: ما هو؟

مدت أمجاد يدها وسلمتني مسدس بلاستيكي للأطفال وجدنه تحت السرير... أنه مسدس لطفلي الصغير... ما أن شاهدته حتى بدأتُ بالبكاء...

أجلساني على السرير وجلسا على يميني وعلى يساري... كلُ منهما وضع يداً على كتفي...

أمجاد: لا تبكي... نحن نعلم أنهم بخير وهذا أهم شيء...

أسامة: تفاءل يا رجل نحن على بُعد خطوة واحدة منهم... فقط خطوة واحدة.

أمجاد: بالفعل.

أسامة: أنا متفاءل جداً... قد نجدهم الليلة أو غداً أو بعد غد أقصى تقدير.

أمجاد: يكفيك بكاء... هششششش.

بعد أن هدأت أخبرتهم بالمعلومات التي أخبرني بها المستأجرين في العمارة عن بهاء والعائلة... قررنا معاودة سؤالهم عن رقم لبهاء... وإن كان لديهم فكرة عن سيارة يستقلها؟ نوعها... رقمها... موديلها؟

لا شيء... كالعادة لا يعرفون عنه الكثير.

تركتُ رقمي مع من تعاون منهم معي لعلهم يرونه هنا أو حتى خارجًا فيخبرونه عني... رجوتهم أن يساعدوني بأي شيء وسأكون ممنونًا لهم إن أخبروني عن أي حركة تحدث في الشقة لاحقًا... أي شيء.

قبل أن نخرج من الشقة كتبت على ورقة:

" عزيزي بهاء،،،

أنا تميم... لقد حاولت أنا وأصدقائي أمجاد وأسامة التواصل معك عبر هاتفك وكان مغلقًا وعلمنا أنك كنت تأوي عائلتي في هذه الشقة وأيضًا في الفندق وأماكن أخرى وأنك تحرسهم وتحميهم بكل ما أوتيت من قوة أشكرك عليها... أنا بخير وعدتُ لبيتي وعملي وحكمت المحكمة ببراءتي والعصابة فرت بما وجدته في تلك الحفرة ولم تعد تمثل خطراً علي وعلى عائلتي... أرجوك كف عن التنقل فكلما وجدنا خيطًا يدلنا عليك وصلناك متأخرين، وكلما ركضنا بإتجاهك شعرنا ببطء وكلما تلمسنا مكانًا كنت فيه وجدناه بارد وكلما أنصتنا لهمسات ونبضات قلب أولادي في المكان وجدنا لك أثراً أو لهم أثراً... اشتقت لأولادي جداً جداً ولا يمكنني الصبر أكثر... أرجوك أريدهم أن يعودوا للبيت... والبيت الآن آمن وأنا عُدت إليه منذ مدة... أرجوك إن عدت للشقة هنا أن تعيد لي عائلتي الآن... أرجوك... أرجوك... أرجوك... كف عن الهرب وأعد لي عائلتي

تميم"

غادرنا وقررنا التوجه نحو بيتي... منذ الصباح وهواتفنا نحن الثلاثة لم تكف عن محاولات الإتصال على رقم بهاء... ولا شيء.

كانت الرسالة التي تركتها في البيت في مكانها... لم يعودوا للبيت!

اتصلت مع جمال وأعلمني بنفس النتيجة!!! لم يجرِ معه بهاء أي اتصال.

تناولنا طعام الغذاء معًا ونحن نُقيم الموقف... أصرا على أننا أقرب من أي وقت مضى من عائلتي أما أنا فكنتُ متشائمًا أشعر أنهم يبتعدون أكثر... وأكثر.

ابلغني أسامة أنه سيتركني لباقي اليوم لأستريح وأنه غداً سيمرر رقم بهاء لصديق له في شركة الإتصالات ليعرف آخر المكالمات الصادرة والواردة للرقم ومن أي مكان تمت... أخبرني أنه سيجعل صديقه في هذه الشركة يتتبع الرقم بمجرد أن يُشغل الهاتف وأن هذا الأمر قد يدلنا على مكان بهاء عبر نظام المواقع الجغرافي وبالتالي الوصول إليه فوراً عبر شيء ما يسميه خوارزمية... أخبرني أن اتفاءل فالحلول قريبة جداً.

وذهب...

أمجاد قررت أيضًا أن تتركني لترتاح هي أيضًا وأنها ستعود غداً للإطمئنان علي.

جلستُ وحيداً مقابل نافذة البيت التي تطل على الشارع... أنظرُ لبعيد...

الهدوء...

كأن العالم كله توقف عن الحركة... والصمت الأبلغ عن الحديث!

الصمت في كل مكان...

إنه يُحاصرني من كل جهة...

ولا مفر...لا مفر...

لا أُريد النطق ولا الكلام

فالصمتُ أبلغُ فلسفةٍ من الحديث

وعادةً في الصمت يظهرُ جاحظ العينين ليقول لي شيئًا، لكنه لم يظهر منذ مدة! هو الآخر صامتٌ لا يتحدث، لا بد أنه غاضبٌ أو حزين كوني كشفت سره لأصدقائي وكنتُ قد عاهدتُ نفسي وأنا طفل أن لا أخبر أحداً عنه... خصوصًا بعد بكاء أمي عندما أخبرها الطبيب أنني مجنون! هل يعقل أنه غضب مني وقرر الصمت؟ هل يعقل أنه حزين؟ أم أنه قرر هو الآخر الرحيل عني وترك كل شيء خلفه وما عاد يبالي بي؟

نعم كان يتركني طويلاً... ولكن كُنت أشعر به في داخلي! الآن لا شيء... لا شيء.

آهٍ... أشعرُ بفراغٍ شديد...

أمشي في طرقٍ كثيرة وعديدة ولا أصل لنتيجة... لا شيء... لا شيء.

حتى أقرب الناس لي... أمجاد... أسامة...!!! ليسا معي الآن... لا شيء... لا شيء.

"محظوظ إن كان لديك صديق، مهما أخطأت يتفهمك ويعلم أن داخلك جميل"[1]

لكن إلى متى؟ لقد شعروا بالتعب... بدأت أشعر بضجرهم وتعبهم ويأسهم وأن جميع الخطوط مغلقة... لقد جاملوني وساعدوني ووضعوا جل وقتهم معي منذ فترة... لا بل كل هذا دون أن يأخذوا قرشًا مني... بل هم صرفوا من جيوبهم على قضية بدأوا يشعرون أن لا أمل فيها! ومع أنهما يحاولان أن يجعلاني متفائلاً لكن شعوري أنهما ما عادا يستطيعان الإستمرار... لديهما حياتهما الخاصة... أعمالهما... عائلتهما... أصدقاؤهما...

لقد ساعداني كثيراً... بذلا جهداً عظيمًا معي... ولا شيء... النتيجة صفر... لا شيء.

ألن أنتهي من هذا كله؟ ألن أشعر ببعض الأمل؟

حتى جاحظ العينين يأس مني وما عاد يظهر! لا أشعر به مطلقًا! أهو من هجرني أم أنا من طردته؟ أهو يأس من مجنونٍ مثلي فهرب وأطلق

(١) أنطون تشيخوف (كاتب وطبيب روسي).

ساقيه للريح؟ أم أنني أنا من تركته في منتصف طريقٍ ووعدته بأن آتي لآخذه لاحقًا وكذبت... كُنتُ أريده هناك وقررت أن لا أعود إليه... تركته وهربت منه... وهو ما عاد يستدل الطريق لي... هو وحده الآن... وأنا وحدي الآن!

أشعر بالوحدة بعده... " نعم أشعر بالخوف... الخوف من التحول إلى شخصٍ يُشبه الآخرين"[1] بلا جاحظ العينين! كيف الحياة بلا جاحظ العينين؟

هل أدعوه للعودة أن كان هو من رحل عني؟ أم أعود أنا إلى ذلك المكان حيثُ تركتهُ وحيداً! وهل العودةُ آمنه؟ وهل نستطيع العودة للماضي؟ جميع الناس تريد مركباتٍ تأخذهم للمستقبل، إلا أنا أُريدُ سفينة تأخذني إلى الماضي... " أيها الماضي! لا تغيِّرنا كلما ابتعدنا عنك !أيها المستقبل! لا تسألنا: من أنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضًا لا نعرف... أيها الحاضر! تحمَّلنا قليلاً... فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل!"[2]

أُريد طريقًا نحو الماضي... لأصلح الطرق التي كانت تمتلئ بالحفر، وأُعبد الطرق وأجعلها سهلاً... أريد طريقًا نحو الماضي لأسقط قلاعًا بنيتها حول ذاتي وأبني جسوراً نحو من اختلفت معهم... أُريد طريقًا نحو الماضي لأحارب أكثر عندما استسلمت مبكراً، وأرفع رايات بيضاء في معارك أطلتُ القتال فيها بلا جدوى... بلا جدوى...

---

(١) بوكوفسكي.

(٢) محمود درويش.

أريد طريقًا نحو الماضي، لأرى بمرآتي ما حجبته عيناي عني... وأن أكف عن النظر بمرآة غيري!

أُريد طريقًا نحو الماضي لأعتذر عن كل سقوط سقطته، وأنهض مجدداً، وأكفكف دموعي، وانفض الغبار عن قدماي وأمشي...

أُريد طريقًا نحو الماضي لأرسم ابتسامة على وجه أبي الذي رحل مبكراً دون أن يعلم أنني مشتاقٌ له، ولأمسح دمعة على وجه أمي التي رحلت متوجعه دون أن استطيع حمل ثقلٍ أرهقها سنين طويلة، ولأضم زوجةٍ خنتها مئات المرات فكراً وقولاً وفعلاً، ولأمسح على رأس أطفالي حنانًا وحبًا وأُشعرهم بالآمان والحب الكبير غير المشروط، الحب الكبير الذي يعلمهم أن الحياة جميلة وأن الحب الحقيقي هو حب الوطن وعشق الإنسان الذي أو التي سيعيشون معه للعمر... حب الآخر... حب الطبيعة والبيئة... حب الدراسة وحب العمل... حب الأصدقاء... والأهم حب أنفسهم.

أُريد طريقًا نحو الماضي... لأبدل ما حدث... وأعود للحاضر مختلفًا لكن كيف؟

كيف؟

كيف؟

* اذا كانت الطرق جميعها مغلقة، فعليك بتعبيد طريق خاص بك *

وأتى يومٌ جديد... ذهبتُ للعمل... وعدتُ مساءً

طيلة اليوم أحاول أن أتصل ببهاء... وما زال هاتفه المتنقل مغلقًا!

لم أحاول أن اتصل مع أمجاد أو أسامة حتى أترك لهما مجالاً للإبتعاد عن اليأس والإحباط الذي يلف القضية، لديهما عائلتيهما وكلاهما تفرغا للعمل معي فترة طويلة.

هما أيضًا لم يتصلا معي... لقد تعبا أيضًا

مر الليل أيضًا ولا شيء... لم أفلح بالإتصال مع بهاء

بعد منتصف الليل بقليل فتحت مرة أخرى حساب بهاء على موقع الفيسبوك... كتبتُ على حسابه:" أنا تميم... صديق بهاء حصلت على حسابه وكلمة السر بطريقة اضطرارية وليس سرقة، أرجو من أي شخص لديه معلومات عن مكان بهاء الإتصال على رقمي للضرورة"

وتركت رقمي تحت المنشور.

بدأت الردود على المنشور... معظمها تستهجن طريقة وصولي لحساب بهاء والسيطرة عليه، بعضهم طالبني شخصيًا بأن أكشف عن شخصيتي الحقيقية، وأن أخبرهم أنا عن موقع بهاء وأنهم يستغربون اختفاءه عنهم منذ مدة واختفاءه عن حسابه أو عدم رده على اتصالاتهم الهاتفية.

اذا هناك محاولات سابقة بالإتصال به من قبل معارفه ولم يكن يرد عليهم!

رن هاتفي بينما كُنت أُطالع الردود... لم يظهر الرقم! الرقم محجوب

- سيد تميم؟
- نعم.
- أنا أحد أصدقاء بهاء وقرأت منشورك قبل قليل... سأطلعك على سر بهاء.
- من أنت؟
- لا يهم من أنا... لم أتصل معك من رقم مجهول حتى تسألني من أنا... أنا لا أحد.
- حسنًا... وما هو سر بهاء الذي ترغب بإطلاعي عليه؟
- بهاء شخص مضطرب عقليًا أنصحك بعدم التواصل معه!
- ومن أين لك هذه المعلومة؟
- أنا أعرفه جيداً... أعرفه أكثر من أي مخلوق آخر في الحياة.
- واذا كنت تعرفه هذه المعرفة أليس من الأجدر بك أن تمدحه أمام غريبٍ مثلي؟ كيف تشتم صديقك وتقول عنه مضطرب عقليًا؟

أعتقد أنك أنت المضطرب لتخفي شخصيتك عني وتتهم شخص غائب تهمة ليست فيه.

- أنت تعرفه جيداً؟
- ليس جيداً ولكن أعرف أنه انسان طيب لا بل كل من سألتهُ عنه كانت النتيجة واحدة هو انسان طيب وذو أخلاق وكريم و...
- إنتظر لحظة... قلت أنه ذو أخلاق؟
- نعم
- ألا تعلم أنه شاذ جنسيًا؟ يبدو أنك لا تعرف أنه شاذ!
- وما علاقة هذا الأمر بي؟ هذا أمر يخصه... ليس كل من يدخل الجوامع والكنائس طيبون وليس كل من يمارس الجنس سويًا أو مثليًا سيئون... كلنا نحمل نوايا طيبة في قلوبنا وأيضًا نحمل الكثير من الأفكار السيئة... في أوقاتٍ تظهر طيبتنا وفي أوقاتٍ أخرى تظهر الجوانب السيئة فينا.
- أصبحت تدافع عن المثليين الآن؟
- أنا لا أدافع عنهم... أنا كنت أكرههم وبشدة، لكن بعد معرفتي ببهاء تأكد لي أنهم مثلنا... لا يختلفون عنا بشيء إلا أنهم يميلون لنفس الجنس... ثم ما أدراك عن أنني أحبهم؟
- أقصد الأسوياء لا يدافعون عن المثليين! إلا اذا...

- لا لستُ شاذاً جنسيـًا... أو بالأخرى مثلي.
- كيف التقيت معه؟ هل كان موعداً؟
- لا... ليس موعـداً...كان بالصـدفة وهـو أراد مسـاعدتي عنـدما شـعر أنني في مشكلة.
- أخبرتني أنه لقاء بالصدفة.
- "لا يوجد لقاءات عبثية في الحياة، كل انسان تصادفه هو إما اختبار أو عقوبة أو هدية من السماء"[1]
- وماذا كان بهاء بالنسبة لك؟ عقوبة؟
- بل هدية من السماء.
- بل هو عقوبة... إنه شاذ!
- احتفظ برأيك لنفسك... لا يهمني رأيك... الآن هل تريد أن تخبـرني أشياء مهمة عن بهاء أو رقم هاتف آخر لـه أو مكانـه أم تريـد فقـط أن تشتمه وتحاول إقناعي بأنه شخص سيء؟
- سأخبرك كل هذا إن أخبرتني لماذا تبحث عنه؟
- أنت تطرح سؤال بسؤال؟
- صدقني إن أجبتني عن كل سـؤال اطرحـه عليـك سـتقترب مـن بهـاء خطوة.

---

(١) أجهل القائل.

- حسنًا سأجاريك في هذه اللعبة لأعلم إلى أين قد توصلني هذه المحادثة.
- أنت قلت قبل قليل أنه لا توجد لقاءات عبثية... مكالمتنا الآن ليست عبثية... ستعلم ذلك طالما أنك ستجيب على اسئلتي.
- سأجيب عن سؤالك فتجيب عن سؤالي... اتفقنا؟
- اتفقنا... سؤالي: لماذا تبحث عن بهاء؟
- لأن عائلتي معه... الآن سؤالي: هل معك رقم هاتف بهاء؟
- نعم... أنه (.....)
- هذا الرقم معي وهو يعود لهاتف مغلق أُريد هاتفًا مفتوحًا لأتواصل معه...
- لا أملك إلا هذا الرقم.
- اذا أنت تعبث معي... لا تعرف أين هو بهاء وتريد أن تتسلى وأنا لا أُريد أن اشغل خطي بمكالمة تافهة

أغلقت الهاتف في وجه الشاب وقد أثار عصبيتي جداً...

بعض من الثواني وعاد الإتصال من قبل رقم محجوب... فتحت الخط مهاجمًا إياه

- أنت لا تخجل... كف عن العبث بأعصابي.

- أرجوك تحملني... أنا أعرف بهاء أكثر منكم جميعـًا وإن أفدتني سأفيدك... وإن أعطيتني معلومات سأعطيك معلومات أكثر...
- وما الذي يجعلني اثق بك؟ قد تكون من الأعداء الذين أخشاهم أنا ويخشاهم بهاء...
- ولماذا حكمت علي بهذه الصفة؟ أنا صديق لبهاء وصديق صديقي هو صديقي أيضـًا.
- صديقك وتشتمه! قبل قليل قلت أنه مضطرب عقليـًا
- كُنت أُريد أن أعرف نظرتك له.
- ماذا تريد مني؟ أنا لا أملك وقتـًا لدردشة لن توصلني لشيء.
- حسنـًا...حسنـًا... سنعود لطرح الأسئلة وصدقني لن تندم أبداً...
- سأمنحك دقيقة واحدة وإن عدت لطرح الأسئلة الغبية المستفزة سأغلق الخط بوجهك مرة أخرى ولن أرد عليك إن عاوت الإتصال.
- مهلك علي... سؤالي: ما الذي يضمن لي أنك تميم فعليـًا ولست أحد أفراد العصابة التي هددته؟
- اذا أنت تعرف الموضوع... وتعرفني.
- نعم... هذا اذا افترضنا أنك تميم.
- نعم أنا تميم ولك أن تصدق أو لا أنت حر... سؤالي: من أخبرك بموضوع عائلتي؟

- تميم نفسه.
- متى شاهدته؟
- دوري بطرح السؤال لكن سأُجيبك حتى لا تهددني بإغلاق الخط مجدداً أنا أراه يومياً.

قفزت فرحاً... وقفت عن الكرسي وأصبحت أدور في البيت...

- اذا أنت تعرف مكانه؟ أرجوك أخبرني أين هو... هل عائلتي بخير؟
- انتظر... انتظر... لن أُجيبك على هذه الاسئلة جميعها...دوري في السؤال
- تفضل
- أين العصابة الآن؟
- غادروا الأردن جميعاً... أجبني على اسئلتي... أين عائلتي؟
- سأجيب على سؤال سابق وليس هذا السؤال، عائلتك بألف خير وأمورهم رائعة

فرحتُ جداً... السعادة تغمرني غمر...

- كيف يمكنني رؤيتهم؟
- لا يمكنك... بهاء لن يُعيدهم إلا عندما يتأكد أن بيتك يخلو من أجهزة التجسس ومن الرقابة ويتأكد بالفعل أن لا أحد يراقبك أو يتتبعك...

- لا أحد يراقبني وبيتي نظيف والعصابة خارج الأردن و...
- وما أدراك؟ هل تعلم أن الهاتف الذكي الذي تستعمله يمكن تتبعه؟ وأن اسهل طرق التجسس حاليًا هي الهواتف الذكية فهي ومواقع التواصل الإجتماعي قادرة على اعطاء معلومات كاملة عنك وعن موقعك بكل سهولة وخلال ثواني وأفضل من أي طرق تجسس تقليدية أخرى.
- جيمس بوند... أرجوك أن تخفف من فلسفتك وتحليلاتك وتخبرني عن الأهم...
- ما الذي يضمن لي إن أخبرتك بمكان بهاء أن لا يصله أحد قبلك! ومن يصل لبهاء قد يصل لعائلتك... فكر مليًا لا نريد أي خطأ
- هل تريد تعجيزي؟... أنا أُريد الوصول إليهم الآن قبل غد... أرجوك أنت آخر أمل لي... أرجوك لا تلعب بأعصابي... لقد قضيت وقتًا طويلاً أبحث عنهم ولقد تعبت جداً وتعب معي صديقان آخران... آن الآوان لهما أن يستريحا وآن الآوان لعائلتي لتستريح في بيتهم... الخطر زال فأرجوك أن تخبرني أين هم.
- من صديقاك اللذان تتحدث عنهما؟ أُريد أن أعرفهما
- المحامية أمجاد و المحقق أسامة.
- عرفتهما... وكيف تثق بهما؟

- " من لا يدخلك إلى هيكل أوجاعه لن يدخلك إلى بيت مودته"[1]

لقد ساعداني كثيراً وتبادلنا تعاسة وأحزان والآلام بعضنا... نحن أصدقاء منذ المشكلة ولم يصادف يوم إلا وساعداني بشكل أو بآخر... أمجاد محاميتي واستطاعت أن توصلني إلى البراءة وتعيدني إلى بيتي وعملي، ثم أحضرت أسامة رجل مباحث متقاعد ولديه خبرة في البحث الجنائي والإستخبارات وهو يبحث عن بهاء منذ أن تم تكليفه من أمجاد وهما يعملان معي منذ ذلك الحين دون أن يطلبا مني أي قرش لا بل يدفعان الكثير من المصاريف من جيبتهما وعندما خرجت من السجن كانا يصرفان علي من جيبتهما الخاصة.

- حقـًا؟
- نعم وأكثر
- اذا أنت تثق بهما جيداً؟
- نعم... أرجوك... إن كنت تريد بالفعل خدمتي أرجوك أن تخبرني بمكانهم وأنا مستعد أن أدفع لك ما تريد... أن أنفذ طلباتك وأوامرك... أي شيء... أرجوك.
- سأخبرك شيئـًا... أنصت جيداً!... بهاء أقرب لك مـمَ تظن... ولأني أعرف بهاء جيداً فهو لن يكشف لك مكانه إلا عندما يكون مطمئنـًا

---

(١) جبران خليل جبران.

١٠٠٪ أنك غير مراقب وأن العصابة ما عادت تمثل خطراً عليك أو على عائلتك.

- صدقني وأرجوك أن تخبر بهاء أنهم غير موجودين في الأردن.
- من أخبرك بذلك؟ هل تعلم أن بهاء كثير التنقل لأن أحدهم يتتبعه أو أكثر، ولذلك هو لا يثق بهاتفه وأغلقه... وما عاد يفتح حسابه على الفيسبوك... وما عاد يثق بأقرب الناس إليه... ولأنه مراقب فهو دائم التنقل بعائلتك.
- ومن يراقبه؟
- هو لا يعلم جيداً من هم لكن أرسل لي صورتين لشخصين ولقد عرف أن هناك شخص ثالث كان يسأل عنه في المفرق ووصل لحدٍ قريب منه!
- حقًا؟ هل يمكنني رؤية الصورتين؟
- حسنًا بودي لو أرسلهما لك عبر الواتساب لكن ستكشف رقمي... لكن بهاء يقوم حاليًا بتتبع هؤلاء الرجال عبر أصدقاء له.
- لقد اقلقتني.
- وجب عليك القلق لأنهم يراقبونك جيداً.
- يراقبونني! وكيف عرفت ذلك؟ لا بد أنك تراقبني أيضًا.

- نعم هناك من طرفنا من يراقبونك أيضـًا عن كثب... كما يراقبك أحدهم عن كثب... ليس وحده بل آخرون أيضـًا يراقبونك!
- آخرون؟
- طالما أنت تجهل هذا الأمر فإذا أنت غير آمن وبيتك غير آمن واذا كشف بهاء مكانه لك سوف تتعرضون جميعا لخطر داهم...
- وماذا أفعل؟
- سأرسل لك صورتين لشخصين يراقبانك وأحدهم يراقب بيتك بصورة يومية حتى وأنت خارج البيت يبقى مكانه يراقب بيتك ولا يخرج من مكان المراقبة إلا ليسلم المكان لمراقب آخر هو الشخص الثاني!
- أنت تثير رعبي... سأخبر الشرطة عنهما فور استقبالي لصورهما.
- لا ... إياك أن تفعل... ستكشف أشياء عنا لا نريد أن نكشفها.... لتبقَ مكالمتنا هذه سرية.
- حسنـًا كيف ستزودني بالصور؟
- سأترك لك شريحة هاتف لرقم لا يستطيع أحد أن يتتبعه والصورتين في مغلف وسأخبرك أين تذهب للحصول على المغلف قريبـًا... إنتظر مني مكالمة هاتفيـًا غداً.
- اتفقنا... لكن هل يمكنني إبلاغ أمجاد وأسامة عن هذه المكالمة؟

- لا... دع الأمر بيننا حتى أثق أنا بهما.
- حسنًا ولكن أرجوك دع بهاء يطمئنني على أولادي بأقرب فرصة.
- أولادك بخير صدقني...
- أنت تثير ريبتي... قبل قليل اتهمته بالمضطرب عقليًا ونلت من الرجل وحقّرته في مكالمتك والآن أنت تتحدث بكل ثقة عنه.
- حسنًا... لقد كنت أريد أن أعرف هل تميم معي... وهل أنت وحدك أم لا.
- أنا لا أعبث بموضوع عائلتي... أنا وحدي والمكان آمن صدقني.
- لا تعلم... مكالمتي هذه أكدت لي أنك لا تعلم! حتى أن هاتفك الذكي قد يكون تحت المراقبة وقد يكون هناك من يتتبع مكالمتنا جيداً وقد يكون قد حصل على رقمي ومكاني وأنت تجهل هذا الأمر... لكن أنا ذكي ولن يستطيع الوصول لي أو على مكان بهاء أو عائلتك لأننا أذكى منهم! ونتصرف بطريقة اسرع منهم ولا نبقى في مكان واحد لفترة طويلة.
- حسنًا... سأنتظر مكالمتك غداً صباحًا.

* المحجوب في حياتنا... خطر علينا *

في الصباح الباكر وبينما أنا في العمل وردني اتصال هاتفي منه يبلغني بأن المغلف موجود في بقالة معينة وأُغلق الهاتف... ذهبت وأخذت المغلف ولم أفتحه فوراً بل اتجهت لبيتي وهناك فتحت المغلف وجدت شريحة الهاتف ووضعتها في هاتف متنقل أخذته من صديق كإعارة لمدة مؤقته، ووجدت صورتين لشخصين ملامحهما غير واضحة كثيراً، يبدو أنها أخذت من خلال كاميرا هاتف متنقل لشخصين لم يحاولا أن يخفيا ملامحهما كثيراً! واضح أنهما عربيان! ركزت في إحدى الصورتين لرجل يبدو أنه مألوف الملامح... وكأنني رأيته مسبقًا.

مساءً رن الهاتف الجديد وكالعادة الرقم محجوب.

- مساء الخير... هل رأيت الصورتين؟
- نعم وكأنني رأيت أحدهما يومًا ما... وجهه مألوف رغم أن الصورتين غير واضحتين جيداً.
- حسنًا سنبقى الإتصال بيننا على هذا الخط وليس على هاتفك الآخر...

فجأة كان هناك طرق على الباب... انهيت المكالمة وأخفيت الصور والهاتف وفتحت الباب وكان أسامة وأمجاد، دخلت أمجاد وهي تلومني:

- لماذا كتبت على حساب بهاء ذلك المنشور؟

أنا: اليأس يجعلني أفعل أي شيء

أسامة: لقد تعرضت لإهانات لا تحصى على حسابه.

أنا: لم أتابع ما كتبوه اليوم لكن أمس بالفعل شتمني بعضهم... لا يهم... كانت محاولة لمعرفة مكان بهاء.

أمجاد: لا نريد منك أن تشعر باليأس... لذلك اتفقنا أنا وأسامة أن نتركك يومين لترتاح! ضغطنا عليك بما يكفي.

أنا: أنتما ضغطما علي! كيف ذلك؟ أنا من أتعبتكما معي... منذ مدة وأنتما بالكاد تتركاني... وأنا إن ابتعدت عنكما تقتربان مني!

أسامة: لذلك اتفقت مع أمجاد لنترك لك بعض الراحة وابتعدنا أمس عنك حتى لم نحاول أن نجري معك أي اتصال هاتفي.

أنا: لقد ظننت أنكما مللتما مني... ومن قضيتي.

أمجاد: قضيتك قضيتنا ولم ولن نتركك إلا للراحة فقط... والآن بعد الراحة أمس وتجديد نشاطنا لا بد لنا من أن نحدد خارطة طريق لعملنا لأننا نقترب أكثر وأكثر من بهاء.

أسامة: صحيح أنه كلما اقتربنا منه نشعر أنه ابتعد وأنه سيبقنا بخطوات لكن شعوريًا أعتقد أننا سنعرف مكانه خلال أيام بسيطة... لن يختفي أكثر.

أنا: هل حصلت على معلومات من شركة الإتصالات؟

أسامة: غداً سيطلعني صديقي على هذه المعلومة قال لي أنها تحتاج لبضع أيام وليست بالسهولة التي كنتُ أظنها.

أنا: وماذا بعد أن نعرف مكانه الأخير ولم نجده هناك؟

أسامة: لا لن نعرف فقط مكانه الأخير... نحن سنستخدم خارطة لتحديد أماكن تواجده... خط مسيره... هذا سيجعلنا نتمكن من معرفة أين سيكون مستقبلاً وذلك بربط هذه المعلومات مع أصدقائه ومعارفه.

أنا: أصدقاؤه ومعارفه! كيف؟

أسامة: أمس وأنا بعيد عنك كنتُ أعمل... كنتُ اتفرغ لشيء ما كنتُ استطيع أن أعمله وأنا معك.

أنا: وما هو؟

أسامة: كنتُ من خلال حساب بهاء أحصر اسماء واماكن تواجد أصدقائه وحصلت على معلومات قيمة.

أنا: لا بد أن الأمر مرهق ومتعب...

أسامة: أنا لا أعمل وحدي... أنا معي فريق كبير من الزملاء المتقاعدين العسكريين وأيضًا الشباب... ما لا تعرفه عن عملي هو أنني مدير شركة تحقيق خاص وبحث وتحري ويعمل تحت أمرتي ٣٠ موظفًا.

أنا: حقـًا؟

أسامة: وأمجاد شريكة معي في الشركة ونحن نعمل لحساب الكثير من الشركات والبنوك والمؤسسات الذين يتعرضون لنصب من عملاء يختفون فجأة... ونحن نكشف أماكن تواجدهم وثم نسلم معلومات وجودهم لهذه الشركات أو للشرطة، أو تتولى أمجاد العمليات القانونية لصالح هذه الشركات.

أنا: وهل أنتم مرخصون؟

أسامة: طبعا نحن لسنا فقط شركة تحقيق وبحث وتحري... بل شركة تقدم خدمات أمن وحماية وعملنا قانوني ومرخص من قبل الجهات الرسمية.

أنا: وما نسبة نجاح عملكم؟

أسامة: وصلنا لنسبة حل ٩٩٪ من قضايانا وعددها حتى الآن ٤٠ قضية بحث وتحقيق، القضية الوحيدة التي ما زالت مفتوحة ونشعر بصعوبتها نوعـًا ما هو قضيتك.

أمجاد: ولكن سنحلها... نحن خبراء... سنحلها.

أسامة: بالتأكيد.

أنا: حسنـًا... هل يمكنك أن تطلعنا على التفاصيل؟

أسامة: سأتصل مع أحد الموظفين ليحضر لنا الملف كاملاً من المكتب ويحضر لنا العشاء أيضًا.

كيف لا أثق بهذين الشخصين وهما يقدمان لي كل هذه الخدمات ويعملا بكد ونشاط لي دون أي مقابل... دون أي وعدٍ مني بمقابل مادي أو معنوي أو حتى بمقابل أن إسدائهما أي خدمة مستقبلاً...

كيف لا أثق بهما؟ كيف أشك بهما؟ وهما كل أمل لي في هذه الحياة... وهما كل الأصدقاء لي في هذه الحياة... حتى صديقي وحيد في الحياة جاحظ العينين تخلى عني وما عاد يظهر لا في فرحة ولا في حزن... اختفى عني... لعن وجودي... كفر بي... كرهني... وتخلى عني... اعتزل عني... وهما باقيان.

كيف انصت لشخص لا أعرفه تحدث معي عبر الهاتف لم يعطيني اسمه ولا رقمه ويخبرني أن اكتم عنهما سر! وأنا احذر منهما! إلى متى؟

إلى متى وأنا هكذا؟ اتخبط... لا أعرف أن اتخذ قراراً... لا أعرف طريقًا للحق وأتوه في عالمٍ لا يرحم... أمشي وأنا خائف من التعثر... وأتعثر رغم الحذر في المشي... والفرح لا أشعر بطعمه إلا بوجودهما معي... وجودهما معي يمنحني الثقة

" ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لئلا يظهروا للناس أنهم بعيدون عمن لا أحلام لهم، والذين يعتزلون مملكة العري، ساترين عري

أنفسهم حتى لا يستحي الأحرار من النظر إلى الحق عارياً والتأمل بالجمال سافراً وأعظم من هؤلاء جميعهم ذلك الذي يعتزل مملكة الحزن لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته"[1]

سأمنح ذلك الشاب ٢٤ ساعة فقط ليظهر نفسه وإلا فإنني سأكشف لهم حقيقة الإتصال وسأريهم صور الشخصين اللذين يراقبانني ويراقبان بيتي...

طُرق الباب فقمت افتحه...

كان يقف على الباب رجل مألوف الوجه يحمل بيد ملفاً وباليد الآخرى أكياس تفوح منها رائحة زكية... أنه... أنه... أنه واحد من الشخصين الذان ظهرا في الصورتين اللتين بعثهما لي المتصل المجهول! أنه أحد الذين يراقبونني ويراقبون بيتي... كيف؟... ماذا؟ وأين ولماذا؟

بقيت أنظر له مطولاً وهو يطرح السلام دون جواب مني... أعاد طرح السلام مجدداً دون رد مني وأنا أنظر له... مجدداً طرح السلام ثم تبعه جملة: هل هناك خطب استاذ تميم؟

لاحظ كل من أسامة وأمجاد تصرفي وعدم نطقي وتوتري وانقباض يدي استعداداً للهجوم على الرجل الذي يقف على الباب ويحمل في يدٍ ملف وفي اليد الأخرى أكياس من الطعام... وقفا... تحرك أسامة بيني وبين الرجل... وقف تقريباً بيننا...

---

(١) جبران خليل جبران.

أسامة: ما المشكلة يا تميم؟ هذا موظف عندي أحضر كما طلبتُ منه ملف القضية وطعام لنا...

وضعت أمجاد يدها على كتفي...

أمجاد: تميم ما المشكلة؟

أنا: ما المشكلة؟ سأعلمكما ما المشكلة...

دخلت إلى داخل البيت وأخرجت من أحد الأدراج الهاتف والصورتين ورميتهم على الطاولة حيث نجلس وقد تبعوني ثلاثتهم نحو الطاولة!

نظروا جميعا للصورتين...

وضع الرجل الملف والأكياس على الطاولة وقال: هذه أنا!

أنا: نعم أنت... الصورة هذه لك... وتخيلوا من أين حصلت عليها؟

أسامة: من أين؟

أنا: قبل أن أقول لك من أين حصلت عليها... هل هذا موظف عندك؟

أسامة: نعم موظف في شركتي.

أنا: اذا إما أنا غبي وأنتم جميعا متورطون في موضوع الكنز والعمل مع العصابة! وإما أن موظفك يخونك ويراقبني لصالح العصابة.

أسامة: ومن أين لك هذا التحليل؟ ومن أين لك هاتين الصورتين لموظفين من عندي؟

أمجاد: صور وهاتف أول مرة أراه معك... ما الموضوع تميم؟ أتشك بنا رغم كل ما فعلناه سويًا ومعًا؟ ألهذه الدرجة تنسى كل ما فعلناه وصداقتنا وتشك بنا؟

أنا: سأخبركم كل شيء إن أخبرتموني لماذا كان موظفيكم في شركة الأمن والحماية خاصتكم يراقبونني ويراقبون بيتي؟

أسامة: أجلس ودعني أحدثك... أجلسوا جميعًا...

جلسنا وبدأت أمجاد تخرج الطعام من الأكياس وأخذت تحضر صحونًا ومعالق وسكاكين وتوزع الدجاج المقلي والبطاطا والخبز وعُلب السلطة وغيرها على الطاولة فيما بيننا... كان الرجل مرتاحًا غير متوتر وكذلك هم إلا أنا كان جسمي يرتعش توتراً!

أسامة: أتذكر يا تميم حينما كسرتُ باب البيت وأنا أطرقه وأنت كنت لا تجيب... وعندما دخلت عنوة لبيتك وهاجمتني... أتذكر؟

أنا: نعم أذكر وما علاقة هذا الأمر برجلك هذا؟

أسامة: ألا تتذكر أنه خلال دقائق قليلة كان يقف على الباب رجلٌ مسلح كان يحمي ظهري.

نعم... تذكرت... صحيح... كان هناك رجلٌ آخر مسلح اقتحم البيت عندما كسر أسامة الباب ودخل شاهراً مسدسه ظنًا منه أن هناك أحد آخر في البيت.

أمجاد: نعم صحيح كان هناك رجلٌ آخر في البيت وهو أحد موظفي الأمن والحماية.

أسامة: أنه رجلٌ مكلف بحماية البيت... لقد استأجرنا بيتًا في حييك ويقيم فيه كل يوم رجل من الموظفين عندي يراقب البيت ليل نهار وفيه كاميرة تراقب البيت من الخارج، حتى اذا ما حاول أحد اقتحام البيت أو التعرض لك أن نكشفه فوراً.

أنا: اذا كانوا معك لماذا لم تخبرني؟

أسامة: لقد رأيت الرجل ودخل بيتك وحمى ظهري هذا وحده لا يكفي ليظهر لك أنه يعمل معي؟ ثم أخبرتك أنني صاحب شركة أمن وحماية وتحقيق وبحث ولا أقوم بكل الأمور وحدي فهناك موظفون عندي وأصدقاء يعملون معي...

أنا: لماذا لم تخبرني أن هناك من يراقبني.

أمجاد: أنا سأقول لك... أنا من منعه أن يقول لك، لأنني لم أرغب أن أراك متوتراً دومًا... وجود أحد يراقبك ليل نهار سيجعلك تتوتر وقد تتصرف بطريقة لا نرغبها أو تنفعل... أتظن أن كل من يراقبك يكرهك؟ الأب يراقب ابنه الأم تراقب طفلها والمعلم الجيد يراقب تلميذه والمدير الناجح يراقب موظفيه... الرقابة شيء صحي في حياتنا ونحن كنا نراقبك لنكتشف أي تحركات حولك تهدف لأذيتك أو أذية عائلتك، أو لنعرف أن كان بهاء قريب جداً منك.

أنا: اذا جعلتم أحد يراقبني اذا ما زال الخطر موجوداً... هذا ما جاء ببالي.

أسامة: لا يوجد شيء مؤكد ولذلك نحن نعمل على كافة الإتجاهات... لا نكتفي بتقرير التحقيق الرسمي حول بهاء وعائلتك حول العصابة أو الفريق الأثري... نحن نملك ملفًا كاملاً عن القضية.

أمجاد: أرجوك لا تخفي عنا أي شيء مستقبلاً.

أنا: لن أعتذر لأنني ما زلت لا أفهم شيئًا... وما عُدتُ أثق بأحد.

وقف أسامة وتبعه موظفه ووقف أيضًا وحمل الملف عن الطاولة وقال:

لا تعتذر... ولكن إن ما عدت تثق بنا فنحن اذا لسنا أصدقاء! سأخبرك شيئًا، إن لم نجد عائلتك خلال مدة ثلاثة أيام إعتباراً من الآن فسأنسحب أنا وموظفي شركتي من هذه القضية... سأعطيك الملف كاملاً ولك أن تبحث وحدك أو أن تكلف آخرين بالبحث.

رمى أسامة الملف على الطاولة وهو منزعج وخرج هو وموظفه من البيت!

أمجاد: لقد أخطأت بحق أسامة... لم نكن نتوقع هذه المعاملة الخشنة منك... ألهذا الأمر وصلت أمورنا! عدم ثقة ونزاع وخلاف.

لم أجب... وضعت يدي اليسرى على الطاولة واتكأت عليها كمن يفكر...

أمجاد: نحن لا نعمل في هذه القضية لسبب مالي ولا نعمل عليها لسبب شخصي، لا بل حتى لا نعمل عليها لسبب وطني... نحن نعمل عليها لسبب انساني... سبق أن جلسنا مثل هذه الجلسة وقلنا مثل هذا الكلام وقلنا أن أمورنا بخير وأننا لن نتركك ولن نتوانى عن البحث عن عائلتك بالرغم من أنك أسأت إلينا، ولكن نحن بشر ولنا أحاسيس... لن نرضى أن نتعرض للإهانة والإساءة وانعدام الثقة والتخوين هكذا بلا سبب... ومرتين.

صمتت وهي تنظر إلي ودام صمتها برهة...

أحسد من لديهم القدرة على النطق في هذا العالم..."من قال لا في وجه من قالوا نعم"[1] أما أنت يا تميم فأنت لم تقل لا ولم تقل نعم... موقفك نصف موقف، وأنت تُشبه من يقف في منتصف الطريق، لا يريد أن يكمل نحو الهدف ولا يريد أن يعود للخلف.

بقيتُ صامتاً... بعد برهة قالت:

انتبه جيداً يا تميم فإن هذا الأمر سيخدعك... سيجعلك تكره كل من هم حولك ولا تثق بأي انسان... سيجعل حياتك جحيماً... سأتركك لتفكر... ولك حرية الإختيار.

حملت حقيبتها وخرجت من البيت أيضاً.

---

(١) أمل دنقل.

كان معظم الطعام مكانه لم نأكل منه إلا الجزء اليسير، وهناك على الطاولة الملف الكبير الذي تركه أسامة، أمسكته وفتحته، الأوراق الكثيرة التي فيه تُشير لعمل مضني وعمل متواصل وكثيف وجهد لمجموعة كبيرة من الموظفين لكن لا أعرفهم.

هناك مجموعة أوراق كُتب فوقها تقرير عن زيارة المفرق كتبه أسامة وشخصان آخران...تحدث التقرير عن تحقيق أين سارت السيارة وأين توقفت وكيف مشت داخل المدينة وأين اختفت، الأسئلة التي طرحها المحققون على بعض البيوت والمارة والأجوبة...

تقرير آخر أعده محقق واحد عن شبهة تتعلق بشخص كان يدور حول البيت تبين لآحقًا أنه شحاذ...

تقرير آخر أعده محققان عن عملي والموظفين وكيف أن المحققين تخفيا على أنهما مراجعان لدى الدائرة ليعرفا اسماء بعض الموظفين وارتباطهم بعلاقات مفترضة مع العصابة.

صور... الكثير من الصور

تقارير... والمزيد منها...

اسماء محققين كلفوا بأعمال محددة... دوامهم... رواتبهم... أنها مبالغ كبيرة دفعوها لهم.

فواتير متعددة...

نسخ من تحقيقات الشرطة... والكثير من ملخصات القضية!

إن الأمر ليس سهلاً... عمل جماعي ضخم جداً... وكله دون أدفع لهم قرشًا واحداً... دون أن أوقع لهم على قصاصة ورق واحدة أو شيك أو وعد بالدفع من قبلي!

ثم رن الهاتف الجديد... فتحت الخط وكان الرجل الذي اتصل معي مسبقًا...

- لقد ذهب أصدقاؤك وأنت وحدك في البيت
- أنت تراقبني أيضًا؟
- نعم... لأعلم إن كان هناك أحد يتبعك أو يراقبك.
- أنت تراقبني... وأسامة وموظفيه يراقبونني... والله أعلم من يراقبني أيضًا!!! من أنا لتتسلط علي كل هذه الأنواع من الرقابة؟
- اذا اعترفوا لك أنهم يراقبونك...
- نعم في الواقع هم لم يعترفوا... هم أخبروني بها بشكل أو بآخر مسبقًا ولكن نسيت ذلك... لقد حضر أحد الرجال الذين صورتهم لبيتي يحمل ملف القضية وطعام وعندما رأيته أخبرتهم بفحوى مكالمتنا.
- وماذا كانت ردة فعلهم؟
- أعتقد أنني أغضبتهم... غادروا دون أن يأكلوا.

- هل انتهت علاقتك بهم؟
- لا... قال لي أسامة أنه اذا لم يجد عائلتي خلال ثلاثة أيام فسيترك القضية.
- اذا هل تعتقد أنهم أُناس طيبيون؟ أنا رأيت الحسرة والحزن في عيونهم وهم يغادرون بيتك!
- أنت قريب جداً من البيت...

قمت واقتربت جداً من النافذة لأرى إن كان هناك أحد قريب من البيت... لا أحد... لا شيء.

- أنا كنتُ قريبًا... إقتربت منهم وهم لم يلاحظونني.
- من أنت يا رجل؟ ارحمني... ما عاد فيَّ أعصاب...
- أنا بهاء
- بهاء!
- نعم أنا بهاء... وعائلتك في مكان آمن
- أين هم... أين أنت؟

ركضت نحو الباب فتحته وأخذت أنظر يمينًا ويساراً فوق وركضت حول البيت وفي الشارع وأنا أصرخ عبر الهاتف... أين أنت؟ أين هم؟

- أنا قريب جداً وأعدك أنك سترى عائلتك قريبًا... أقرب مما تتوقع.
- أرجوك...متى؟

- إن عبر هذا المساء دون مشاكل ستراهم غداً
- أي مشاكل؟
- إن كان أصدقاؤك صالحين وغير مرتبطين مع العصابة سيفرحون معك وإن كانوا مع العصابة سيحاولون اخفاء الأمر أو انكاره عنك... وإن أخفوا عليك محاولتي الإتصال بهم بعد قليل فعليك أن تحذر منهم وتختفي... عليك أن تهرب بعيداً عنهم دون أن يشعروا بك...

مشيتُ للبيت وأنا أنظر يميناً ويساراً وإلى الأمام وإلى الخلف عسى أن اشاهد أحدهم وهو يمسك هاتفاً خلوياً في الشارع فأعرف من يُحدثني سواء كان بهاء أو غيره.

وانتهت المكالمة.

* لم أكن إلهـًا قط... أنا مجرد إنسان *

رن هاتفي العادي رنة مسج... فتحته وكانت المسجات تتوالى من رقمٍ غريب: " لا شيء مثل العائلة... لا تبحث عن حبٍ خارج العائلة... أي حبٍ خارج عائلتك هو خيانة، وإن كنت لا تحب زوجتك فهذه مشكلة، لكن لا تُحل مشكلة بمشاكل أخرى.

إياك والخيانة... فإن خنت شخصـًا ما في حياتك ستتعرض بدورك لخيانة، وكما تحب أن يعاملك الناس عاملهم أنت. فكيف لو كانت زوجتك وشريكة حياتك!

إن كانت الحياة بينكما صعبة جداً وبينكم أطفال فعليكما أن تتحليا بالصبر والتحمل، أنه من السهولة أن تهدم بيتـًا ولكن من الصعوبة أن تبني انسانـًا، والأطفال لا علاقة لهم بمشاكلكما... دوركما أن تحميا الأطفال لا أن تعرضوا ابناءكم لمخاطر نفسية أو مشاكل هم في غنى عنها. الأطفال لا يعرفون كيف يعبرون عن انفسهم لكنهم يرتعبون جداً كلما سمعا الأبوين يختلفان ويتصايحان... لا بل يرتعبان جدا اذا شعرا بالخلاف يتطور... وكل طفلٍ يُشاهد أبويه ينفصلان سيشعر في داخله بإنقسامٍ عمودي... أنه كمزهرية من الزجاج عندما يشاهد والديه يختلفان يقع ويتحطم، وبدل أن يحميه والداه فإنه يتكسر بسببهما!

الزواج التقليدي لعنة لكن اذا اتجهت له لا تلعن حظك... أنه قرارك.

إن كنت لا تستطيع الإرتباط بمن تحب وقررت في مرحلة ما في حياتك الإرتباط بمن لا تحب، فإن نتائج قرارك يجب أن تكون محسوبة، لا تلعن الآخرين بسبب قرار أنت اتخذته.

اللعنة ليست في المكان بل اللعنة في الناس وأي مصيبة تصيبنا حينما نتصرف ونتخذ قراراً ثم ننسب هذا الخطأ الفادح لشخص آخر وحينما يتحمل نتائج هذا الخطأ أطفال لا ذنب لهم.

إياك والعبث خارج البيت، لا تبحث لنفسك عن أعذارٍ أو مبررات، إن أقسمت على الأمانة فعليك الحفاظ على أمانتك وإن أقسمت على الإنتماء فعليك الحفاظ على الإنتماء وإن أقسمت على أن تكون جزءاً من حياة زوجتك وأن تُخلص لها فعليك أن تكون على قدر القسم الذي أقسمته وإلا فأنت لست برجل. الرجل هو من يحافظ على وعوده ومن يحافظ على الأمانة ومن يخلص لنفسه وكلمته وعائلته.

لعل الغياب أفهمك كل هذه الأمور...

لعل الغياب أوجعك... أنها فرصة عظيمة لك من جهة ولعائلتك من جهة أخرى... فرصة للمراجعة وفرصة للتفكير وفرصة للراحة وفرصة لمعرفة كيف تصلحان الأمر بينكما.

نحن نحتاج الغياب في حياتنا أحيانًا... الغياب عن أشخاصٍ أو مكانٍ أو وظيفة أو موضوع ما... غيابًا مؤقتًا لا يطول كثيراً... الإبتعاد

أحيانًا يجعلنا أكثر قدرة على قراءة الأحداث ومعرفة الصواب والخطأ، وتقييم الوضع، والخروج بنتيجة.

اتمنى أنك استغللت هذا الغياب في التفكير مليًا بأخطاءك وخرجت بنتائج جيدة، نتائج تفيدك وتفيد عائلتك... ليس فقط على ما حدث على نطاق عائلتك، بل حتى تفكيرك السلبي إتجاهي وإتجاه ما أمثل واتجاه الكثير من القضايا وتنظر بعين إنسانية لكل ما يدور حولك.

أيقتلك الغياب؟ أتنتحر الكلمات على شفتيك بإنتظار رسالة ما... أمرٍ ما! أتقتلك المسافات؟ هل تعلم أن بعض الغياب قرار وبعض الغياب خيار! يكون خياراً عندما تتفق بينك وبين زوجتك على غيابٍ مؤقت لغايات الراحة، لكن هذه المرة جاء الغياب قسريًا... لكن مفاعيل الغياب واحدة... والنتائج واحدة... ضع ثقتك في نتائج هذا الغياب، فإما أن تتصالحا وتكفا عن نزاعكما أو أن تفترقا... أطفالكما يتآكلون بسبب هذا الخلاف... أطفالكما يتشوهون من الداخل بسبب صراعكما مثل الديوك. عليكم أن تكفا عن هذه الحياة التعيسة والقرار قراركما إما أن تتعاشيا وتبدأن ببناء منزلٍ صحي أو أن تفترقا... والفراق مؤلم لأطفالكما لكن بقاء الحال على ما هو عليه مؤلم أكثر للأطفال... عليكما أن تقررا... تقررا وحدكما... لكن الخيانة ليست حلاً... الخيانة وحبٍ خارج إطار الزواج ليس حلاً.

خذ زوجتك إلى شرفة بيتك، أمسك بيدها كملكة... كأميرة... ودعها تنظر للقمر في السماء وقل لها: أترين هذا القمر... أنهُ أنتِ... وهذه السماء مرآةٌوهي أصدق من تلك المعلقة في غرفتك، وعندما تسمع زوجتك هذا الغزل ستعلم حقًا أنها محبوبتك الوحيدة وستندم على كل كلمة قالتها بحقك ولم تكن صحيحة.

أولادك يفتقدونك... يحبونك جداً ويسألون عنك معظم الوقت... رغم كل الرحلات والملهيات والألعاب والطعام اللذيذ لأبعدهم من أجواء الفقد المؤقت للوالد لكنهم بالفعل يفتقدونك ويحبونك وأعتقد أن جدرانًا اسمنتية بالقرب منك بالنسبة لهم أكثر جمالاً من رحلات في البحر الميت وعجلون والبترا والعقبة وجرش وعمان وأم قيس وأم الجمال وغيرها... كلها أماكن تنقلنا فيها دون أن يشعروا بأي خوف.

زوجتك وأولادك سيكونون قريبًا بين أحضانك.

حاولت بعد قراءة الرسائل المتعددة أن أتصل مع الرقم لكن كان الرقم لا يمكن الإتصال به.

* لنطوي صفحة *

بهاء قريب جداً مني ومع ذلك لا يرضى بأن يطلعني على مكان أولادي، وأمجاد وأسامة حاولا جهديهما وأعتقد أنهما صادقان... لكن ما يثير استغرابي أن شركة أمن وحماية وتحقيق وبحث عجزت بكل موظفيها على تتبع هذا الشاب وهو الآن قريب جداً مني! ما السر؟ إما لديهم قصور وإما أن بهاء ذكي جداً ليبتعد كلما اقتربنا ويقترب كلما ابتعدنا... أنها لعبة القط والفار!

بعد أن جلستُ في البيت لبعض دقائق رن هاتفي وكانت أمجاد...

- اخبرني موظف الشركة الذي يراقب البيت أنك خرجت بعد مغادرتنا البيت تركض في الشوارع... تميم هل أنت بخير؟
- نعم... اذا ما زلتم تراقبونني؟
- تميم نحن نراقب البيت لنحميك... إن أردت أن اجعل أسامة يسحب المراقبة فلا يهمك... خلال دقائق سيغادر الشقة ونسلمها لأصحابها.
- لا... لا أنتم قلتم أنكم تسجلون واجهة البيت بكاميرا...أهذا صحيح.
- نعم! اذا لا بد أن الكاميرا سجلت مرور بهاء بالقرب منكم... لقد اتصل معي قبل قليل وبعد مغادرتكم بدقائق وقال أنه شاهدكم وأنتم تغادرون البيت حتى أنه وصف لي معالم وجوهكم.

- حقًا؟ اذا سأرجع نحوك وسأتصل مع أسامة ليعود... وسنقابلك بعد قليل لنذهب للشقة ونشاهد الشريط مجدداً.
- الليلة قد نعرف أين هو... أرجوكِ لا تتأخري.

ما هي إلا نصف ساعة وكانت أمجاد تطرق باب بيتي... فتحتً الباب فطلبت مني ترك البيت والذهاب للشقة معًا وأن أسامة ينتظرنا هناك، مشيتُ معها حتى وصلنا لعمارة تبعد عن بيتي حوالي ٤٠ متراً وصعدنا نحو شقة في آخر العمارة وكان فيها أسامة وثلاثة رجال سلمنا عليهم وكانت هناك كاميرا كبيرة موضوعة بإتجاه الشارع ومركزة على بيتي والكاميرا مرتبطة بجهاز تسجيل مرتبط بجهاز حاسوب يظهر حركة السير وايضًا يظهر الواجهة الأمامية لبيتي.

أنا: لم أتوقع أنه بعيد لهذه الدرجة... على وصفكم توقعت أنه أقرب!

أسامة: هذه الشقة الوحيدة التي استطعنا الحصول عليها... باقي الشقق في المنطقة مستأجرة.

أمجاد: هل يمكننا رؤية التسجيل منذ مغادرتنا البيت.

أسامة: هيا لنراه أرجوكم شغلوا الإعادة

شاهدنا سيارة تمر بالقرب منهم وهم يغادرون... سيارة تمشي ببطء لكن لم تكن الكاميرا قوية بما يكفي لنحصل على رقمها فقط عرفنا نوعها.

رن هاتف أسامة...

أسامة: رقم محجوب!

لم أقل شيئًا...

أسامة: ألو...

فتح أسامة السماعة الخارجية

- أنا بهاء...

أسامة: أهلا بهاء... لماذا أنت دائم التخفي؟ القضية انتهت... العصابة خرجت من الأردن وتميم رجع لبيته وعمله ولا يوجد خطر عليه وعلى عائلته.

بهاء: وما الذي يضمن لي ذلك؟

أسامة: أنا اضمن لك ذلك... بعد حكم البراءة الذي صدر لتميم وعودته لعمله دون أي مشاكل كان تحت الرقابة الحثيثة منا وصدقني حتى الذين تعاونوا مع العصابة من الأردنيين خضعوا لإستجوابنا ومراقبتنا.

بهاء: لكنكم لم تستطيعوا أن تكشفوني وأنا أراقبكم.

أسامة: لا بد أن هناك قصور معين من طرفنا لكن صدقني نحن أقرب إليك مما تظن.

بهاء: نعم أعرف هذا... ولكن حتى أضمن سلامة الأطفال الذين معي أريد أن أتحدث مع تميم ولا مانع لدي من إبقاء السماعة الخارجية مفتوحة.

أسامة: تميم بقربي ويسمعك جيداً.

بهاء: أنا أعرف ذلك أيضاً... تميم، هل تريد أن تخبرني عن وضعك؟

أنا: صدقني يا بهاء أسامة يخبرك الحقيقة أنا بخير ولا أحد يتابعني الآن وقد عدتُ لحياتي الطبيعية منذ مدة.

بهاء: كنتُ أريد أن اسمع هذا الكلام منك... وأريد أن أتأكد، حتى أُنهي المهمة التي كلفتني بها بنجاح.

أنا: نعم أُؤكد لك أن كل الامور على ما يرام... أنا بخير ولا أحد يتابعني وعدتُ لعملي والمحكمة حكمت ببراءتي والعصابة غادروا الأردن ولم يبق منهم أحد هنا.

بهاء: حسناً... وهل وصلتك الرسائل على هاتفك؟

أنا: نعم

بهاء: هل فكرت جيداً في فترة غياب عائلتك عنك؟

أنا: صدقني يا بهاء أنا أكثر ندماً مما تتوقع... أنا إنسان مختلف الآن... لا استطيع أن أصف لك قلبي الآن.

بهاء: هذا الأمر بينك وبين عائلتك الآن.

أنا: هل عائلتي بالقرب منك؟

بهاء: في الغرفة المجاورة... زوجتك وأطفالك يأكلون الآن.

أنا: هل يمكنني التحدث معهم؟

بهاء: انتظر قليلاً ... لقد ابتعدت عنهم حتى لا يسمعونني... أنا وزوجتك لم نخبر الأطفال بأي شيء عن العصابة وأخبرناهم أن غيابك كان بسبب العمل.

أنا: أحسنتما

بهاء: أنا وزوجتك أخبرناهم أنني وأنت اصدقاء ثم جعلنا التنقل بالنسبة لهم رحلات... لقد سعدوا بها.

سمعنا مشيًا ثم فتح باب وصعدت أصوات أولادي وزوجتي وطرق معالق وصحون... سمعت طفلتي تنادي " عمو بهاء عمو بهاء أين بابا؟"

بهاء: أتريدين الحديث مع بابا؟

- نعم أرجوك
- بابا معي على هالهاتف
- أعطيني أتحدث معه.

سمعت الأطفال يتراكضون نحوه وهم يقولون: "وأنا... وأنا...وأنا"

ثم سمعت صوت إبنتي الكبرى

- بابا... بابا

أول مرة اسمع صوت طفلتي من شهور

- حبيبتي أميرتي... كيفك يا صغيرتي؟
- بحبك بابا ... بابا أنا أرتدي تاج أميرة وثوب عروس بيضاء.
- جميل حبيبة بابا... هل أنتِ بخير حبيبتي؟
- نعم بابا، لقد زرنا البترا وشاهدنا السيق والآثار وزرنا عجلون وتصورنا في القلعة واشترى لي عمو بهاء فستان أحمر وذهبنا إلى الغابة وشاهدتُ ذئب ولم يأكلني الذئب.

ضحكنا جميعًا

- وذهبنا بابا إلى العقبة ولقد سبحتُ في البحر وتبلل فستاني الأحمر لكن ماما نشفته لي وذهبنا إلى البحر الذي مات.

ضحكنا مجددا

- وهناك ماما ألبستني الثوب الأبيض الذي اشتراه لي عمو بهاء وتاج الأميرة وكنا في فندق وجعلوني أميرة مثل تلك التي باللوحة وصفقوا لي كثيراً وقبلوني لأنني ازحت الغطاء عن صورة الأميرة.

أنا: أحسنتِ بابا.

أمجاد: إنتظر.. إنتظر تميم... هل قالت أنها كانت تلبس تاجًا وفستانًا أبيض؟ إنها نفس الطفلة التي كانت بجانبي في الفندق وطلبنا منها ازاحة الستار.

أسامة: أي ستار وأي طفلة؟

أمجاد: إبنتك كانت بجانبي لمدة نصف ساعة في فندق البحر الميت.

الصدمة ملأت وجوهنا جميعـًا... ألهذه المسافة كانت أمجاد تبتعد عن عائلتي؟ مسافة صفر... ولم تعرفهم رغم أنها شاهدت صورهم عدة مرات...

- ومن كان معكِ في فندق البحر الميت؟
- ماما وأخواني... بابا لقد تعبنا من الرحلات.
- أعلم بابا... وأنا تعبت بعيداً عنكم.
- اذا عد للبيت... نحن نشتاق لك.
- أنا عُدتُ للبيت بابا ... أنتم عودوا.
- أين أنت بابا؟ نحن في البيت الآن!
- أي بيت؟
- بيتنا بابا... بيتنا... نحن نأكل الآن طعامـًا جلبه لنا عمو بهاء ووجدنا طعامـًا على الطاولة أيضـًا ونأكل منه.

نظرنا جميعـًا لبعضنا البعض

- بابا أعيدي ما قلتيه... أين أنتم؟
- في البيت بابا... في البيت بابا، لقد عدنا قبل قليل.

النهايـة.....

السيرة الذاتية للروائي أشرف الضباعين

ولد في مدينة مادبا الأردنية في عام ١٩٧٣ وحاصل على بكالوريوس إدارة أعمال. وعمل كإداري في العديد من المؤسسات والشركات في القطاعين العام والخاص.

كاتب ومؤلف لعددٍ من المؤلفات وهي بالإضافة لهذه الرواية:

- الكتب والمؤلفات التي نشرها بالترتيب:

١- إدارة المواقع الأثرية وتسويقها سياحيًا، مكتبة الراتب العلمية، عمان، ٢٠٠٣.

٢- مواقع التراث الثقافي – إدارة وسياحة وتسويق، وزارة الثقافة الأردنية، عمان، ٢٠١٢.

٣- ليتني- يوميات عاشق غريب، ٢٠١٤ (نصوص نثرية).

٤- خوف خلف الأقنعة، ٢٠١٥ (مجموعة قصصية ونصوص).

٥- الوهم، دار الخليج للطباعة والنشر، عمان، ٢٠١٧ (رواية).

٦- إدارة الآثار والتراث وفقا للمعايير العالمية، دار ورد للنشر، عمان ٢٠١٩.

- الكتب والمؤلفات التي يعمل عليها:

١- قبلات يهوذا – إدارة الفكر والفلسفة في المسيحية عبر التاريخ (تاريخ مسيحي، فلسفة دينية، لاهوت).

٢- لملمة حب وقصاصات غياب (نصوص).

- مشاركات وأعمال ثقافية:

١- المشرف العام لمبادرة نشر للثقافة والعلوم.

٢- كاتب غير متفرغ في العديد من المواقع الإلكترونية والصحف والمجلات في قضايا سياسية وأدبية وثقافية.

٣- عضو هيئات ثقافية واجتماعية متعددة.

٤- عضو هيئة تحرير لمجلات ذات صبغة ثقافية.

- الدروع وشهادات التقدير:

١- درع دائرة الآثار العامة الأردنية لسنة ٢٠٠٤.

٢- شهادة تقدير من ملتقى نيبو للثقافة والتراث لسنة ٢٠١٣.

٣- درع جمعية عشيرة العزيزات لسنة ٢٠١٤.

٤- درع صالون مادبا الثقافي لسنة ٢٠١٥.

٥- درع منتدى أدباء الثقافي لسنة ٢٠١٦.